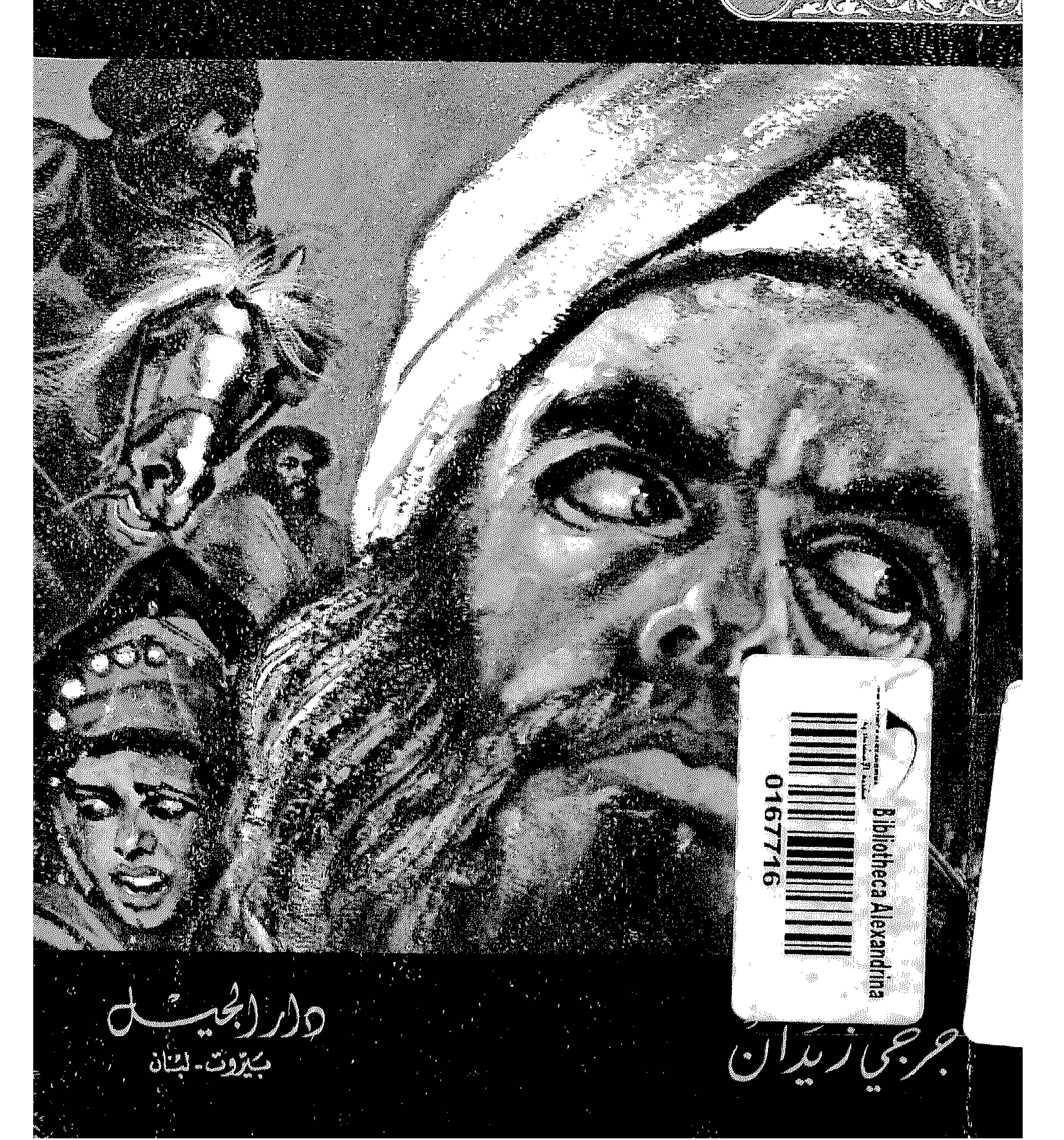
الحجاج بن يوسف

روايات تاريخ الإسلام



جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

روايات تاريخ الإسلام

الحجاج بن يوسف

تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها ومقتله وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان . مع ما يتخلل ذلك من وصف مكة والمدينة

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

ابطال الرواية

- **عبد الله بن الزبير** : ابن الزبير بن العوام
- **عبد الملك بن مروان** : احد ملوك بني أمية
- **الحجاج بن يوسف الثقفي** : عامل عبد الملك على العراق
- **سكينة بنت الحسين** : بنت الحسين بن علي
- **ليلى الاخيلية** : الشاعرة المشهورة
- **عزة الميلاء** : زعيمة الغناء بالمدينة
- **سمعة بنت عرفجة الثقفي** : من فتيات المدينة
- **حسن خطيب سمية** : من اهل العراق
- **محمد بن الحنفية** : اخو الحسين بن علي
- **عبد الله بن صفوان** : من اتباع ابن الزبير

مراجع رواية الحجاج بن يوسف

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

★ صفوة الاعتبار ★ المستطرف

★ مراصد الاطلاع ★ الدر المنثور

★ الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ★ مشكاة المصابيح

★ التقويم العام ★ البخاري

★ البيان والتبيين ★ مقدمة ابن خلدون

★ تاريخ : ابن هشام — ابن الاثير — ★ أسد الغابة
الدميري — ابن خلكان — الفخري ★ العقد الفريد

- ١ -

فذلكة تاريخية

انتهينا في رواية «غادة كربلاء» الى مقتل الحسين بن علي وأهله في كربلاء بجوار الكوفة ، وما تلا ذلك من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ. وكان عبد الله بن الزبير ما زال في مكة يدعو الى بيعته وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتاله جندا بقيادة الحصين بن نمير ، فحاصروه بمكة ، ثم جاء الخبر بوفاة يزيد وهم في الحصار . ولم يكن من ابناء يزيد من يصلح للخلافة ، فرأى الحصين ان الامـــر لا يستتب الا بمبايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليه ان يحقن الدماء ويقدم معه الى الشام ليبايعه فأبى عبد الله . فارتحل الحصين الى الشام بمن معه ودانت الحجاز لابن الزبير .

اما اهل الشام فبايعوا بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثاني) . ولكن هذا لم يعش الا اياما ، فاختلفوا فيمن يبايعون بعده . وكان من أمراء بني أمية وقتئذ مروان بن الحكم ، وقد تولى امارة المدينة في عهد يزيد ، فلما علم بموته عاد الى الشام ، فبايعوه . وكان شيخا طاعنا في السن ،

فتزوج أم خالد بن يزيد ليصغر نفس خالد عن طلب الخلافة ، ويكتسب حزبه . ولكنه لم يحكم الا تسعة اشهر وبضعة عشر يوما ، اذ خنقته امرأته هذه سنة ٦٥ هـ فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان . وفي ايام هذا الخليفة زهت دولة بني أمية وتأيد سلطانها .

وأما اهل الكوفة فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه وقاموا يطالبون ابن زياد وأصحابه بدمه وسموا انفسهم التوابين .

وفي سنة ٦٦ هـ ظهر في الكوفة رجل اسمه المختار بن ابي عبيد ، قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعة ابن الزبير ، فحارب الامويين وقتل قتلة الحسين وفيهم عبيد الله بن زياد وشمر بن ذي الجوشن وخولي الاصبحي وعمر بن سعد وغيرهم . على انه ما لبث ان غيَّر دعوته ؛ فأخذ يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية اخي الحسين لابيه، وزعم ان جبريل يظهر له ، واتخذ كرسيا قال ان فيه سرا مثل سر تابوت العهد عند اليهود .

فلما استفحل امر المختار في الكوفة ودان له العراق ، اصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة : عبد الملك في الشام ومصر ، والمختار في العراق والكوفة ، وعبد الله بن الزبير في الحجاز . وغضب عبد الله على المختار لنقضه بيعته فبعث لقتاله جندا بقيادة اخيه مصعب بن الزبير ، فقتلوه ودانت العراق لعبد الله ، ولم يبق لبني أمية غير الشام ومصر .

ولكن عبد الملك بن مروان ما لبث ان حمل على مصعب في العراق بجند كثيف فقتله سنة ٧١ هـ واسترجع العراق . وبعث جندا الى الحجاز ففتح المدينة ، ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي في جند لفتح مكة وفيها عبد الله بن الزبير ، فحاصرها وطلب الى عبد الله ان يسلم فأبى . فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محصور في مكة وقد قل زاده وفارقه رجاله.

ومن هنا تبدأ حوادث هذه الرواية .

- ٢ -

عزة الميلاء وليلى الأخيلية

المدينة او «يثرب» هي مدينة الرسول وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها سور وخندق ، وهي واقعة في منبسط من الارض تكتنفها الآجام والغياض ، وتتخلل ابنيتها البساتين والحدائق وأكثر مغارسها من النخل . وقد عمرت في صدر الاسلام ، حتى كانت ايام يزيد بن معاوية فهاجر منها كثير من اهلها لكثرة الفتن والحروب في ايامه ، ولكنها ما زالت آهلة بالناس ، وفيها اهل البيت .

وكان من اهل المدينة في اواسط القرن الاول للهجرة مغنية يقال لها «غزة الميلاء» . وكانت مولاة للانصار ، وهي اقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز . وقد سميت «الميلاء» لتمايلها في مشيتها لفرط سمنها . وكان العود حديث العهد عند العرب فأجادت العزف عليه ، عدا ما كانت تحسنه من العزف بالمزاهر وبقية آلات الطرب ، وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس لا يقدم قادم الى المدينة الا التمس ان يراها ويسمع غناءها .

وكان العرب يومئذ لا يعدون الغناء من الصنائع اللائقة بأهل الشرف، على ان عزة كانت مع ذلك ذات دين حسن وهيبة ووقار ، اذا جلست للغناء في حفل عام ، أنصت لها الحاضرون وكأن الطير على رؤوسهم .

وكانت دارها في اقصى شمال المدينة مما يلي طريق الشام ، يحيط بها بستان من النخيل تتخلله اشجار الفاكهة من البرتقال والتفاح ، وعليه سور قليل الارتفاع له باب بمصراع واحد في وسطه خوخة . وفي بعض جوانب البستان حظيرة مبنية من سعف النخل توضع فيها الدواب.

وللدار باحة كبيرة في كل جانبيها غرفتان ، وفي الصدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزوار ، وفي باحة الدار نخلات متقاربة تظلل الباحة في اثناء النهار •

ففي يوم من ايام ربيع الآخر سنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر أغسطس سنة ٦٩٣ م) قضت عزة الميلاء نهارها في بيتها • وكان يوما شديد الحر ، والحر ثقيل هناك للرطوبة المتكاثفة مما يتصاعد من أبخرة المستنقعات والاشجار • فلما دنت الشمس من الغروب دخلت الى مخدعها فأخرجت فارورة من الطيب فتطيبت ، وبدلت ثيابها فالتحفت ملاءة معصفرة لونها اصفر زاه ؛ وكشفت النقاب عن رأسها لشدة الحر مع خلو المكان من الرجال . وأرادت ان تتناول عشاءها على سطح البيت تحت قبة السماء •

وكانت يومئذ في نحو الخمسين من عمرها وقد تزايد سمنها وذهبت استدارة وجهها وارتخى خداها واستطالا الى أسفل الذقن ، وثقل بدنها حتى لم يكن في المدينة دابة تحملها • وكانت قلما تنتقل من بيتها والناس يفدون عليها لسماع غنائها او ضرب عودها ويحملون اليها الاموال والهدايا من الحلي والجواهر ، حتى ملأت معصميها بالاساور والدمالج وطوقت عنقها بالعقود ، وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير ؛ وعلقت في أذنيها قرطين كبيرين يتناسبان مع حجم أذنيها لانها كانت كبيرتهما مع تناسب التكاسير • وكذلك آذان اهل الغناء والموسيقى في الغالب •

وكان الرجل من اهل الوجاهة اذا اراد التزوج بفتاة لا يعرفها استشار عزة ووسطها في خطبتها او استطلاع مدى جمالها وصحتها •

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملا لشدة الحر ، وعندها فتاة من نزالة المدينة اسمها «سمية» كانت تحبها وتأنس بها • وكانت

الفتاة ترتاح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها في امرها ، وقد جاءتها يومئذ وعليها ثوب احمر يكسوها كلها • وكانت معتدلة القامة صحيحة الجسم اذا نظرت الى تقاطيع وجهها أفرادا لا ترى جمالا باهرا • ولكن في عينيها ما يدل على الذكاء والحب ، وحول ثغرها ابتسامة تأخذ بالعقول ، حتى كانت وهي في أشد اضطرابها قلما تبدو الكآبة في وجهها، وربما زاد ذلك في هيبتها • وفي ذقنها اندفاع قليل الى الامام مع بروز ، وهو دليل الانعطاف ، وفي أنفها ذلف قليل يزيدها مهابة • وكانت في نحو الثالثة والعشرين من عمرها •

فلما ارادت عزة الصعود الى السطح امرت جارية لها ان تفرشه بالابسطة وتعد عليه المائدة ، وأمسكت ضيفتها بيدها وقالت لها مداعبة : «هلم بنا الى السطح يا سمية واتركي الهموم جانبا ؛ وتعالي لأريك يثرب وضواحيها من سطح بيتي فانها من اجمل ما يكون ، ولا تعجلي في العودة الى بيتكم فما اظن أباك قد عاد اليه بعد» •

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها وأرادت نسيان ما يجول في خاطرها من دواعي الهموم ، وصعدتا على سلم من خشب كان يهتز تحت قدمي عزة ، حتى وصلتا الى السطح وقد انتهت الجارية من اعداد المائدة• فجلست عزة وأجلست سمية الى جانبها ، ولاحظت انها ما زالت مضطربة البال فأرادت ان تصرف ذهنها الى شيء اخر فلم تر خيرا من ان توجه التفاتها الى ما يحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء والمستنقعات فقالت لها : «تأملي يا بنية في هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة فان نظرك لا يقف في اخرها الا على التلال البعيدة ، ولاسيما هذا الجبل ، وهو جبل احد الذي جرت فيه الوقعة الشهيرة بين النبي (صلعم) وقريش • وذكر هذه الوقعة يؤلمني لان الغلبة فيها كانت للقرشيين وقتل من المسلمين سبعون رجلا وأصيب النبي بجراح وقتل

عمه حمزة» •

قالت سمية : «وهل شهدت تلك الوقعة ؟»

قالت : «كلا ، فقد حدثت منذ سبعين سنة فكيف أشهدها ؟» • ثم عادت الى اتمام كلامها عن تلك المناظر فقالت : «واني ليعجبني مناظر المياه حوالي غروب الشمس ، انظري الى هذه البحيرة فان ماءها ساكن كأنه صفحة من الفضة اللامعة ، وظلال النخيل تتراءى على شواطئها مقلوبة كأنها مردة من الجان غائصون في الماء» •

وكانت الشمس لما دنت من المغيب قد ارسلت أشعتها منحرفة على تلك المغارس فاستطالت ظلال النخيل وما زالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت بالظلام •

وأما سمية فكانت تساير عزة فيما تقول وبصرها شائع في تلك البحيرة بالرغم عنها والبصر اذا أطلق سراحه يطلب النور • وكان سطح البحيرة بعد ان غابت الشمس ما زال يلمع بفعل انعكاس الشفق عليه ، وظلال النخيل فيه واضحة عليه وضوح الخطوط السود على الصفحة البيضاء • وبعد قليل لم يعد يظهر للرائي غير سطوح المياه وما يبدو فيها من ظلال الاشجار •

★ ★ ★

اشتغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل في ذلك المنظر البديع ثم همت عزة بالطعام ودعت سمية الى مشاركتها فيه ، وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها فتأكل وعيناها شاخصتان الى تلك المناظر ، ثم عادت عزة الى محادثتها فقالت لها : «مالي اراك صامتة يا سمية ، هل تفكرين في تأخر عودتك وتخافين ان ينقم عليك ابوك لهذا ؟• انه اذا علم انك عند عزة فلن يلومك» •

وتوقعت عزة ان تسمع من سمية جوابا ، ولكنها رأتها تحدق النظر في تلك البحيرة ، وآنست في وجهها بغتة وقد توقفت عن المضغ واللقمة لا تزال في فمها ، وقطبت حاجبيها وحددت بصرها ، فأعادت عزة سؤالها، فأجابتها سمية وهي تشير بيدها الى البحيرة : «كأني ارى النخيل تنتقل في الماء .. ما هذا ..؟ ماذا ارى ؟»

فالتفتت عزة الى جهة البحيرة فرأت ظلالا تتحرك في الماء بين ظلال النخيل ، ولكنها لم تر الاشباح على الجرف لان الظلام حجبها بينما انعكاس الشفق على سطح الماء ابداها فقالت : «انك ترين ظل شبح سائر بجانب البحيرة» . وتفرست عزة قليلا ثم قالت : «ان الذي نراه ظل شبحين أظنهما فارسين مارين بين النخيل على حافة الجرف ؛ لا بل هما جملان وعليهما رجلان . أليس كذلك ؟»

قالت سمية : «بلى ، هما جملان . ويخيل الي انهما ماشيان على سطح الماء !»

فضحكت عزة وقالت : «انك ترين ظليهما يا بنية . وأرى الان شبحا ثالثا أظنه جملا ثالثا» . ولم يمض قليل حتى توارت الاشباح فقالت عزة: «لا تقلقي ، ليس ما ترين الا أناسا أظنهم قادمين الى المدينة من دمشق، وما هذه اول مرة رأيت مثل هذا المنظر ؛ فعودي الى طعامك فقد برد الهواء وانفثأت حمأة القيظ ، ومتى فرغنا من الطعام أسمعك صوتا تلقنته عن أستاذتي رائقة» .

فعادتا الى الاكل وهما لا تتكلمان ؛ ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء . فصفقت عزة فجاء رجل في نحو الستين من عمره ما زالت آثار الجمال بادية فيه ، وهو نظيف الثوب حسن الهندام . فلما رأته سمية غطت وجهها ؛ فضحكت عزة وقالت : «أتحتجبين من مخنث ؟» . ولم تكن سمية قد عرفته في الظلام .

وكان في المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين ، يخالطون النساء ، وأكثرهم يحبون الغناء ويحسنونه . وكان من اراد خطبة امرأة سأل عنها احد المخنثين فيصفها له ، ثم يتوسط بينه وبينها حتى يتزوجها . وكان اكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها ليستفيدوا منها تعلم الاصوات .

فلما وقف ذلك المخنث بين يديها قالت : «ما جاء بك يا طويس ؟»

فلما سمعت سمية اسم طويس قالت : «أطويس هذا ؟»

قالت : «هو بعينه . ولا تعجبي من انه جاء على غير موعد فان ذلك دأبه معنا» . ثم التفتت اليه وقالت : «يا طويس قل للجارية تضيء لنا الشموع فاننا سننزل بعد قليل» .

قال : «أفعل ذلك بشرط» .

قالت : «وما هو ؟»

قال : «تغنين لي شعرا على الهزج» .

قالت : «أتطلب ان أغني لك الهزج وأنت أهزج الناس ؟ ألا سألتني ان أغني من الثقيل او الرمل ؟»

قال : «لا أبالي اي صوت وانا أقترح عليك شعرا تغنينه» .

قالت : «أفعل ان شاء الله . ولكني اخاف من وجهك فانه متشوم» .

قال : «وأكثر من مشئوم ، فان أمي ولدتني ليلة قبض النبي (صلعم) . وفطمت ليلة مات ابو بكر ، وبلغت الحلم ليلة قتل عمر ، وزففت الى اهلي ليلة قتل عثمان ، وولد لي يوم قتل علي !»

فضحكت عزة لخفة روحه وقالت له : «ارجو ألا يكمل شؤمك علينا الليلة ، فامض أعزك الله وافعل ما قلته لك» .

نزل طويس ، وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة المعدة لاستقبال الاضياف . وجلست عزة على مقعد ، والارض مفروشة

بالطنافس وحولها الوسائد وقد اوقدت فيها التموع • وجلست سبية بجانبها وعادت الى هواجسها • وأما طويس فانه تناول دفا مربعا كان معلقا على الحائط بين طائفة من الاعواد والمزاهر والدفوف . ورماه في حجر عزة •

فقالت : «ويلك ! ماذا تريد ؟»

قال : «بأبي انت وأمي • أريد ان اسمع غناءك» •

قالت : «تسهل يا طويس ريثما أستريح» •

وفيما هي تكلمه سمعت هدير الجمال بقرب باب البستان فقالت : «انظر يا طويس من جاءنا الليله •• اني اخشى ان يكون شؤمك قد وصل الينا» •

قالت سبية : «وأي شؤم تخافين ونحن في أمان ؟!»

قالت وقد خفضت صوتها: «ما أظننا في أمان وأميرنا اليوم يأكل المخ ويأكل فوقه التمر على منبر رسول الله (صلعم) • اذهب يا طويس وانظر من القادم» •

فهرول طويس الى نعليه ولبسهما . ومشى وهو يتظاهر بالمجون في مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار وفتح خوخة الباب وأطل منها . فرأى جملين بجانبهما رجلان : احدهما قد تلثم بالكوفية والتف بالعباءة ، والآخر قصير غير ملثم يشبه ان يكون خادما • فقال لهما : «من انتما وماذا تريدان ؟»

فأجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل وقال : «أليس هذا بيت عزة الميلاء ؟»

قال : «بلى وماذا تريد منها ؟»

قال : «أريد الدخول اليها» •

قال : «ومن انت ؟ ألا انتسبت ؟»

قال : «لا أتتسب» •

قال : «أتريد الدخول وأنت ملثم كما ارى ؟!»

قال : «نعم» •

قال : «دعني أستأذن لك» • وعاد طويس الى عزة وأخبرها بما رآه • فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام وقالت لعزة : «دعيني أنصرف الى ابي فقد طال مكثي عندك اليوم ، ولاسيما اني ارى رجالا قادمين اليك ولا يليق بي البقاء معهم» •

قالت : «لك الخيار يا بنية ، ولكن اذا انصرفت فلا تطيلي الغياب، وليكن خروجك من الباب الخلفي للدار ، وذهابك من الطريق القريب الذي تعرفينه» • فودعتها وانصرفت ، وجعل طويس يشيعها ببصره حتى توارت عنه ، ثم التفت الى عزة وأشار بضم انامله وزم شفتيه الى انها جميلة • فأومأت اليه ان يصمت ثم قالت : «اخرج الى الطارق واطلب اليه ان يريك وجهه او يذكر لك اسمه» •

فذهب طويس وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة : «ان صاحبنا من اهل البادية ويهوى الغناء ، وقد جاء لسماع عزة الميلاء . وقد سألته عن اسمه فأبى ان يخبرني به ، ولما ألححت عليه قال انه لا يقول اسمه ولكنه أنشدني هذين البيتين :

وذي حاجة قلنا له لا تبــح بها   فليس اليها مـــا حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليــل

«وطلب ان أخبرك انه قائلهما» •

فلما سمعت عزة قول طويس بغتت وتبسمت ، ولولا ثقل بدنهــا لوثبت الى الباب لاستقبال ذلك الضيف • فقال لها طويس : «ما بغتك

يا عزة ؟ »

قالت : «ألا تعرف قائل هذا الشعر ؟»

قال : «كلا ... ومن هو ؟»

قالت : «لو اني سمعت لفظ قائله لعرفته ولو كان في غير هذا الشعر . ألم تر انه يلفظ حرف المضارعة مكسورا مثل اهل بهرا ؟»

قال : «أظنني لحظت ذلك فيه ، ولكن ماذا في هذا ؟»

قالت : «ويلك ! هذه ليلى الاخيلية الشاعرة وهذا الشعر شعرها وهي تكسر حرف المضارعة في لفظها ايضا» .

قال طويس : «اذا كانت هذه هي ليلى فقد تم حظنا ، لاني أسمع بشعرها وحديثها مع توبة الذي كان يهواها ، فهل ادعوها ؟»

قالت : «كيف لا وهي صديقتي ويندر ان تنزل الى المدن الا لحاجة ماسة لانها تقطن البادية» .

فأسرع طويس مهرولا حتى اتى الباب ففتحه ، ورحب بليلى وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهي ملتفة بالعباءة وطولها يندر في النساء . ولكنه لم يتمكن من رؤية وجهها لانها كانت ما زالت ملثمة فدخلت البستان وأشارت الى خادمها ان يدخل الجملين الى الحظيرة ومشت تخطر في مشيتها وطويس يمشي وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها واللثام محيط برأسها ووجهها جميعا .

فلما اقبلت على القاعة نهضت عزة وسارت لاستقبالها عند الباب وهي تقول : «مرحبا بليلى ، اهلا بك يا حبيبة . لقد بالغت في الاختفاء حتى اسأنا معاملتك وأخرناك» . قالت ذلك وتناولت وسادة فوق البساط وثنتها وأجلستها عليها .

فقالت ليلى بصوتها الجهوري الذي لا يكاد يشبه اصوات النساء : «لا بأس عليك ، وان لم يكن ذلك ذنبي لاني كنت أحسبك تعرفينني من

صوتي ولهجة كلامي» •

كان طويس واقفا بالباب يتشوق لرؤية وجه ليلى ولكنها بقيت ملثمة لا تلتفت الى طويس كأنها تتوقع خروجه لتخلو الى عزة • فأدركت هذه ما في نفسها فقالت : «لا تحتجبي يا ليلى منه : انه طويس المغني» •

فضحكت ليلى ونظرت الى طويس وأزاحت اللثام وهـــي تقول : «أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ؟ لقد تم سرورنا بلقياه !»

فلما ازاحت النقاب بان تحته وجه يتدفق مهابة وعينان دعجاوان ، وثغر حسن ، وآثار الصحة بادية في وجهها من سكنى البر • فدهش طويس من جمالها ، ولما رأى استئناسها به فرح وقال وهو يمشي نحو البساط الذي كانت هي جالسة عليه : «ان سروري تم بلقياك اينهـــا الشاعرة البارعة • وقد كنت أعجب لما اسمعه من شغف توبة بـــك واشادته في الاشعار بذكرك وأنت زوجة لسواه • فلما رأيت هذا الوجه علمت السر الذي دعاه الى ذلك» •

فلما سمعت ليلى اسم توبة علا وجهها الاحمرار وكأنهـــا خجلت وطأطأت رأسها حياء ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : «وهل سمعت شيئا من قوله ؟»

قال : «سمعت كثيرا : ولكنني أذكر هذه الابيات فقط :

ولو ان ليلى الاخيليـــة سلمت علي ودوني جنـــدل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة ، او زقا اليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا اناله الا كل ما قرت بـه العين صالح

ولم يتم كلامه حتى اصفر وجه ليلى • وأدركت عزة ذلك فيها فأحبت الترفيه عنها فدعتها الى الطعام والغسل ، فشكرتها وذكرت انها لا تحتاج الى شيء من ذلك ، وانما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع حديثها وتطرب بغنائها ثم تنصرف •

فقالت عزة : «لعلك قادمة من الشام ؟»

قالت : «نعم وقد وصلت الى المدينة الساعة ، وكان معي رفيق خليته في مكان وجئت اليك على ان اعود اليه عاجلا» .

فتذكرت عزة الاشباح التي رأتها وسمية على شاطىء تلك البحيرة فقالت : «أظنني رأيت أشباحكم عند الغروب بين النخيل» .

قالت : «كنا ثلاثة وصلنا عند الغروب الى ضاحية المدينة على جمالنا» .

- ٣ -

حكاية ليلى مع توبة

فأيقنت عزة انها هي التي كانت مع الركب ، وقالت تداعبها : «أتحبين توبة ؟»

فقالت ليلى : «ماذا تعنين ؟»

قالت : «أعرف انك تحبين توبة ، وأسمع انه شاب جميل شجاع ، وانه يحبك . فكيف تزوج غيرك وتزوجت انت غيره ؟»

فقالت ليلى وقد زاد احمرار وجهها : «دعينا يا عزة من هذا الحديث ، وأسمعينا صوتا يروح عن النفس وينسينا تعب الطريق» .

فلم تشأ عزة ان تلح عليها ، ولكنها عمدت الى الحيلة فقالت : «صدقت ان الذكرى تؤلم» . ثم التفتت الى طويس وقالت : «هات الدف» .

فناولها طويس دفا فنقرت عليه وغنت :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها
على دماء البدن ان كــان بعلها يرى لي ذنبــا غير اني أزورها

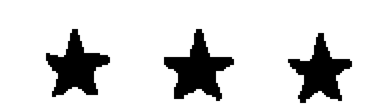
ولم تتم هذين البيتين حتى تململت ليلى وامتقع لونها وقالت : «ما هذا يا عزة ؟ اراك تلحين لتعلمي سبب فراقي توبة» •

نضحكت عزة وتجاهلت وهي تقول : «وما لهذا الشعر ولك ؟ هل توبة قاله فيك ؟»

قالت : «أتتجاهلين ؟ ما دمت مصرة على سماع حديثي مع توبـــة فسأقصه عليك وان كان ذكره يؤلمني •• اعلمي يا اخية ان عاداتنا نحـــن معاشر البدو غير عادات الحضر اهل المدن أمثالكم • فان الرجل منكم اذا احب فتاة تزوجها • وأحسن الزواج ما يكون على حب • وأما نحن فاذا عرف اهل الفتاة ان شابا يحبها وتحبه منعوه منها ، وهذا ما وقع لي مع توبة فانه كان يحبني ويقول في الشعر : فلما خطبني الى ابي ، رفض ان يزوجني به ، وزوجني برجل من بني الادلع هو زوجي الى الان ، ولم يكتفوا بذلك ولكنهم اهدروا دم توبة ومكثوا له في الموضع الذي يلقاني فيه حتى اذا جاءني هموا بقتله • وكنت اذا جاءني قبل ذلـــك تبرقعت واحتجبت منه على عادتنا • ففكرت في حيلة أحذره بها غدرهم بحيث لا يشعرون ، فلم أر خيرا من ان أغير عادتي معه فلما جاءني في ذلـــك اليوم خرجت اليه سافرة وجلست في طريقه • فلما رآني على تلك الحال فطن لما اردت وركض فرسه فنجا ثم نظم في ذلك قصيدته التي مطلعها :

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها

«ومنها البيتان اللذان غنيتهما • وهي طويلة» •



وكانت عزة قد سمعت القصة من قبل ، ولكنها ارادت ان يسمعها طويس . فلما فرغت ليلى من حديثها قالت عزة : «اني لم اكن أجهل حديثك هذا ولا غيره ، ولولا ذلك ما عرفتك من البيتين اللذين بعثت بهما تعرفينني بنفسك . فبالله ألا ذكرت لي سبب قولك ذينك البيتين فانهما يدلان على انفة تندران في المدن» .

قالت : «صدقت ، ان العفة والحب النقي انما يكونان في اهل البادية . وبنو عذرة اهل وادي القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما . ولكن ذلك غير مقصور عليهم وان كان غالبا فيهم . وقد قلت ان نوبة كان يحبني وأحبه ولم أسمع منه ما يدعو الى ريبة . ولكني اجتمعت به مرة بعد ان تزوجت وتزوج ، فقال لي كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الامر فقلت له :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها   فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليل

«فلم أعد أسمع منه ريبة قط» .

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقي ثم قال : «ما أشبه هذه العفة بعفة مخنثي المدينة ، والله ان البداوة حلوة ولكني لا احبها !»

فقالت ليلى : «اذا شاقك ذلك فعليك بوادي القرى انه قريب منكم وفيه بنو عذرة الذين تضرب بعفتهم الامثال . وفيهم جميل بثينة ، وكثير عزة ، وغيرهما» .

فضحكت عزة ، ورأت الرجوع الى الغناء ، فأخذت فيه وهي تنقر الدف . فطربت ليلى وطرب طويس . ثم استبدلت بالدف عودا عزفت عليه وغنت الحانا شجية ، وكانت ليلى في اثناء الغناء تطرق وتستغرق في التأمل ، كأنها تفكر في امر ذي بال ، فلما رأت عزة فرغت من غنائها

قالت لها : «لقد اطربتنا يا عزة بغنائك وعندي امر احب ان أسره اليـك فهل تسمحين بخلوة ؟»

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعا وأغلق الباب وراءه .

واقتربت ليلى من عزة حتى جلست بجانبها وقالت بصوت يقرب ان يكون همسا : «أتعرفين رملة بنت الزبير ؟»

قالت عزة : «كيف لا أعرفها وهي اخت عبد الله بن الزبير اللائـذ بالحرمين وهو محصور في الكعبة الان» .

قالت : «محصور ؟ ومن حصره ؟»

قالت عزة : «انه اقام بالحرمين يدعو الناس الى البيعة له منذ توفي معاوية وتولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ ولم يقو أمره الا بعد مقتل الحسين وموت يزيد . وهو الان ينكر الخلافة على عبد الملك بن مروان خليفة بني أمية بدمشق» .

قالت ليلى : «أعلم ذلك . وأعلم ايضا ان اهل الحجاز بايعوه ، وان الامويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم» .

قالت : «ألم تسمعي بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفي من الحجـاز بأمر عبد الملك لقتال عبد الله في مكة ؟»

قالت : «أظنني سمعت شيئا من ذلك قبل خروجي من الشام» .

قالت عزة : «وقد جاء الحجاج ، ولعلك سمعت بشدة بطشـه واستبداده ، وقد حاصر عبد الله بن الزبير في مكة وضيق عليه . حتى خرجت المدينة من سلطانه ، وعاملنا الان من قبل عبد الملك بن مروان» .

فأطرقت ليلى وصمتت وكأن خاطرا طرأ عليها فأرجعها عما كانت تهم به ، فأدركت عزة ذلك فقالت لها : «مالي اراك صامتة ..؟ قولي ما في نفسك » .

قالت : «جئت المدينة في مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ، ولكن حال

اخيها يحول دون بلوغ الغرض من السؤال • هل هي معه في مكة ؟»

قالت : «نعم هي معه هناك ، وأظنهم في أشد الضيق من الحصار ، وقد قل زادهم ولا ندري ما يؤول اليه امرهم» •

فتأففت ليلى وتذمرت ثم جعلت تحك ما وراء أذنها وتنظر الى البساط بين يديها كأنها تتفرس في نقوشه وهي لا تتكلم •

فقالت عزة : «قولي يا أخية ما في نفسك فقد اقلقت خاطري بسكوتك، ما الذي تريدينه من رملة وأخيها ؟»

قالت : «لا اخفي عليك ان اميرا كبيرا من اكبر أمراء بنـــي أمية ، انتدبني للبحث عن رملة واستطلاع احوالها ، لانه يريد خطبتها ، فلـم اجد من يصف لي جمالها سواك لانك عاشرتها وعرفتها فماذا تقولين ؟»

قالت : «على الخبير وقعت • اما رملة فانها من احسن النساء خلقا وعقلا ودراية • ولكنني أعجب لاقدام امير من بني أمية على خطبتهـا والحرب قائمة بين الامويين وأخيها» •

فأمسكت ليلى عن الكلام قليلا ثم قالت : «اخشـــى ان أصرح بالاسماء فأكون قد بحت بسر اؤتمنت عليه» •

قالت : «لا تخافي فاني مستودع اسرار اهل المدينة • واني أعاهدك على كتمان ما تقولينه» •

قالت : «ان الامير الذي يبغي خطبتها احسن امراء بني أمية علمـــا وأدبا وشعرا وفصاحة وعارضة ، وله ولع خاص بعلم الكيمياء وهو ابن خليفة وحفيد خليفة» •

فقطعت عزة كلامها قائلة : «قد عرفته، انه خالد بن يزيد• أليس هو؟»

قالت : «هو بعينه فما قولك ؟»

فأطرقت عزة هنيهة ثم قالت : «قد ادركت سر الامر ، وعلمت السبب الذي سوغ لخالد خطبة رملة وهي من اعداء بني أمية وان كـــان

هو أمويا» .

قالت : «اما وقد فهمت سر الامر فاكتمبه عن كل احد . وهذه هدية من خالد بعث بها اليك» . قالت ذلك ومدت يدها الى كمها وأخرجت عقدا من اللؤلؤ دفعته اليها . فتناولته عزة وأثنت على فضلها وقالت : «هل عزمت على خطبة رملة لخالد ، ومن يخطبها له ؟»

قالت : «ليس لي ان اصرح بأكثر مما قلت» .

فقالت عزة : «ما السر عندي الا في بئر عميقة ، فطيبي نفسا وقري عينا» .

ثم تحفزت ليلى للقيام فأمسكتها عزة ودعتها الى البقاء عندها . فاعتذرت بأن هناك من ينتظرها في الخارج ،ولا بد لها من موافاته لامر لا يحسن تأجيله . ثم خرجت ، فمرت على طويس في البستان فودعته قبل انصرافها .

* * *

كانت ليلى الاخيلية شاعرة بارعة كما تقدم ، وكانت تفد على الملوك والامراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجوائز . وكانت قد وفدت على عبد الملك بن مروان في ذلك العام فامتدحته ، ثم سارت الى خالد فعهد اليها في البحث عن رملة واستيصافها من عزة . وبعث معها شابا من خاصته اسمه حسن كان في جملة من جاء الشام مع عبد الملك بن مروان عند عودته من العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير واخراج العراق من سلطة اخيه .

وكان حسن من رجال مصعب الداعين الى بيعة اخيه في العراق وحارب معه في قتاله المختار بن عبيد الثقفي فأبلى بلاء حسنا حتى قتل المختار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب دافع

حسن عنه جهده حتى قتل ووقع هو في أسر عبد الملك ورافقه الى الشام. فلقي هناك خالدا فأحبه هذا وجعله من بطانته . وكان يثق به ويبوح له بما في نفسه على عبد الملك لانه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها لانه ابن الخليفة يزيد بن معاوية ، وبين أمه وأم عبد الملك حكاية سيأتـي ذكرهـا .

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير ، وأراد خطبتها . فلما جاءته ليلى سألها عنها فذكرت له انها لم ترها ، فكلفها ان تستفهم عنها عـزة الميلاء في المدينة ، وكتب الى اخيها عبد الله الزبير يخطبها منه ، وسلم الكتاب الى حسن وأرسله مع ليلى وأوشاه اذا أمرته ليلى بالذهاب الى مكة ان يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ويبذل جهده فـي اقناعه ، وكان حسن يحب خالدا حبا شديدا فعزم على ان يبذل ما فـي وسعه لتنفيذ مرامه ، وكان له في المدينة وطر يحن الى فضائه فأسرع مع ليلى حتى وصلا الى المدينة مساء ذلك اليوم ، فعرج هو الى منزل يمكث فيه ريثما تعود ليلى .

اما ليلى فلما عادت من منزل عزة أمرت الخادم ان يذهب بالجمال الى منزل سكينة بنت الحسين ، على ان توافيه الى هناك . وسارت لمقابلـة حسن في الملتقى . فلقيته في انتظارها على مثل الجمر فأخبرته بما دار بينها وبين عزة وأوعزت اليه ان يسافر الى مكة في المهمة التي جاء من اجلها ودعت له بالتوفيق .

- ٤ -

حسن وسمية

ولما خلا حسن الى نفسه ، عاوده ما كان يتقد في قلبه من الوجد .

وكان يحب فتاة عرفها منذ أعوام وأنقذها وأباها من الموت في العراق في اثناء القتال ضد المختار بن عبيد ، وقد تعاهدا على الزواج ، وهو يعلم انها تقيم بالمدينة ولكنه لم يكن يعرف منزلها ، فرأى ان يسأل عزة في امرها بوصفها أخبر اهل المدينة بنسائها . فسار توا الى عزة وكانت لا تزال جالسة وقد خرج طويس من عندها .

وكان حسن طويل القامة ، حسن الخلقة ، في وجهه دلائل المروءة وصدق المودة ، وعيناه تتقدان ذكاء وحدة . فلما أقبل على عزة استقبلته باشة . وكانت قد تعودت كثرة الوافدين عليها من سائر البلاد . على انها استغربت قدومه اليها في اخر الليل .

واعتذر حسن عن ذلك فقال : «اني قادم اليك في امر أقلقني وحرمني المنام وليس لي من يفرج كربي سواك» .

قالت : «قل ما بدا لك» .

قال : «اني احب فتاة من اهل المدينة ولكنني لا أعرف منزلها ولا ادري أمقيمة هي هنا ام سافرت الى بلد اخر ؟»

قالت : «ما اسمها ؟»

قال : «اسمها سمية بنت عرفجة الثقفي» .

فبهتت عزة عند سماعها الاسم ، وجعلت تتفرس في وجهه كأنها تستطلع حقيقته ، ثم قالت : «من اين عرفتها وكيف احببتها وأنت بعيد عن المدينة ؟»

قال : «قولي لي اولا أهي في المدينة ؟ وهل تعرفينها جيدا ؟»

قالت : «أعرفها كما اعرف نفسي ، وهي مقيمة هنا وكانت عندي هذا المساء ، فقل لي اين وكيف عرفتها ؟»

قال : «كنت من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه الى العراق لقتال المختار بن عبيد الثقفي . وكان المختار بعد قتل الحسين قد قام

يدعو الناس الى الاخذ بثأره وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائـذ بالحرم الان • فقتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمعونة النوابين وهم اهل الكوفة الذين خانوا الحسين وأمسكوا عن نصرته فلما قتل ندموا وقاموا يطالبون بدمه» •

قالت : «نعم أذكر ذلك ، ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الـى بيعة محمد بن الحنفية اخي الحسين من ابيه ؛ وليس لعبد الله بـن الزبـير » •

قال : «انه كان يدعو الى البيعة لعبد الله اول الامر ، فلما فاز في حروبه طمع في الخلافة لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية • ولا أشك في ان محمدا لم يكلفه بذلك لانه زعم اشياء لا يرضى بها محمد» •

قالت : «أظنك تعني الكرسي الذي زعم انه كرسي علي ، وصار يحمله معه في حربه ويزعم ان جبريل يظهر له ويكلمه» •

قال : «نعم ، ولكنه لم يفلح لان عبد الله بن الزبير لما سمع بما فعله ارسل اخاه مصعبا في جند كبير فقتلوه وسمروا يده في مسجد الكوفة ، وكنت انا في جملة رجال مصعب • ففي يوم المعركة بعد ان تم لنا النصر وأمعنا في رجال المختار قتلا ونهبا • لقيت عرفجة أبا سمية طريحا على الارض بين يدي بعض رجالنا وقد هموا بقتله ، ثم رأيت سمية ابنته قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفيها ، فتحرك قلبي نحوها تحركا غريبا ، وسمعتها تستنجدني لانقاذ ابيها من القتل ، فصحت في الرجال فأبعدتهم عنه وأوصلته الى مأمنه فقبل يدي وشكرني ذاكرا انه لا يقدر على مكافأتي • فقلت له : (لا ألتمس منك الا ان تزوجني ابنتك هذه) • فقال : (هي جاريتك بين يديك) • فتواعدنا على ان آتي المدينة وأتزوجها• وأتممت امر انقاذه فأخرجتهما من الكوفة وبعثت معهما من أوصلهما الى هنا ، وبقيت انا هناك وشغلت بأمور كثيرة لا محل لذكرها فلم استطع

المجيء الا اليوم» .

★ ★ ★

كان حسن يتكلم وعزة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحديث . فلما وصل الى هذا الحد قطعت كلامه قائلة : «لعلك حسن ؟»

فبهت وقال : «نعم ، وكيف عرفت ذلك ؟»

قالت : «عرفته منها ، واني أهنئك بسمية فانها زينة فتيات المدينة وليس احد يعرف مكنون قلبها غيري . وقد طالما ذكرت اسمك لي ، وأطلعتني على خصالك وأثنت على مروءتك . فثق بأنها ما زالت على ودك، ولو انك جئتنا قبل ساعة لوجدتها هنا» .

قال : «وهل من سبيل الى رؤيتها ولك علي ما يرضيك ؟»

فأطرقت عزة هنيهة ثم قالت : «لم يكن أهون من ذلك علي لولا ان أباها ضنين بها ، لا يأذن في خروجها من البيت ، الا نادرا ؛ وهي انما تجيئني خلسة في اكثر الاحيان . ولا شك في انه اذا عرف انها جاءتني لمثل ما تريده انت فانه يغضب وربما اساءها وأساءني ، ولاسيما انه ذو نفوذ لدى امير هذه المدينة ، ففي استطاعته ان يتهمني عنده بما ينغص علي عيشي» .

فلبث حسن مدة يفكر في امره ، وقد اقتنع بالمشقة التي تحول دون مجيء سمية ؛ لكنه ما لبث لعظم شوقه ان استسهل كل عسير ، ورأى ان يصبر الى صباح الغد ثم يذهب لزيارة ابي سمية . فنهض مودعا عزة بعد ان استدل منها على بيت عرفجة ، فدلته عليه وودعته معتذرة من عدم استطاعتها اجابة رغبته في رؤية سمية .

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر ، ثم أفاق قبل الفجر وأخذ يتأهب للذهاب الى بيت عرفجة وقد اشتد هيامه وخفق قلبه وهو يفكر

في لقياها ؛ وشق عليه انه لا يستطيع مخاطبتها امام ابيها لكي يبثها شوقه وهيامه ، فعلل نفسه بما قد يأتي به القدر من سوانح الفرص ، وخرج والشمس قد أطلت من وراء المنازل ؛ والناس يذهبون ويجيئون في الطرق وهو لاه عنهم بما قام في خاطره من امر اللقاء المنتظر بعد الغياب الطويل •

وكان بيت عرفجة بالقرب من بيت سكينة بنت الحسين ، وهو أضيق مساحة وأقل فخامة ، فلما وصل الى بابه رآه مفتوحا فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم ، فأطل على باحة تحيط بها ثلاث غرف ، وفي بعض جوانبها نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء احمر زاه وليس على رأسها نقاب ، وقد جلست امام النخلة وأسندت ظهرها اليها ووجهها الى جانب الدار بحيث لا يقع بصرها على الداخل • ومع انه لم ير من وجهها الا صفحة خدها وجانبا من عينها وفمها فانه ادرك انها سمية • فندم على دخوله بغتة واستنكف ان ينظر اليها او يدخل بلا استئذان • ولكن الشوق اعمى بصيرته فوقف مبهوتا وقلبه يخفق ، والشوق يدفعه الى رؤيتها ، والحياء يدعوه الى الرجوع وقرع الباب •

ثم غلب عليه الحياء وخاف ان يقع نظرها عليه فتخجل وربما اصابها سوء من تأثير البغتة ؛ فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقة من الحديد كانت معلقة في خوخته ولبث ينتظر من يدعوه الى الدخول او من يأتي لاستقباله • ثم سمع وقع أقدام في الباحة فعلم ان سمية تمشي الى احدى الغرف للاستتار • وظل واقفا مدة فلم يأته احد فأعاد القرع مثنى وثلاث • وبعد هنيهة سمع وقع أقدام قادمة نحو الباب عرف من شدتها وسرعتها انها أقدام رجل • ثم جاءه رجل في نحو الخمسين من عمره قصير القامة نحيف البدن يكاد جلده يلصق بعظمه ، وهو أشمط شعر اللحية خفيفه ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وعلى كتفيه مطرف التف

به ؛ وكأن خديه حفرتان ، ووجنتيه أكمتان ، وأنفه كتلة بارزة في منتصف وجهه ؛ وله عينان غائرتان • ولو تفرس فيه حسن لتبين من اختلاج أجفانه وعدم استقرار نظره انه من اهل الرياء والخبث •

فلما وقع نظر حسن على الرجل عرف انه عرفجة ابو خطيبته . فهش له وهو يتوقع ان يعرفه ويرحب به اما عرفجة فلبث برهة ينظر الى وجه حسن وهو يتجاهله • فضحك حسن وتقدم وألقى التحية . فرد عرفجة التحية دون ان يبدو على وجهه ما يدل على انه عرفه ، ثم سعل كأنه ينبه اهل بيته الى قادم غريب . فقال له حسن : «أظنك لم تعرفني يا عماه ؟»

فلما سمع عرفجة كلامه تكلف الابتسام وألقى نفسه عليه وجعل يقبله ويرحب به ويقول : «اهلا بك يا بني : انت حسن ؟• من اين اتيت ؟» • وأمسكه بيده ودخل به الى الدار وسار توا الى غرفة هناك يستقبل بها الزائرين • فاستأنس حسن بذلك الترحاب بعد ان كاد يتميز غيظا مخافة ان يعود من سفرته بخفي حنين • وابتدره عرفجة بالسؤال عن حاله وعن سبب غيابه ، وسأله اذا كان في حاجة الى طعام • فاعتذر شاكرا . وأخبره بأنه قدم المدينة للقياه • فجعل عرفجة يتملقه بالكلام اللطيف ليستطلع ما في قلبه • فاطمأن اليه حسن وأطلعه على شدة شوقه الى سمية • وكان يخاطبه ويراقب ما يبدو منه من استحسان او استهجان • فلم يجد الا انعطافا وترحابا • وعلم منه ان سمية في خير ، وانها ما زالت تذكر فضله عليها ؛ فازداد حسن استئناسا وتوقع منه ان يدعو سمية لتراه . فلما لم يدعها ظنه أجل ذلك الى ما بعد الاستراحة • واستغرقا في الحديث في شؤون مختلفة حتى ذكر حسن انه جاء المدينة في مهمة من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير بمكة • ثم قال : «الم يئن لي ان ابلغ امنيتي التي منيت بها منذ أعوام ؟»

فتجاهل عرفجة وقال : «وما هي يا بني ؟»

قال : «الزواج من سسية .. خطيبتي» .

قال : «هي جاريتك وطوع ارادتك . ولكنك ذاهب الى مكة كما تقول . فيحسن ارجاء الامر حتى تعود ، ولاسيما ان سسية ليست هنا الان . وسأخبرها بقدومك متى عادت، ولا أشـــك انها ستسر بلقياك ؛ فاذهب الان في مهمتك . ومتى عدت نعقد قرانكما باذن الله» .

فعجب حسن لانكار عرفجة وجود سسة في المنزل . ولكنه التمس له عذرا وشكر الله على انه رآها خلسة . على انه كان يتوقع وهـــو يخاطب عرفجة ان يسمع خطوات سسية او يلمح طرف ثوبها وهي مارة او يسمع كلامها فلم يكن يرى الا بعض الجواري يخطرن في الـــدار لقضاء بعض حاجات المنزل .

وسكت كلاهما لحظة وكل يفكر في شأنه وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفجة الى الكلام فقال : «متى تعتزم المسير الى مكه يا بني ؟»

قال : «في القريب العاجل ، وربما خرجت الليلة» .

قال : «وهذا ما اراه ، فان سرعة ذهابك يقرب يوم زواجك فنفرح بك وتتشرف بمصاهرتك» .

فسر حسن بما سمع ولم يفقه ما كان يبدو في عيني عرفجة وفـــي حركاته من دلائل الخبث والغدر — ولم يكن ذلك سذاجة فيه ولكنه كان سليم القلب صادق النية كبير النفس ، يعتقد ان الناس كلهم مثله — هذا الى ان عرفجة كان مدينا له بانقاذه من القتل . وقد رحب بمصاهرته اولا وآخرا . وهكذا اقتنع بما سمع منه فقال : «ارى ان اخرج مـــن المدينة الليلة» .

قال : «وهل تعرف الطريق ؟ ومن اي باب تخرج ؟»

قال : «نعم يا مولاي اني خارج من الباب المطل على قباء» .

قال : «اجعل خروجك عند الغروب من الباب المؤدي الى مكة ، فانه

اسهل مسلكا ، ولكنني اخاف عليك من برد الليل فهل احتطت لذلك ؟»

قال : «عندي عباءة ألتف بها اذا برد الليل» .

قال وهو يتبسم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مرامه : «لا ارى ان تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة . ومن كان مثلك من ذوي الوجاهة لا يليق ان يمر في الاسواق ملتفا بعباءة ، فاسمح لي ان اقدم الك قباء يليق بمقامك» . قال ذلك وصفق فجاءه غلام فقال : «هات القباء الاخضر المعلق في الحجرة» .

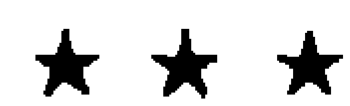
فعاد الغلام وعلى يديه قباء من صوف ، فتناوله عرفجة ودفعه الى حسن وقال له : «اليك هذا القباء فالبسه وأنت خارج على ناقتك في هذا المساء فانه أوقى لك من البرد» .

فتناول حسن القباء شاكرا ، مع انه لا يرى حاجة اليه . اذ لم ير من اللياقة ان يرده . وازداد ثقة في عرفجة وحسن قصده . ولحظ في حركاته ميلا الى فض الاجتماع ، فنهض وقبل يده مودعا . وخرج وقلبه ما زال في تلك الدار . وقد شق عليه ان يخرج منها دون ان يخاطب حبيبته . ولكنه علل نفسه باللقاء القريب بعد رجوعه من مكة ، وسار توا الى السوق ليبتاع بعض النبال استعدادا لعاديات الطريق ولكنه لم يكن يعرف اين يبيعون النبال فرأى غلاما رث الثياب على رأسه قفة يلتقط نوى التمر ويضعه فيها . وهي أحقر مهن اهل المدينة . فناداه حسن وسأله: «ألا تعرف رجلا يبري النبال قريبا من هنا ؟»

قال : «أعرف كثيرين : هل تريد النبال المريشة او النبي بلا ريش ؟»

قال : «اني أفضل المريش منها» .

قال : «تعال معي فأدلك على احسن من يبريها في هذه المدينة» .



سار حسن في أثر الغلام حتى انتهى به الى الطرف الاخر من المدينة، ووقف به عند حانوت امامه دكة ، وفي صدر الحانوت رجل من اهل يثرب بين يديه القسي والنبال ، وفيها المبري بعضها من الخشب والبعض الاخر من القنا ونحوه • فدفع الى الغلام درهما وصرفه ، ودخل الحانوت والقباء على ذراعه فلما رآه الرجل عرف من لباسه انه من اهل الشام فرحب به وأجلسه على الدكة • فجلس حسن ووضع القباء بجانبه وأخذ يقلب السهام ، وفيها الريش المربع والمثلث وذو الجناح الايسن او الايسر • وجعل ينتقي ما يريده منها ثم قال للرجل : «هل اجد عندك جعبة للنبال ؟ »

قال : «لا يا مولاي ، اني لا اصنع الا النبال ، ولكن جاري جعاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد او من الخشب على أشكال مختلفة ، فاذا شئت بعثت اليه فيأتيك بأصنافها» •

فقال : «اذهب اليه بعد الفراغ من انتقاء النبال» • ثم انتقي ما احتاج اليه منها ودفع الثمن ، وسأل الرجل عن حانوت الجعاب ونهض وقد نسي القباء عند النبال ، وسار النبال يسير امامه حتى أوصله الى حانوت واسع فيه جلود وأخشاب وجعاب معلقة • فرجع النبال وتقدم حسن حتى انتهى الى باب الحانوت • فرأى الجعاب يخاطب شابا يظهر من لباسه انه من اهل الوجاهة وهو يساومه على جعبة اراد ابتياعها ، فوقف حسن ينتظر الانتهاء من تلك الصفقة ، وقد استأنس برؤية ذلك الشاب وتذكر انه يعرفه • فجعل يتأمله ويتفهم كلامه ، وهو يستحث ذاكرته لعله يذكره والشاب مشتغل بالمساومة ، ثم التفت الشاب الى حسن فلما وقع بصره عليه بغت وتفرس في سحنته ولم يطل النظر اليه حتى ابتسم وصاح : «حسن ؟» • قال : «نعم ، وأنت •• سليمان ؟»

وتعانقا ، ثم جلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت وقد نسيا

الجعاب وصاحبها ، فقال سليمان : «من اين انت قادم يا اخي ، ومتى قدمت ؟ »

قال : «اني قادم من دمشق وقد وصلت الى المدينة مساء امس» .

قال : «وهل تنوي الاقامة هنا ؟»

قال : «كلا ، اني عازم على السفر الليلة» .

قال : «لا . لا . اني مشتاق الى رؤيتك ، وقد مضى علي بضع سنوات وأنا أفكر فيك وأتذكر اياما قضيناها في الكوفة معا ، وقد كانت اياما سعيدة رغم ما شهدناه فيها من القتال» .

قال حسن : «لا ريب انها كانت سعيدة لكم لانكم فزتم بالامر الذي قمتم له وقتلتم قتلة الامام الحسين شر قتلة . أظنك لم تنس عبيد الله ابن زياد وهو مضرج بدمه في ساحة الحرب» .

قال : «وهل اقدر على نسيان ذلك . اني أتذكره كلما شممت رائحة المسك ، لاني حين تهدت جثة عبيد الله في الوقعة شمست رائحة المسك قوية ، اذ كان كثير التضمخ بالمسك . ولكنني لم افرح بمقتل ابن زياد فرحي بمقتل ذلك الابرص الذي قطع رأس الحسين بيده» .

قال حسن : «أظنك تعني شمر بن ذي الجوشن قبحه الله ؟»

قال : «اياه أعني .. فقد رأيت هذا الخبيث في معركة اخرى مقتولاً وعليه بردة . وقد عرفته من بياض برصه» .

فقال حسن : «انها لذكرى حسنة ، ولكننا لا نستطيع الخوض في هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق» .

قال سليمان : «هلم الى مكان لنقضي فيه بقية هذا اليوم ، فاني احسبه من أسعد ايامي . لانه يذكرني بأيام النصر وان كنا الان في» .. وقطع كلامه لئلا يسمعه احد .

ثم نهضا فابتاع حسن جعبة وضع النبال فيها ، وسار وقد شغل

بصديقه عن تذكر القباء وهو لم يتعود حمله •

* * *

كان سليمان هذا صديقا لحسن تعارفا منذ الصبا • وكان مقيما مع ابيه بالكوفة مع دعاة الحسين • فلما قدم الحسين الكوفه في اهله كان هو وأبوه من الذين تخلفوا عن نصرته • ولما قتل الحسين في سهـــل كربلاء وقتل اهله معه اصبح سليمان وأبوه من النوابين الذين ندموا على تخلفهم عن نصرة الحسين وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه ، فلما جـــاء المختار بن ابي عبيد الثقفي الى الكوفة يدعو الناس الى بيعة عبد الله بن الزبير ، انضم النوابون اليه فقتلوا قتلة الحسين • ثم طمع المختار في الامر وأرسل عبد الله بن الزبير اخاه مصعبا لمحاربته ، وكان حسن مع مصعب فلما غلب مصعب المختار وقتله تفرقت رجاله ، فانحاز بعضهم الى مصعب ومنهم سليمان وأبوه ، وقد ائتلف قلبا حسن وسليمان • وكان سليمان يعجب بأخلاق حسن • فلما جاء عبد الملك بـــن مروان وحارب مصعبا بالكوفة وقتله وتفرق رجاله ، سار حسن مع عبد الملك ، وجـــاء سليمان وأبوه الى المدينة فأقاما بها •

فلما تلاقيا بالمدينة على هذه الصورة أنس به سليمان وأحب البقـــاء معه • فدعاه الى منزله وقال له : «ان ابي يسر بلقياك» • فتذكر حسن ابا سليمان فقال : «فاتني ان اسأل عن ابيك كيف هو وما الذي يعمله الان ؟ »

قال : «انه في خدمة طارق بن عمر عامل هذه المدينة من قبل عبد الملك ابن مروان» •

قال : «وهل هو يخدمه عن رضى ؟»

قال : «اراه راضيا بخدمته ، وكثيرا ما اظهرت عدم رضائي بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا الحسين • وكنا بالامس نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المقتولين ، ولكنني رأيته راضيا فسكت عنه • ولعل له عـذرا » •

وكانا يتكلمان وهما ماشيان حتى وصلا الى بيت سليمان ، ولم يكن ابوه في البيت فمكثا هناك وتناولا الغداء معا وقد سر كل منهما بلقاء صديقه ، فلما كان العصر نهض حسن واعتذر باضطراره الى الذهـاب لوداع ليلى الاخيلية في بيت سكينة بنت الحسين ، وهو انما كان يرجو ان يستطيع مشاهدة سمية لان بيتها بجانب بيت سكينة •

فألح عليه سليمان ان يؤجل سفره الى الغد ، ولكنه اعتذر شاكرا ، فقال سليمان : «اذا لم يكن بد من سفرك فاني أرافقك في أوائل الطريق لانك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كله • فاذا رضيت برفقتي فاني أصاحبك الى العقيق فنمكث هناك ساعة أتسلى من حديثك ثم نفترق» •

قال حسن : «كيف لا ارضى بذلك وفيه راحتي وحسن حظي» •

قال : «اين نلتقي ؟»

قال حسن : «نلتقي بباب المدينة المؤدي الى مكة ونخرج مـن هناك معا» •

قال : «وهل تعرف الطريق الى الباب ؟»

قال : «نعم أعرفه فانه على مقربة من حانوت النبال الذي اشتريت هذه النبال منه اليوم» •

ولما ذكر النبال تذكر القباء فبغت وقال : «لقد نسيت عنده القباء ، وأخاف اذا اردت الذهاب اليه ان تفوت الفرصة لمشاهدة ليلى» •

فابتدره سليمان قائلا : «دع هذا لي ، فأنا آمر بالنبال وآخذ القباء

منه وأحفظه لك الى الملتقى» •

فشكره حسن وودعه ، وخرجا فهار كل في طريقه •

* * *

وكانت سمية جالسة في ساحة بيتها حين قرع حسن الباب ، فدق قلبها وحدثتها نفسها بأن الطارق حبيبها ، ثم استبعدت ذلك ، فعاودها الحزن ، ونهضت لكي تحتجب عن الطارق ، فانزوت في اقرب غرفة الى الباب وفي نفسها ميل الى معرفة الطارق ، لان طريقة دقه الباب لم تكن تشبه دقات زوارهم المعروفين • وكثيرا ما تدل الدقة على صاحبها ويعلم اهل البيت من هو صديقهم من قرعه الباب • هذا الى ان عرفجة كان من اكثر الآباء تضييقا على بناتهم في امر الحجاب • فكان ذلك يدعو سمية الى التطلع الى القادمين من سقوق النوافذ او ثقوب الابواب •

واتفق في ذلك الصباح انه لم يكن في البيت احد من الرجال غير عرفجة وكان مشغولا في حجرة خاصة لا يدخلها احد غيره • وفيها محفة من خشب مقفلة لا يفتحها سواه • فاذا دخل تلك الحجرة أقفل بابها ولا يدري اهل البيت ماذا يفعل هناك • فيقضي فيها ساعة او بعض الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه • وكثيرا ما احبت سمية استطلاع امر تلك المحفة ومشاهدة ما في داخلها فلم توفق الى ذلك • لان المحفة من خشب متين لا منافذ للبصر فيه • فلما قرع حسن الباب كان عرفجة هناك فأبطأ في فتح الباب كما تقدم • ثم سمعته بعد ان فتحه وهو يخاطب حسنا ويرحب به ، وكانت تنظر من ثقب في باب غرفتها يطل على حجرة ابيها فوقع بصرها على حسن وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة ، وهي اول مرة رأته فيها بعد ذلك الغياب الطويل ، فلم تكد تتحققه حتى شعرت بهزة

قوية وخفق قلبها خفوقا شديدا ولكنها ظنت نفسها مخطئة فتفرست فيه جيدا فاذا هو حسن بعينه ، ورأت آباها يخاطبه ويرحب به وقد فهمت ذلك من اشاراته وملامحه لانها لم تكن تفهم الكلام لبعد المسافة ، ثم دخلا وأقفلا الباب . فأرسلت جارية لها تتسمع حديثهما وتعود اليها بما سمعته . والجواري اكثر الناس رغبة في نقل الاحاديث وبخاصة اذا كانت من هذا القبيل . فكانت تلك الجارية تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان او الباحة فتقف هناك بحيث تسمع ما يدور وربما سمعت بعضه فتكمل الحديث من عندها وتعوذ الى سمية به . فأطلعت سمية بذلك على ما دار بينهما حرفيا . وساءها رفض ابيها ان يجمعها بحسن ولو من وراء حجاب ، ولكنها سرت برؤيته واطمأنت الى انه ما زال على حبها . ولما اخبرتها الجارية انه جاء يطلبها من ابيها زاد اضطرابها واصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فثنت وسادة كانت بجانبها وجلست عليها وعيناها على شق الباب . على انها ما لبثت ان علمت انه غيَّر الحديث واعتزم الخروج من المدينة في تلك الليلة ، وان أباها حبب اليه الاسراع في ذلك وأعطاه القباء . فاستغربت اعطاءه اياه ، مع ما تعلم من بخله. على ان ذلك آكد لها رضاءه عن تلك الخطبة فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة .

فلما خرج حسن وتبعه عرفجة لوداعه ، طارت عيناها شعاعا الى حسن ، ولكنه ما لبث ان غاب عن مدى بصرها من ذلك الثقب . فلما رأت أباها راجعا خرجت من الغرفة لملاقاته وقد توردت وجنتاها من عظم التأثر وبانت دلائل الحب في وجهها . فلما رآها عرفجة في تلك الحال انقبضت نفسه وتظاهر بأنه في شاغل عن الحديث معها .

ولكنها لم تصبر على استطلاع افكاره وأمسكت عن الكلام تهيبا لانها كانت تخافه كثيرا وتخشى غضبه وقد قاست منه الامور الصعاب ، على

انها كانت تحسن الظن به فتحولت الى حجرتها وهـــي منقبضة النفس ودخل عرفجة حجرة اخرى وقد لحظ ما في نفس ابنته ولم يفته اطلاعها على ما دار بينه وبين حسن • فبعث اليها فجاءت وليس في المكـــان سواهما فوقفت وقلبها يخفق وهي لا تستطيع التطلع الى ابيها ولا تدري ما يريد منها • فأشار اليها فجلست على وسادة بالقرب منه وهي تتشاغل بمداعبة اطراف جدائلها المرسلة • وكانت تضفر شعرها عادة في طـــرة اشتهرت في المدينة يومئذ بالطرة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لانها اول من ضفرها على تلك الصورة •

لبثت سمية برهة هكذا ، وأبوها ينظر اليها ويتأمل في حركاتها فلم يزدد الا وثوقا بتعلقها بذلك الشاب وهو لا يحب ان يتقرب منه ، ولكنه لم يذكر ذلك لسمية صراحة • على انه كثيرا ما حاول ان يزوجها بسواه فلم تقبل • وكان قد ظن حسنا مات او قتل لغيابه عن المدينة ، او عدل عنها واشتغل بغيرها • فلما رآه في ذلك الصباح وتحقق انه ما زال حيا بغت واستعاذ بالله ، ولكنه عمد الى الخبث والرياء فتغلب على عواطفه وبش له واستدناه وأظهر له ما أظهره من اللطف والانس على امل ان يفتك به غيلة • فلما رأى اضطراب سمية قال لها : «اراك مضطربة ، فما الذي دعاك الى هذا ؟»

قالت وهي لا تزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمراره : «وأي اضطراب تعني ؟»

قال : «أعني ما يبدو في وجهك من الاحمرار على أثر الاصفـــرار وكأني أسمع دقات قلبك • فما هذا ؟» قال ذلك بنغمة رقيقة رفقا بهـــا واجتيالا في استطلاع سرها ؛ وقد كان يحب رضاءها ولكنه لا يريد ان تعمل عملا تستقل به عنه • وكان اهل المدينة يتحدثون بجمال سميـــة ولطفها ؛ وكان هو يريد ان يتجر بذلك الجمال فيزوجها بحاكم او امير

فيكتسب بزواجها منصبا او مالا . وكانت له مطالب اخرى ترجع كلها الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحب الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالناس اذ ليس في البشر من لا يحب ذاته ويؤثرها على غيره من الناس ، اما اذا صحبه خبث النية وسوء الخلق فانه يكون وبالا على الناس ، لان صاحبه لا يبالي ما قد يضحيه من الانفس او الاعراض في سبيل نيل أغراضه . وكان عرفجة ذا مطامع لا حد لها وكان ذلك شأن كثيرين في ذلك العهد على أثر تزعزع أركان الخلافة وانقسام الناس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فكان هذا يدعو الى بيعة عبد الملك ، وذاك يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية ، وآخر الى بيعة عبد الله بن الزبير ، فضلا عن دعاة آخرين في البلاد الاخرى . فأصبح الامر فوضى وربما خطر لعرفجة ان يدعو الى احد هؤلاء او غيرهم ، ولو أتيح له ان يدعو الناس الى نفسه لفعل ولكنه لم يكن يطمع في ذلك وهو من ثقيف وهم غير أكفاء للقرشيين . وكان الحجاج والمختار بن ابي عبيد ثقفيين ايضا ، فلما اراد المختار ان يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا .

* * *

لما سمعت سمية سؤال ابيها ولم تر فيه نغمة الجفاء اجابت وهي تكاد تذوب خجلا : «اتسألني يا سيدي عما انت أعلم الناس به ؟»

فقال وهو يغتصب الضحك اغتصابا : «أظنك تحبين هذا الشاب ؟»

قالت : «لا اقول اني احبه ولكنني أعلم فضله علينا لانه انقذنا من الموت . وقد اشترط شرطا وعدناه به أفلا نفي بالوعد ؟»

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر وهي تنظر في وجه ابيها متوقعة ان

يكون جوابه الاذعان الصريح • ولكنها رأته ابتسم ابتسام الاستخفاف ، ثم هز رأسه ، وأخذ يلاعب طرف لحيته بأنامله وهو يقول : «ما شاء الله! وأي فضل تعنين يا سمية ؟!»

قالت : «ألم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن في الكوفة • ألـم اخرج اليه محلولة الشعر وأطلب نجاتك فأسرع لانقاذك ؟• ولا اراك تنكر ذلك عليه الى الان» • قالت ذلك وهي تنظر الى وجهه بطرف عينيها وتتوقع اذعانه فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان الشر في عينيه وكان بيده مفتاح الحجرة فرمى به الى الارض من شدة الغيظ وقال : «لا اقدر على سماع هذا الكلام • ان الذي يدعي علينا مثل هذا الفضل يجب ان يموت » •

فلما سمعت سمية كلامه اقشعر بدنها وامتقع لونها ، ونظرت الى ابيها والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه ولا تصدق انه يعني ما يقول • ولكنها ما لبثت ان رأته نهض وجعل يتمشى في ارض الحجرة ولحيته ترقص امام عنقه وعيناه محملقتان وأنامله ترتجف • فتهيبت وأطرقت ودموعهـــا تتساقط على ثيابها وبقيت هادئة لا تحرك ساكنا ولسان حالها يقول : «ويلك يا ظالم» •

اما هو فبعد ان تمشى هنيهة عاد فوقف امامها وقال لها : «لو كنت تحبين أباك . ما رضيت ان يكون لمثل هذا الغلام فضل علينا • كيـف نعيش ولهذا الغلام منة علينا ؟ وتقولين ذلك جهارا ؟• لا شك انك تحبينه اكثر مما تحبينني ؟»

فقالت والبكاء يخنق صوتها : «كيف تقول ذلك يا أبتاه ، وأنت تعلم قلبي وتعلم اني لا احب احدا سواك • وأما هذا الشاب فان له علينـــا فضلا لا ينكر ــ هل نسيت الخطر الذي كنا فيه وكيف انقذنا وعنـــي بارسالنا الى هنا ؟• ثم انك انت الذي وعدته بي ، فاذا كنت احبه فانما

انت الذي دعوتني الى ذلك و ...»

فقطع عرفجة كلامها وقال : «أبلغت بك القحة الى ان تقولي لي انك تحبينه وتعيدي ذكر جميله . ان ذكر هذا الجميل وحده يدعو الى قتله ! »

فاضطربت سمية ، وجثت عند قدمي ابيها والدمع يتساقط من خديها ويمتزج بالعرق المتصبب من جبينها وقالت : «رحماك يا سيدي ، بالله لا تذكر القتل . دعه لا تقتله ولا تزوجني به .. فأنا لا اخرج عن طاعتك في امر من الامور . لا تذكر القتل لانه يقطع قلبي . افعل بي ما تشاء فاني طوع لك . اشفق علي وارحمني» .

فلما سمع تذللها ظنها ارعوت عن محبة حسن ، فأمسكها وأنهضها ومسح دموعها وقال لها : «خففي عنك يا بنية وكوني حكيمة عاقلة ، وانبذي امر هذا الغلام وارجعي الى ابيك ؛ واعلمي اني لا أفعل الا ما فيه سعادتك» .

قال ذلك وأجلسها على الوسادة وجلس هو الى جانبها فاتكأت على صدره فتحقق انها أذعنت لامره واستسلمت له ، فلم يعد الى ذكر حسن ولكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها : «يظهر انك كنت في جهالة عمياء . والحمد لله على انك ادركت ما أنويه لك . كيف تعيشين مع رجل تعلمين انه ذو فضل على ابيك ؟. أليس ذلك منتهى الذل والضعف ؟. كيف أقدر على حفظ منزلتي بين الناس وفي الدنيا رجل يقول انه انقذني من الموت وله علي فضل ؟»

فظلت سمية صامتة مخافة ان يعود ابوها الى ذكر القتل ، ولكنها استغربت استنكافه الاقرار بالفضل لاهله . وقد فاتها ان من الناس من يتعمدون الايقاع بالمحسنين اليهم لان تصورهم فضلهم يهيج جسدهم حتى يقودهم الى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة . وأمثال هؤلاء

قليلون والحمد لله ـ وكان عرفجة واحدا منهم ـ وتلك غاية الدناءة والخسة .

ولم تر سمية خيرا من السكوت ، ولكن ذلك لم يغير شيئا من عواطفها بل لعله زادها تعلقا بحسن ، وتعلق ذهنها بالسعي في تحذيره. وكانت تفكر في ذلك وهي متكئة على صدر ابيها وقد بللت قميصه بدموعها ، فأنهضها وقبلها وقال لها : «قومي يا سمية وارجعي الى رشدك فاني سأزوجك بأعظم رجل يتحدث به المسلمون الان لتعلمي اني انما اسأتك بأقوالي لاحسن اليك بأفعالي» .

فنهضت ومشت وهي صامتة تمسح عينيها بكمها حتى اتت حجرتها فدخلت وأقفلت الباب ثم استلقت على فراشها وقد تمثل لها عظم الارتباك المحيط بها والخطر الذي يهدد خطيبها فأظلمت الدنيا في عينيها وأطلقت لدمعها العنان ، ثم استرجعت رشدها وفكرت في امرها وأمر ابيها وما تعرضت له بسبب حبها لحسن فجعلت تناجي نفسها قائلة : «كيف تعلقت بهذا الرجل الغريب وفي تعلقي به خطر على حياتي وحياته ؟. أليس هذا ابي الذي رباني وكفلني ولا يريد لي الا الخير والسعادة ؟ كيف أعصاه وأطيع هواي ؟ أليس من التعقل ان أنصاع لرأيه ؟. اما حسن فماذا يربطني به ؟. الحب ؟ وما معنى الحب ؟. ان هذا الحب سبب عذابي وعذاب ابي وعذاب حبيبي . لا . ان عذابه عذب . آه ما احلى الحب وما اشرف عواطف المحبين .. كيف يعيش الناس بدون الحب وما الفائدة من الحياة بلا محبة ؟. اني لا ارى في العيش لذة الا حين أفكر في حسن . آه ما ألطف هذا الاسم . ولكن كثيرا ما كنت أسمعه قبل ان اعرف الحب فلا ألتذ لفظه كما ألتذه الان. فأنا انما أتلذذ بالحب . آه ما احلاه وما احلى لفظه بفمي وذكره بفكري وما احلى صورته في عيني !»

ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة برهة وهي تفكر في ابيها وقالت : «ولكن ابي رباني بعد وفاة امي وبقي وحده لم يتزوج من اجلي وهو يحبني ويريد سعادتي فكيف أغضبه ؟»

ثم قالت : «لا .. انه خرج في معاملته عن حقوق الابوة ، ان لحسن فضلا كبيرا علينا . ولكن ابي تنكر له ، بل اراد قتله من اجل ذلك الفضل . اراد قتل حسن ؟!. ان ابي ظالم ، والظالم لا يحبه الله فكيف احبه انا ؟. اما حسن فشهم تفانى في سبيل نجاتنا ويكفي انه يحبني واني احبه حبا عذريا نقيا لا عيب فيه . يا الهي ما هذا الحب ؟. اذا كنت ترى اني أخطىء فيما اقول فانزع حب هذا الشاب من قلبي . لا .. لا تنزعه .. او انزعه يا الهي .. او كما تشاء.. آه مالي أزداد تعلقا وهياما؟ الله هو الذي اراد ان يحب احدنا الاخر ، والحب الذي يكون خاليا من الدنس وغايته شريفة انما هو من عند الله» .

قضت سمية ساعة في مثل هذه التصورات ، ثم تذكرت ما سمعته من تهديد ابيها فخافت ان يتمكن من حسن وهو غافل فرأت ان عليها ان تحذره حتى يقضي الله امرا كان مفعولا .

وحدثتها نفسها ان تفر معه الى مكة ولكن تعقلها وآدابها زجراها عن ذلك . على انها اصبحت شديدة الشوق الى رؤيته لتشكو له ما في قلبها ويتعاهدا على الاتحاد والصبر . فتذكرت عزمه على الخروج من المدينة في تلك الليلة ، وانه خارج حوالي الغروب من الباب المؤدي الى مكة فعزمت على اغتنام فرصة اشتغال ابيها ، لكي تخرج وتقف له في الطريق وتخاطبه .

اما عرفجة فقد كان بينه وبين طارق بن عمرو حاكم المدينة يومئذ صداقة . وكان طارق يكرم عرفجة لانه ثقفي من قبيلة الحجاج . وكان الحجاج لذلك قد اوصاه به خيرا ، ولانه كان قد عرف سمية وطلب

الاقتران بها فوعده عرفجة بذلك ولكنه استمهله ريثما يسترضيها • ولم يشأ الحجاج ان يحملها ابوها على ذلك بالكره مخافة ان تشكوه الى الخليفة عبد الملك بن مروان فيأمره بالتخلي عنها كما اتفق له مع عبد الله ابن جعفر لما خطب الحجاج بنته أم كلثوم على مال كثير ثم أمره عبد الملك مروان بطلاقها • وجلية الخبر ان الحجاج خطب الى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على الفي الف في السر وخمسمائة الف في العلانية ، فأجابه الى ذلك وحملها اليه فأقامت عنده ثمانية اشهر ، ثم خرج عبد الله ابن جعفر الى عبد الملك بن مروان وافدا ونزل بدمشق ، فأتاه الوليد بن عبد الملك (ابن الخليفة) على بغلة ومعه الناس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب ، فقال له الوليد : «لكنك انت لا مرحبا بك ولا اهلا» • قال عبد الله : «مهلا يا ابن اخي فلست اهلا لهذه المقالة منك» • قال : «بلى والله وبشر منها» • قال : «وفيم ذلك ؟» • قال : «لانك عمدت الى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بني عبد مناف ، فعرضتها على عبد ثقيف يتفخذها» • قال : «وفي هذا عتبت علي يا ابن اخي ؟» • قال : «نعم» • فقال عبد الله : «والله ما أحق الناس ألا يلومني في هذا الا انت وأبوك ، لان من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي ، اما انتما فمنعتماني رفدكما حتى ركبني الدين • اما والله لو ان عبدا حبشيا مجدعا اعطاني بها ما اعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه • انما فديت بها رقبتي» • فما راجعه الوليد كلمة حتى عطف عنان بغلته ومضى فدخل على ابيه فقال له عبد الملك : «مالك يا ابا العباس ؟» • قال : «انك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف !» • وقصر عليه الخبر • فأدركت عبد الملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليه ألا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ، ففعل • وخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية ان تشكوه الى عبد الملك بوساطة سكينة بنت الحسين ، لعلمه انها

تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك .

* * *

وكان حسن قد ودع رفيقه وسار ماشيا وخادمه يقود جمله وراءه ، قاصدا الى بيت سكينة ، ولما أشرف على بيت عرفجة اختلج قلبه في صدره، ووقف كأن شيئا استوقفه بالرغم عنه ، وتصور انه شاخص الى مكة وهي محصورة فلا يدري متى يعود منها ولا ما يمكن حدوثه في غيابه ، وكيف يسافر وهو لم ير سمية . ثم تمثلت له سمية كما رآها في صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة حاسرة رأسها ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد هيامه واضطربت جوارحه برهة كأنه فاقد رشده لعظم ما اكتنفه من الهواجس . ولم ينتبه لنفسه حتى خاطبه خادمه . وهو رجل من ثقيف اسمه عبد الله وأصله من الطائف وكان في جملة خدم المختار ابن ابي عبيد في اثناء حربه في العراق ، فلما قتل المختار سار في جملة الاسرى الى الشام ثم دخل في خدمة حسن عندما سمع بعزمه على المدينة رغبة منه في الاقتراب من اهله في الطائف ، وكان عبد الله يعرف عرفجة لانه من قبيلته ولم يكن يحترمه ولا يثق بأقواله ، ولكنه لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية . فلما رأى سيده واقفا مبهوتا استغرب ذلك منه فخاطبه قائلا : «ما بال مولاي ؟ هل يفكر في امر نسيه فأقضيه ؟»

فانتبه حسن لنفسه واستحى من خادمه ، ولكنه تذكر ما بين هذا الخادم وعرفجة من رابطة القبيلة ، فلاح له ان يستخدمه في ذلك لعله يأتي بفائدة فقال : «أتعرف عرفجة ؟»

فأجاب عبد الله ولم يصبر الى اتمام السؤال وقال : «كيف لا أعرفه وهو ابو سمية» .

فلما طرق اسمها سمع حسن خفق قلبه ، ولو لحظ عبد الله وجه سيده لرأى الاضطراب ظاهرا في محياه ، ولكنه لم يكن يتفرس في وجهه لفرط احترامه له . اما حسن فقال : «وهل تعرف سمية ؟»

فضحك عبد الله وقال : «كيف لا اعرفها وهي من قبيلتي ؟»

قال : «وهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟»

قال : «كلا ، ولكن سمية مشهورة بجمالها وتعقلها ولطفها ، وقد اتفق لي اني رأيتها غير مرة يوم كنا في العراق» .

فسر حسن بهذه المصادفة وأراد ان يستخدم عبد الله في البحث عن سمية او مخابرتها فقال : «اذن اسمع يا عبد الله ، أريد ان أرسلك الى سمية في مهمة فهل تذهب ؟» . قال : «لك الامر وعلي الطاعة» .

فأعجب بلطف تعبيره وقال له : «بورك فيك يا عبد الله فاعلم اني قدمت في هذا الصباح الى عرفجة ، وقضيت معه ساعة ، ولم أتمكن من مشاهدة سمية لانها كانت مشغولة ونحن الان سائرون الى مكة ولا ندري متى نعود فهل اخرج من المدينة قبل ان اراها ؟»

قال : «كلا بل يجب ان تراها وتخاطبها . هل اسألها موعدا للقاء ؟»

قال : «لا تستعجل يا عبد الله . فاني اخاف ان يغضب ابوها اذا اطلع على ذلك لاني سمعت بصرامته في تحجبها ، فلا يليق بي ان اراها خلسة بعد ان خطبتها منه» .

فأرسل عبد الله بصره الى بيت عرفجة وقال : «ما دامت خطيبتك فلا بأس من رؤيتها وان لم يعلم ابوها .. اتأذن لي في الدخول الى هذا البيت والاستفهام عن عرفجة فأحتال لابلاغها موعدك ؟»

فاستعظم حسن الاقدام على هذا الامر ، ولكن رغبته في رؤية سمية هونت عليه ذلك فقال : «اني ذاهب الى منزل سكينة ، وأنا أعلم ان سمية كثيرة التردد اليه ، فقل لها ان توافيني الى هناك» .

قال : «سمعا وطاعة» . ومضى يسوق الجمل وهو يقول : «سأحمل اليك الجواب في منزل سكينة ان شاء الله» .

- ٥ -

مجلس سكينة بنت الحسين

اما حسن فسار حتى وصل الى منزل سكينة بنت الحسين ، فرأى بجانب الباب حظيرة تربط فيها دوابها ودواب من يقدم اليها من الوفود . لان منزلها كان مقصد الشعراء والادباء وأهل الوجاهه من قريش وغيرهم . وكان حسن قد سمع جعجعة الجمال وجلبة الخدم قبل وصوله الى الدار ، فلما وصل رأى كثيرا من الدواب وأكثرها للاضياف . ورأى بينها جمل ليلى الاخيلية .

فلما انتهى الى باب بستان الدار دخل ولم يستأذن ، لان الناس كانوا يدخلون منه الى دار الاضياف ويخرجون بلا استئذان . ومشى في باحه كبيرة رأى في بعض جوانبها غرفا عديدة في صف واحد عرف انها دار الاضياف ، ثم رأى في صدر البستان بيتا متقن البناء على بابه الخدم . فعرف انه مسكن سكينة ، فتحول الى دار الاضياف . لعله يرى ليلى هناك فيقيم معها ريثما تأتي سمية فتكون له وسيلة الى مقابلتها . فبلغ دار الاضياف والخدم يقومون باعداد الاطعمة من الذبائح ونحوها . وقد سره اشتغالهم عنه لكي يتمكن من البحث عن ليلى ، فطاف الغرف غرفة غرفة فلم يجد احدا يعرفه ، فظل ماشيا وهو يسمع ضجة من جهة مسكن

سكينة بعضها من الخدم في الخارج والبعض الاخر من الداخل . وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوقأة مثل قوقأة الدجاج ، فمشى الى مصدر الضحك فاذا هو في غرفة بجانب باب المسكن وببابها بضعة رجال لم يعرفهم ، فدنا منهم وألقى التحية فردوا السلام وأبصارهم شاخصة الى داخل الغرفة ، فأطل حسن من فوق أكتافهم فرأى هناك رجلا قصيرا دميما ، قليل اللحم ، أزرق اللون ، أحول البصر ، أقرع الرأس ، اثط اللحية ، جلس القرفصاء على أكمة من التبن وهو يحضن بيضا ويقوقىء كما تقوقىء الدجاجة ، فاستغرب حسن ذلك ونظر الى احد الوقوف مستفهما فقال له الرجل : «ألا تعرف من هذا ؟»

قال : «لا .. ومن هو ؟»

قال: «أشعب الطماع الذي اتخذته سكينة بنت الحسين مضحكا لها».

قال حسن : «أسمع اسمه وأعرف بعض أخباره المضحكة ، ولكن منظره أضحك من أخباره . ما الذي أقعده هذا المقعد وهو يقوقىء كأنه يحضن بيضا ؟»

قال الرجل : «بل هو يحضن بيضا حقيقة عقابا له على ذنب ارتكبه بين يدي سكينة مولاته ، فأمرته ان يقعد على هذا البيض حتى يفقس وقد مضى عليه ايام وهو على هذه الحال !»

فشغل حسن بذلك المنظر عن قلقه لطول انتظاره خادمه ، وأراد ان يشغل نفسه هنيهة اخرى فقال : «يا أشعب ما الذي اجلسك هذا المجلس ؟ »

قال : «أجلسني اياه مولاتي سكينة ، فهل فيكم من يخرجني من هذا الحبس ؟»

فقال حسن : «ومن يتوسط لك في هذا الامر ؟»

قال : «كأني بليلى الاخيلية قد دخلت دار مولاتي اليوم ، فاذا كانت

هنا ، فلا ارى أقدر منها على اخراجي من هذا المكان» .

قال حسن : «هان الامر ، فلك علي ان أوسط ليلى في العفو عنك» .

* * *

ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتا يناديه ، فالتفت فرأى خادمه عبد الله واقفا على بضع خطوات منه فقال حسن : «ما وراءك ؟»

فدنا عبد الله منه وقال : «دخلت البيت وسألت عن عرفجة فقيل لي انه خرج في الصباح ولم يعد بعد ولا يعرف احد مقره» .

فابتدره حسن قائلا : «وسمية ؟»

فقال : «وسألت عن سمية فعلمت انها ذهبت الى سكينة من برهة قصيرة فسررت بذلك وأتيت لاخبرك ، فهل رأيتها هنا ؟»

قال : «لم أرها ولعلها في البيت مع النساء ، فكيف اصل اليها ؟ . بورك فيك يا عبد الله ، امكث انت بالباب مع الخدم والجمل معك حتى اخرج او أحتاج اليك في شيء» .

قال : «سمعا وطاعة» . وخرج .

وعاد حسن وقد شغل عن أشعب ونجاته بالبحث عن سمية ، ولما تصور انه سيتمكن من مقابلتها خفق قلبه . فلم ير وسيلة الى ذلك الا ليلى ، فجاء باب القاعة التي تستقبل سكينة فيها ضيوفها ، فرأى عليه رجلا واقفا وقوف الحاجب فقال له حسن : «هل في مجلس بنت الحسين احد ؟ »

قال الرجل : «ان مجلسها غاص بالناس ، وفيهم جماعة من الشعراء والشاعرات » .

قال : «وهل فيهم ليلى الاخيلية ؟»

قال : «نعم» •

قال : «قل لليلى ان حسنا بالباب يدعوك اليه» •

فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه ، فلما رأت حسنا رحبت به فمشى بها الى خلوة وقال لها : «اني مسافر الليلة وقد جئت لوداعك» •

قالت : «رافقتك السلامة ووفقك الله في مهمتك» •

قال : «ولكني أعرض عليك امرا ارجو مساعدتك فيه الان وهو لا يتعبك » •

قالت : «وما هو ؟»

قال : «أتعرفين سمية بنت عرفجة ؟»

قالت : «نعم أعرفها وقد رأيتها من برهة وجيزة جالسة بجانب سكينة تخاطبها وسكينة تلاطفها لانها تحبها كثيرا • وأنت ما شأنك معها ؟»

قال : «شأني معها شأن الخطيب وخطيبته فهل هي لا تزال هناك ؟»

قالت : «لقد سرني انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة • وأظنها باقية لاني لم ارها خرجت • وعلى كل حال تعال معي فندخل القاعة فتمكث انت مع الجلوس من الرجال وأدخل انا الى مجلس النساء وراء الستار حيث تقيم سكينة وصاحباتها فأبحث عن سمية » •

قال : «أرجو ان تجمعيني بها ساعة لا يرانا فيها احد سواك ، لاني خطبتها منذ ثلاثة أعوام وجئت المدينة بالامس ، وها أنذا خارج الان ولم أشاهدها او أخاطبها» •

قالت : «لك علي ذلك» •

قال : «خير البر عاجله ، فاني مسافر عند الغروب» •

قالت : «ألا تؤجل سفرك الى غد ؟»

قال : «كنت أود ذلك ولكنني على موعد مع صديق لكي نسير معا ، وسيوافيني عند الغروب الى باب المدينة» • ثم غيّر مجرى الحديث فقال:

«وأوصيك بأشعب الطماع فانه يحضن بيضا عقابا له على ذنب ارتكبه وقد وعدته بأن تتوسطي له لدى مولاته سكينة ، فلا تنسيه» .

فضحكت وقالت : «قبحه الله ما اكثر مزاحه ، ولكنه وافق هوى في نفس سكينة ، فهي كذلك تحب المزاح ، وقد تعودت معاقبته بمثل ذلك العقاب ، وحضن بيضا مرة حتى فقس وخرجت فراريجه فملأت الدار ، وهي تسميها (بنات أشعب) . اني ذاهبة وسأكلمها في شأنه . فتعال معي واجلس مع الجالسين فاذا لقيت سمية أومأت اليك فتخرج» .

★ ★ ★

دخلت ليلى ودخل حسن في اثرها . ثم أطل على القاعة فاذا هي واسعة وقد فرشت بالطنافس الثمينة ، وحولها الوسائد المزركشة وفي صدرها ستارة عليها صور اشجار وطيور ملونة خلفها سكينة ونساؤها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها .

ورأى في القاعة جماعة قد تصدرهم خمسة عليهم لباس البدو ، فسألها : «من هؤلاء المتصدرون ؟»

قالت : «هم الشعراء . ألا تعرف احدا منهم ؟»

قال : «أظنني اعرف الجالس على الوسادة المثناة ، فهو الفرزدق ، وقد عرفته بضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه أليس هو الفرزدق ؟»

قالت : «نعم هو بعينه . ألا تعجب من اجتماعه هو وجرير في مجلس واحد مع ما اشتهر بينهما من المهاجاة ؟»

قال : «وأين جرير ؟»

قالت : «هو ذاك الذي كف شعره وأدهن ، ومتى تكلم سمعت لكلامه غنة يخرج بها الكلام من انفه كأن فيه نونا» .

قال : «ومن هو الاخر القصير الدميم العظيم الهامة ؟» • قالت : «هو كثير عزة العاشق المشهور» •

قال : «اعاذ الله عزة من منظره فانه قبيح • ومن ذاك الشاب الجميل العريض المنكبين الحسن البزة • وكأنه جالس القرفصاء ؟»

قالت : «هو جميل بثينة احد عشاق بني عذرة • ألا تراه حزينا لما اشتهر من حبه لها وحرمانه لذلك منها ؟»

قال : «ومن ذلك الاسود •؟ اني لاستغرب منظره ، والشعــــراء يندرون في السود ؟»

فضحكت وقالت : «هو نصيب الشاعر الفحل • وأما سواده فلأن امه أمة ، وهو من قضاعة» • ثم اشارت عليه بأن يجلس على احـــدى الوسائد وان ينتظر ما يكون من شأنها مع سمية •

فجلس وهو يخاف فوات ولم يكد يستقر به المقام حتى سمع لغطا من وراء الستار فاستبشر وظن ان ليلى تخاطب سكينة او سمية • ثم رأى جارية وضيئة خرجت وقالت : «أيكم الفرزدق ؟»

وكان حسن يتوقع ان تناديه فلما سمعها تنادي الفرزدق التفت اليه فرآه يقول : «ها أنذا» •

قالت : «انت القائل :

« هما دلياني مـــن ثمانين قامةً   كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي بالارض قالتا: أحي فيرجــي ؟ ام قتيل نحاذره ؟

فقلت: ارفعوا الامراس لا يشعروا بنا   وأقلت في اعجـــاز ليل أبادره »

قال : «نعم» •

قالت : «فما دعاك الى افشاء السر ؟ خذ هذه الالف دينار والحـق

بأهلك» . فأخذها وانصرف . ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت فقالت : «أيكم جرير ؟» . فلما عرفها جرير نفسه قالت : «انت القائل :

«طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا لوصلت ذاك وكان غير ذمام
اني أواصل من اردت وصاله بحبال لا صلف ولا لوام »

قال : «نعم» .

قال : «أفلا اخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟» انت عفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الالف والحق بأهلك» . فأخذها وانصرف . ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت : «أيكم كثير ؟» فلما عرفته قالت : «انت القائل :

« وأعجبني يا عز منك خلائق كرام اذا عد الخلائق اربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك اسباب المنى حين يطمع
وانك لا تدرين صبا مطلته أيشتد ان لاقاك او يتضرع
وانك ان واصلت علمت بالذي لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع»

قال : «نعم» .

قالت : «قد ملحت وشكلت ، خذ هذه الالف واذهب لاهلك» .

ودخلت وخرجت وقالت : «أيكم نصيب ؟» . قال نصيب : «انا هو» .

قالت : «انت القائل :

« ولولا ان يقال صبا نصيب لقلت بنفسي النشا الصغار

بنفسي كـل مهضوم حشاهـا   اذا ظلمت فليس لهـا انتصار »

قال : «نعم» .

قالت : «ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا ، خذ هذه الالف والحق بأهلك» . فأخذها وانصرف . ثم دخلت وخرجت فقالت لجميل : «مولاتي تقرئك السلام وتقول لك : (ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

«ألا ليت شعري هل أبيتن ليلـة   بوادي القرى اني اذن لسعيـد
لكل حديث بينهـن بشاشـة   وكـل قتيل عندهن شهيـد »

فجعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الالف دينار والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف .

وكان حسن ينظر ويسمع ولا يستغرب مثل ذلك المجلس ؛ لان اهتمام النساء بالشعر والادب وجلوسهن لمثل تلك المطارحة كان شائعا في تلك الايام ونبغ من النساء شاعرات ماهرات منهن ليلى الاخيلية وغيرها . ولكنه استغرب اهتمام سكينة على رفعة مقامها بمباحثة الشعراء فيما قالوه ونظموه . وكان يسمع ويرى وهو قلق البال لتأخر ليلى عنه ولم يكن يدري كيف يدعوها او يستعجلها فرأى ان يسمعها صوته ، وكان قد لاحظ وجود صور للطير والاشجار على الستار الحاجز بين مجلسي الرجال والنساء ، كما لاحظ وجود أمثالها على الوسائد ، فرأى ان يتخذ من ذلك موضوعا لاسماع ليلى صوته . وما كادت الجارية تفرغ من مخاطبة الشعراء وتهم بالدخول بعد ان انصرفوا ، حتى استوقفها وقال : «تمهلي يا بنية» .

فوقفت والتفتت اليه فقال لها : «لقد باحثت هؤلاء الشعراء وأفحمتهم فانصرفوا فهل اسألك سؤالا ؟»

قالت : «قل ما تشاء» .

قال : «ارى على ستاركم صورا وقــــد قال رسول الله (صلعم) : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) ..؟»

فأشارت الجارية اليه ان يتمهل ودخلت الى سيدتها ، ثم عادت اليه وقالت له : «وما يضرنا وما نحن من المصورين ؟»

قال : «ولكنكم اتخذتم تلك الصور استارا . ولو كانت تلك صور اشجار فقط لهان امرها ، ولكنها صور لذوات أرواح ، وفي الحديث (ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصورة) ..»

وهنا سمع صوتا جهوريا من وراء الستار يقول : «لا تنس تتمــــة الحديث (الا رقما في ثوب)» . فأدرك ان ليلى هي المتكلمة ، وسكت بينما عادت الجارية الى مجلس النساء ولبث هو على مثل الجمر لا يدري ماذا يصنع ، والتفت نحو نافذة عالية فرأى الشمس قد مالت الى الغروب فازداد قلقه وخشي ان يطول انتظار صاحبه سليمان بباب المدينة .

★ ★ ★

وبينما هو يفكر في ذلك اذ سمع لغطا وراء الستار أعقبه ضحك كثير وصوت يقول : «قد اطلقنا سراحه اذهبي يا بنانة واخرجيه ، قبحه الله ما اخبثه» . فأدرك ان سكينة هي المتكلمة ، ولكنه ظنها تريد اخراجه هو فاضطرب . ثم ما لبث ان رأى ليلى خارجة وهي تشير اليه ان يتبعها ، فسار في أثرها حتى خرجا من القاعة فدنت منه وقالت : «لا تخف انها لم تأمر باخراجك ولكنها امرت باخراج أشعب الطماع لاني اوصيتها به عملا باشارتك » .

فقال : «بورك فيك ، ولكن اين سمية ؟»

قالت : «ليست هنا ، كانت في المجلس وخرجت قبل ان اراك» .

فاستعاذ حسن بالله وانقبضت نفسه ثم قال : «هل انت على يقين مما

تقولين ؟»

قالت : «لقد تحققت خروجها فلعلها خرجت الى بيت ابيها لانها لا تستطيع الغياب طويلا عنه» •

وفيما هما يتكلمان رأيا أشعب مهرولا نحوهما ، فلما بلغ مكانهما هم بتقبيل يد حسن وقال : «جزاك الله عني خيرا فقد انقدتني من عـــذاب طويل لان البيض لم يكن ليفقس قبل بضعة ايام ، فأسأل الله تعالى ان يقدرني على مكافأتك • هل استطيع خدمتك في شيء ؟»

قال حسن : «اني لم أفعل ما يستحق هذا الثناء» • ثم التفت الى ليلى كأنه يريد الرجوع الى الموضوع ، فتنحى أشعب قليـــلا وقال حسن : «أستودعك الله يا ليلى ، وأرجو ان اراك في خير» • فقالت : «أسأل الله لك السلامة والنجاح» •

وعجل حسن بالخروج لعله يلقى سمية في الطريق او في البيت او في مكان اخر • فلما خرج وجد خادمه عبد الله في انتظاره ومعه الجمل ، فركب والشمس قد أذنت بالمغيب وبان الشفق الاحمر ، وما زال يحث جمله حتى بلغ بيت عرفجة فأحس بشيء استوقفه بغتة وما هو الا عامل الحب اوقفه بجانب منزل الحبيب • فلم يتمالك ان نادى عبد الله ، فجاء هذا ووقف بين يديه وهو يقول : «هل أسأل عن سمية فلعلها عادت ؟»

فأعجب حسن بنباهته ودقة شعوره ، وابتسم ولـــم يجب ، فأسرع عبد الله الى البيت ثم عاد وهو يقول : «انها لم تعد يا سيدي» •

فتنهد حسن ، وخيل اليه ان سمية باقية هناك في بيت سكينة ولكن ليلى لم ترها ، او انها رأتها وأخفت امرها • وتكاثرت عليه الهمـــــوم وتراكمت الظنون ــ والمحب سيء الظن كلما اشتد حبه كثرت هواجسه وزاد سوء ظنه بحبيبته وأكثره من قبل الغفلة ، فاذا رأى حبيبه يخاطب احدا مهما يكن من شأنه او مقامه او قرابته تبادر الى ذهنه ان يغازله او

يسر اليه امرا ، واذا ابطأ عليه بالزيارة سبق الى فهمه انه في موعد مع اخر او لا يحبه او يحب سواه • وقد يخيل له ان اهل الحبيب كلهم ضـــده وانهم يسعونه منه فاذا تخاطبوا همسا او قصروا معه في شأن خيل له انهم يريدون به سوءا او هم ينصبون له أحبولة فالمحب كثير الهواجس سيء الظنون •

فلا تلم حسنا اذا اساء الظن بليلى وحسبها تآمرت على اخفاء سمية عنه • وقضى برهة في مثل هذه الهواجس وهو على جمله ، ثم انتبه فاذا بالظلام يتكاثف وتذكر صديقه سليمان فأجفل وشق عليه تأخره عن الموعد مع ما ابداه الرجل من الرغبة في مرافقته وبالغ في اكرامه والتقرب منه، فاستحث جمله وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة سمية . وان علل نفسه بلقائها عند رجوعه من مكة •

- ٦ -

المفاجأة السارة

سار حسن بضع دقائق صامتا حتى أشرف على باب المدينة ، ومـن ورائه المستنقعات والتلال وغابات النخيل • وفيما هو ينظر الى ما وراء الباب اذا بشبح وقف له في الطريق هاتفا باسمه فالتفت حسن وقلبـــه يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على أذنه ، ثم أمسك زمام جمله ونظر الى الشبح فاذا هو امرأة ، فحدثه قلبه بأنها سمية فوثب على الارض حتى وقف بين يديها ، وتنحى عبد الله وقد اخذ بزمام الجمل وتشاغل باصلاح

الرحل •

اما حسن فانه نادى : «سمية ؟»

قالت : «نعم ، ومن الذي معك ؟»

قال : «هو خادم امين لا تخافي منه • ما الذي جاء بك الى هنا في هذا الليل ؟ أأنت سمية حقيقة ؟!•• ما ألطف هذا اللقاء وما اسعد هـذه الساعة !• سمية حبيبتي قولي ما بدا لك» •

فتنهدت وأسندت كتفها الى حائط هناك وتشاغلت باصلاح نقابها ؛ وسكتت •

وقد سر حسن لسعيها الى ملاقاته ، ولكنه أوجس خيفة مما دعاها الى ذلك لما يعهده في ابيها من الشدة والغلظة فقال لها : «اني لا ارى في هذه الدنيا احدا اسعد مني الان ، وقد بذلت الوسع في سبيل الحصول على هذه المقابلة فلم أفز ، وها قد اتتني الساعة عفوا فالحمد لله ، ولكنني اخشى ان يكون لهذه المخاطرة سبب يسوء» • فتحيرت سمية ولم تدر بم تجيبه فلبثت صامتة ، فازداد هو قلقا وقال لها : «ما بالك ؟ قولي • لعلك علمت بذهابي الى مكة فخفت خطرا يهددني هناك ؟»

فلما سمعت ذكر الخطر أجابته والبكاء يخنق صوتها : «نعم اخاف عليك الخطر ، ولكن ليس في مكة فقط بل ••» • وشرقت بالدمع فانقطع صوتها •

فتقطع قلب حسن ومد يده فأمسك اناملها ، وهي اول مرة قبض فيها على تلك الانامل ، فأحس برعشة تملكته وقال لها : «ماذا ؟• قولي يـــا سمية • يا ملكة قلبي • هل تخافين علي احدا في هذه المدينة ايضا ؟ انك ما دمت لي لا تحبين سواي فلست أبالي بعد ذلك اذا كان اهـل الارض كلهم اعدائي ! »

قالت : «واذا كنت انا عدوتك ؟»

فحمل منها ذلك على قصد المزاح وقال لها : «اذا كنت انت عدوتي فلا غرض لي في الحباة . بالله قولي ما في نفسك . ممـــن تخافين علّي ؟ فأريك دمه مسفوكا ولو كان حوله جيش جرار . قولي» .

فتنهدت ومسحت دموعها بطرف نقابها وهي تقول : «لا أريد ان ارى دمه مسفوكا» .

فتعجب وقال : «وماذا اذن ؟ افصحي يا سمية . قولي . ممـــن تخافين علي ؟ فقد نفد صبري وطال تأخرى عن الخروج من المدينة ولي صديق ينتظرني في الخارج . قولي» .

قالت : «اني أعد قولي عقوقا مني . ولكنني اسيرة حبك لا ارى لي حياة الا بك» .

نقطع حسن كلامها وقد ادرك ما تريده فقال : «قد فهمت مـــا تريدين . انك تخافين علي من ابيك . أليس كذلك ؟»

قالت : «نعم» . واستغرقت في البكاء حتى كاد يغمى عليها وكان هو ما زال ممسكا يسراها ، فأمسك بيدها الاخرى وقال لها : «ولا هذا يهمني ما دمت تحبينني . هل تحبينني يا سمية ؟»

فصعدت الزفرات ولم تجب ، فقال : «فاذا كنا متحابين فمن ذا يحول بيننـــا ؟ »

وسكت برهة وقد عظم عليه الامر ثم قال : «وما الذي دعا أباك الى بغضي والحاق الاذى بي وأنا لم أرتكب منكرا ولا اسأت اليه في شيء ؟»

قالت : «ذنبك انك احسنت اليه . او لعل ذلك من سوء حظي . ولكن ما لنا ولهذا ، ان الوقت لا يأذن بطول الشرح . فأخبرك ان ابي لا يريدك ، وأخاف ان يسعى في أذاك ، وقد علمت ذلك على أثر خروجك من منزلنا ، فأردت اطلاعك على جلية الخبر لتكون على بصيرة» .

قال : «اما الحاق الاذى بي فاني لا اخافه ، ولكنني اخاف ان يلحق

الاذى بك انت» .

قالت : «لقد اظهرت له الطاعة والرضا ريثما اراك ثم أفعل مـــا تأمرني به» .

فأطرق حسن ثم قال : «اني مغلول اليدين بما اخذته على نفسي من امر السفر الى مكة عاجلا في مهمة لرجل احبه وله علي فضل كبير . وكنت احب ان ادعوك للذهاب معي ولكنني ذاهب الى مكان به الحرب قائمة فلا أريد تعريضك لهذا الخطر» .

فقطعت كلامه قائلة : «وكيف تعرض نفسك للخطر ؟ ان مكة اليوم في أضيق حصار وأهلها في ضنك شديد . بالله ألا عدلت عن الذهاب ثم تفعل ما تريد ؟»

قال : «اما الذهاب فلا بد منه فامكثي انت هنا وأظهري الطاعة حتى اعود ونرى ما يكون . ولست اخشى بأسا ولا خطرا ما دمت لا تحبين سواي» . ثم سمع جعجعة الجمل فانتبه للوقت وقال لها : «كنت اود ألا نفترق منذ الان ولكن للضرورة أحكاما . وسأرسل عبد الله معك الى منزلك لان الليل قد أظلم ولا آمن عليك المسير وحدك ، فهل تسيرين الى بيت ابيك ؟»

قالت : «لا ولكني اعود الى بيت سكينة لان ابي يعلم اني سرت اليها فاذا استبطأني سأل عني هناك فأعتذر عن تأخري ، وذلك من غير ان يراني عائدة الى البيت وحدي في هذا الليل . ولكن كيف أفارقك ؟»

قال : «تشددي يا سمية ان سفري هذا لا بد منه ، ولكنه سيكون اخر الاسفار باذن الله ثم نعود ونعيش معا» .

فلما قال ذلك بكت سمية حتى سمع صوت بكائها فانفطر قلبه ، وكاد يشاركها البكاء لولا انه تجلد وقال لها : «لا تبكي يا سمية بل اتكلي على الله واعلمي اني عائد اليك على عجل» . قال ذلك ونادى عبد الله وقال

له : «اوصل سمية الى بيت سكينة ، ثم الحق بي في الطريق المؤدي الى العقيق ، فاني سابقك الى هناك ، فقد ابطأت على سليمان وأخاف ان يكون قد سبقني او عاد الى منزله» •

***

سارت سمية وهي تقول لحسن : «سر في حراسة الله ، واسأله ان ينصرك على اعدائك» • وظل صوتها يرن في أذنيه حتى نوارت عنه ، فركب جمله وساقه الى باب المدينة ولم يكن مقفلا فالتفت يمنة ويسرة فلم ير سليمان •

فخرج وهو يمشي الهوينى ويصيخ بسمعه لعله يسمع صوتا ، وجعل يحدق بعينيه لعله يرى احدا فسار والجمل دليله بين تلك المستنقعات • ولكنه لم يسر طويلا حتى سمع جعجعة جمل عن بعد فاستوقف جمله وأصاخ بسمعه وحول الزمام الى جهة الصوت وساق الجمل سوقا بطيئا فمشى به بين النخيل والظلام سادل ستاره والسكوت سائد فلم يكن يسمع غير وقع خفاف الجمل على العشب او الطين •

وبعد قليل سمع حسن صوتٍ بكاء وأنين ، فوقف وأصغى ، فسمع صوتا عميقا ، وخشي ان يجعجع جمله فيشوش الصوت فترجل عنه وعقله وشده الى نخلة ، ثم مشى على قدميه وهو يتلمس الارض مخافة ان يخوض في الاوحال حتى تحول عن الطريق الاصلي الى ساحة لا نخيل فيها ولا عشب ، فرأى جملا معقولا وشبحا متوسدا الى جانبه وفوق رأس الشبح شبح اخر يبكي وينتحب • فاختبأ حسن في منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه احد ، فسمع صوتا يقول : «يا لتعاستي وشقائي !• لقد فتكت بك يا ولدي وفلذة كبدي ، اني لأستحق هذا القصاص . ولكن ما

ذنبك انت ؟ تبا لي ما أتعس حظي !• ولدي ! حبيبي ! كلمني يــــا سليمان • سليمان •• سليمان» •

فلما سمع حسن اسم سليمان علم انه صديقه ، فاقشعر بدنه وخشي ان يكون قد اصابه سوء بسببه ، فنهض ومشى ويده على قبضة سيفه حتى أقبل على الشبحين ولم ينتبه له احد •

ثم سمع الشبح الراقد يقول بصوت ضعيف : «لا تحزن يا ابي فقد ذهبت فداء صديق لي هو أحق بالحياة مني» •

فقال الآخر : «أظنك تعني هذا الشقي لانه وفي بعهده • اني عاهدت الله على نصر الحسين والقتال في سبيله وجعلت نفسي في عداد التوابين، ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة • وكثيرا ما رأيتك غير راض بذلك ، فلم اكن اصغي اليك حتى ضربني الله هذه الضربة على قلبي !»

فتحقق حسن ان الراقد سليمان ، وانه في ضيق ، فلم يتمالك عن ان صاح قائلا : «سليمان ؟»

فأجفل الرجل الجالس وحسب الجن تخاطبه ، فوقف للحال وقال : «أنسي انت ام جني ؟» • وكان الرجل كهلا في نحو الستين من عمره والشيب قد جلل رأسه وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة • ولم يتم الرجل سؤاله حتى كان حسن بين يديه وقد أكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه القباء وقد تلطخ بالدم فتفرس فـي عينيه فاذا هو يفتحهما فتحا ضعيفا ويتألم فأمسكه حسن بيده وقال له: «سليمان ؟• اخي سليمان ! ماذا اصابك ؟»

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على أذني الجريح ، ففتح عينيه وصاح: «حسن ؟ اشكر الله على ان جعلني فداءك» •

ولم يتم سليمان كلامه حتى تقدم الرجل الاخر وقال : «حسن ؟ انت حسن ؟• يا لله ما هذه المصيبة التي نزلت بي بسببك ولكن الذنب ليس

ذنبك وانما هو ذنبي انا الشقي التعس !»

فأدرك حسن ان الكهل والد سليمان . وانه كان يترصده فأصاب ابنه خطأ . فصرف عنايته الى انقاذ حياة سليمان ، وحاول ان ينهضه قائـلا لابيه : «الي بالماء» . فجاءه بشيء منه من مستنقع قريب ، فرش به وجه سليمان وغسل موضع الجرح في اعلى الصدر ، وكان قد أصيب بنبلـة اخرجها ابوه .

وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشرة خالد بن يزيد الاموي في دمشق ، لان خالدا كان شديد التعلق بالعلوم الطبية حتى فاق بها سائر قريش ، وكان بصيرا بصنعة الكيمياء والطب متقنا لهما . وألف في ذلك بعض الكتب والرسائل وقد اخذ العلم عن راهب اسمه «ياتس» . ولم يكن مجلس خالد في دمشق يخلو من اهل العلم فكان حسن يجالسهم ويسمع اقوالهم .

فلما غسل الجرح ضغطه ، وآمر ابا سليمان بايقاد النار فأوقدهـا بالزناد . ثم انتظر حسن حتى تكون بعض الرماد فأخذ قليلا منه وذره فوق الجرح وربطه .

ثم سأل عن ماء للشرب فقال الرجل : «ليس معي قربة» .

فقال حسن : «اسند ظهره لآتيك ببعض الماء من قربتي» . قال ذلك ونهض ، ثم تحول نحو النخلة التي عقل جمله عندها فلم يجد الجمـل هناك فطار صوابه لانه كان قد ترك كتاب خالد بن يزيد في مخبـأ بالرحل الذي فوق الجمل حرصا عليه ، وهذا الى ان الجمل كان عزيزا عنده وعليه عدته وثيابه والماء وكل شيء . على انه لم يشأ ان يضيـع الوقت وسارع الى اقتفاء آثار الجمل ، وكان قد لاحظ ان حل عقال الجمل لا يدل على حدوث عنف ؛ فتبادر الى ذهنه انه لم يعقله عقلا متينا فانحل من تلقاء نفسه ، وانطلق الجمل هائما على وجهه او يطلب المرعى

هنا وهناك •

وسار حسن في طلب الجمل مضطربا خائفا لانه غريب في تلك البلاد ، ثم وقف ونظر الى ما حوله من الغياض والبساتين والظلام حالك، فلاح له ظل يتراءى بين النخيل امامه ، فتفرس جيدا وأصغى بسمعه فسمع هدير جمل هناك فأخذ طريقه اليه ، ولاحظ ان ذلك الشبح يبتعد ، فسارع السير في أثره وهو يتعثر بالاعشاب والاحجار ونظره شاخص اليه ، وما زال يمشي والشبح يمتبي امامه حتى خرجا من بين النخيل الى الفلاة ، فما كاد حسن يتفرس في الشبح حتى ادرك انه هو جمله فواصل السير في أثره ، وكان الجمل اجفل من المطاردة فأسرع في سيره ، وظل سائرا مدفوعا برغبته في القبض عليه حرصا على ما يحمله •

- ٧ -

جميل وبثينة

وفيما هو يركض ويلهث اذا به يرى شيخا عليه لباس الرعاة يسير عاري الرأس وقد غرس عصاه في قفا طوقه ، وعليه عباءة قصيرة وخشونة البداوة بادية في وجهه مع شدة الظلام • فناداه حسن : «يا اخا العرب، ألم تر بعيرا راكضا هنا ؟»

وما أتم حسن سؤاله حتى أسرع الرجل اليه وأمسك بذراعه وضغطها بشدة في حين اشار اليه ان يسكت وينتظر ، فالتفت حسن الى ما حوله فرأى شجرة كبيرة على أكمة ورأى هناك ظلا يتحرك ، فهمس في أذن

الشيخ قائلا : «ما شأنك ؟» اخبرني» •

قال : «لقد اتفق لي اليوم حادث غريب مع رجل لقيته على غير معرفة فاذا أصغيت لي قصصت الخبر عليك ، ثم نذهب ونستطلع بقيته معا عند تلك الشجرة» •

قال حسن : «ولكن هل رأيت جملا راكضا من هنا ؟»

قال : «نعم رأيته وأظنه طلب هذا الوادي ، ولا تخف عليه فاني كفيل برده اليك ، لاني اعرف رجال الحي وهم يعرفونني ، والابل سارحة عندهم ولا خوف عليها» •

قال حسن : «وأي واد هذا ؟»

قال : «هو وادي الفرى» •

قال حسن : «أليس هو موطن بني عذرة المعروفين بشدة عشقهم وعفتهم ؟ »

قال : «هو بعينه • والحادث الذي وقع لي اليوم يكشف لنا عن حقيقة ما نسمعه عن هؤلاء • فأعرني سمعك لأقص عليك الخبر» •

فمال حسن الى سماع الحديث ، وأهل الغرام يميلون الى احاديثه ، فقال الرجل : «قضيت في هذه الاودية معظم فصل الربيع أرعى ابلي ، فجاءني في أصيل اليوم رجل طويل القامة منطو على رحله كأنه جان ، فسلم علي ثم قال : (ممن انت يا عبد الله ؟) • فقلت : (احد بني حنظلة)• قال : (فانتسب) • فانتسبت حتى بلغت فخذي الذي انا منه • ثم سألني عن بني عذرة اين نزلوا فقلت له : (هل ترى ذلك السفح انهم نزلوا من ورائه) • قال : (يا اخا بني حنظلة ، هل لك في خير تصطنعه لي ، فوالله لو اعطيتني ما ترعاه من هذه الابل ما كنت بأشكر عليها مني لك عليه) •

«فقلت : (نعم ومن انت ؟) • قال : (لا تسألني من انا ، ولن اخبرك بأكثر من اني رجل بيني وبين هؤلاء القوم ما يكون بين بني العم ، فان

رأيت ان تأتيهم فانك تجد القوم في مجلسهم فتنشدهم بكرة ادماء تجر خفيها عقلاء من السنة • فان ذكروا لك عنها شيئا فذاك ، والا فاستأذنهم في دخول البيوت وقل : ان المرأة والصبي قد يريان ما لا يرى الرجال• فاذا أذنوا لك فادخل بين البيوت واسأل اهلها حتى لا تدع احدا تصيبه عينك ولا بيتا من بيوتهم الا وقفت به وسألت) ••» •

فدهش حسن واشتدت رغبته في سماع بقية القصة ، وعاد الشيخ الى الكلام فقال : «فأتيت القوم فاذا هم على جزور يقتسمونها ، فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضالتي ، فلم يذكروا لي شيئا ، فاستأذنتهم في دخول البيوت وقلت : (ان الصبي والمرأة قد يريان ما لا يرى الرجال) • فأذنوا • فأتيت أقصاها بيتا ثم مضيت اطوف بها بيتا بيتا أسألهم فـــلا يذكرون شيئا • حتى اذا انتصف النهار وآذاني حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لانصرف ، حانت مني التفاتة فاذا بثلاثة ابيات فقلت في نفسي : (ما عند هؤلاء الا ما عند غيرهم) • ولكني عدت فقلت لنفسي : (أيثق بي رجل يؤكد ان حاجته تعدل كل مالي ثم آتيه فأقول عجزت عن ثلاثة ابيات ؟) • فانصرفت عامدا الى اعظمها ، فاذا اهله قد ارخوا مؤخره ومقدمه ، فسلمت فردوا السلام • وذكرت ضالتي فقالت جارية منهم : (يا عبد الله قد اصبت ضالتك ، وما أظنك الا قد اشتد عليك الحر واشتهيت الشراب) • قلت : (أجل) • قالت : (ادخل) • فدخلت فأتتني بصفحة فيها تمر من هجر ، وقدح فيه لبن ، والصفحة مصرية مفضضة والقدح لم أر اناء قط احسن منه • فقالت : (دونك)• فأكلت التمر وشربت من اللبن حتى رويت • فقلت : (يا أمة الله ، والله ما اتيت أكرم منك ولا أحق بالفضل ، فهل ذكرت عن ضالتي شيئا) • فقالت : (هل ترى هذه الشجرة فوق الشرف ؟) • قلت : (نعم) • قالت : (ان الشمس غربت امس وهي تطوف حولها ، ثم حال الليل بيني وبينها) • فظننتني فهمت

مرادها فقلت : (جزاك الله خيرا ، والله لقد تغديت ورويت) . ثم مضيت فأتيت تلك الشجرة وطفت بها فما رأيت اثرا . فأتيت صاحبي فاذا هو متشح بكسائه وقد قبع بين الابل ورفع عقيرته يغني فقلت : (السلام عليكم) . قال : (وعليكم السلام ، ما وراءك ؟) . قلت : (ما ورائي شيء) . قال : (لا عليك ، فأخبرني بما فعلت) . فقصصت عليه القصة حتى انتهيت الى ذكر المرأة وأخبرته بما صنعت فقال : (قد أصبت طلبتك). فعجبت لاني لم اجد شيئا . ثم سألني عن صفة الاناءين والصفحة والقدح ، فلما وصفتها له تنفس الصعداء وقال : (قد اصبت طلبتك والله). ولما ذكرت له حديث الشجرة وغروب الشمس وهي تطوف حولها ، بدا البشر في وجهه وقال : (حسبك) . ففهمت انها ضربت له موعدا للقائه عند هذه الشجرة بعد الغروب . ومكث حتى أوت ابلي الى مباركها ، فدعوته الى العشاء فلم يدن منه وجلس مني بمزجر الكلب . حتى اذا ظن اني نمت . قام الى عيبة له فأخرج منها بردين ، ارتدى احدهما واتزر بالآخر ثم انطلق نحو الشجرة . وهو الذي تراه جالسا هناك بقرب جذع الشجرة ، وسنرى ما يكون من اجتماع الحبيبين» .

***

أمسك الشيخ حسنا بيده ، وجذبه الى الجلوس بجانبه على الارض بين شجيرات هناك ، ثم اشار بيده صامتا نحو شبح صاعد من الوادي وعليه لباس النساء ، ومعه شبح اخر وقال : «هذه هي الفتاة ومعها خادمتها ، اضطجع مكانك لنرى ما يكون» .

فانبطحا ، وبعد قليل زحفا حتى اقتربا من الشجرة واختفيا في مكان بحيث يريان ويسمعان ما يدور بين الفتى والفتاة .

ولو ان الليلة كانت مقمرة ، لتبين لهما ما ارتسم على وجه الفتى حين

وصلت الفتاة ، فوقف وتقدم للقائها وهو يحسب نفسه في خلاء وظلمة . وكان قلب حسن في اثناء ذلك يضرب ضربات سريعة مخافة ان يرى من الحبيبين ما يخجله او يهيج غيرته ، فندم على اصغائه للشيخ الراعي لما في اختلاس اسرار الناس من امر منكر . على انه أحس بميل شديد لاستطلاع ما يدور بين هذين العاشقين . واستطلاع مثل هذه الاسرار مما تتوق اليه النفس . والميل الى ذلك عام في الناس على اختلاف طبقاتهم وان تفاوتوا في احترام تلك الاسرار والاغضاء عن استطلاعها عملا بالآداب العامة .

وملتقى الحبيبين على هذه الصورة تميل النفس الى رؤيته ولاسيما عند اهل الغرام فلا عجب اذا اختلج قلب حسن واصطكت ركبتاه واقشعر بدنه . ولم يكن سبب ذلك التأثر الا توقعه امرا يخاف ان يراه ولا يريد ان يفوته . ولكنه ما كاد يرى العاشق واقفا لرد التحية حتى عرف من طول قامته وغنة صوته انه جميل الذي رآه اصيل ذلـــك اليوم في مجلس سكينة . فتحقق ان الفتاة هي بثينة ، لانه كثيرا ما كان يسمع احاديث غرامهما وكيف منعه اهلها منها ولكنه ما زال يحبها حبا مفرطا ، كما انها تحبه هي ايضا . وكان حسن يسمع بحب بني عذرة وعفافهم ولكنه لم يكن يصدق ان مثل ذلك الملتقى في ذلك الخلاء على غفلة من الرقبـــاء يكون مقصورا على القاء التحية .

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر وجلس جميل على حجر لا يمس ثوبه ثوبها ولا يده يدها . جلسا متقابلين ينظر احدهما الى الاخر ولا يفوه بكلمة الا ما كان عتابا او تشاكيا ، ولا يقولان فحشا ولا هجرا . فاستغرب حسن ما رآه من العفة الصادقة ، ثم سمع الفتاة تنـــادي خادمتها وكانت الخادمة قد وقفت على مقربة منهما ، فجاءت تحمل قصعة من الطعام فجلسا يأكلان ويتحادثان فلما فرغا من الطعام قالت بثينة :

«بلغني انك قلت فيّ أشعارا فهل انت على حبك ؟»

قال : «لا أعرف في لغة البشر لفظا يعبر عما في قلبي . فانه أعظم من الحب ، وأشد من الغرام ، وأرقى من العبادة . ولا ادري ما هو يا بثينة فاذا اكتفيت بتسميته حبا فاني لا اراه يؤدي ما في قلبي» .

قالت : «وكيف ذلك ؟»

قال : «لا أدري يا حبيبتي . لا أدري كيف هو ولا ما هو !» . ثم صعد الزفرات وقال : «انما أعلم انك نصب عيني أينما سرت وحيثمـا جلست وكيفما نظرت . ان بثينة امام عيني ، اراها جسما واضحا ومن عداها من الناس اراهم أشباحا او ظلالا . ولم اسمع اسمها الا اضطربت جوارحي وخفق قلبي ، ولا ارى راحة الا بالبكاء ، حتى قلت :

(خليلي فيما عشتما هل رأيتما   قتيلا بكى من حب قاتله قبلي ؟)» .

فقالت بثينة : «اذا كنت انت كذلك فكيف انا ، ولكننا معشر النساء مقضي علينا بالتعب والشقاء ، فلا تقدر احدانا على بث شكواها الى احد لئلا ينثلم عرضها . وأما انتم معشر الرجال فلكم الحرية كلها . وأنت تزعم انك تحبني حبا لا تدري مقداره . فهل يهجر محب حبيبه وقد احبه الى هذا الحد ؟ فوالله ما أعلم ما تسمعه عني او تقوله في اثناء الغياب الطويل . ولا ادري موقع بثينة ممن يقع بصرك عليهن ؟» . قالت ذلك بنغم الدلال فازداد جميل هياما وقال لها :

« اني لأحفـظ غيبكـم ويسرني   اذ تذكرين بصالـح ان تذكـري
ويكون يوم لا ارى لـك مرسلا   او نلتقي فيه ، علي كأشهـر
يـا ليتني ألقى المنيـة بغتـة   ان كـان يوم لقائكم لم يقـدر

لا تحسبي اني هجرتـك طائعـا   حدث لعمرك رائـع ان تهجري
لهواك ما عشت الفـؤاد وان أمت   يتبع صداي صداك بين الأقبر »

فما تمالكت بثينة عند سماعها قوله ان غصت بريقها وقالت : «وهل انت الذي قلت :

« ألا ليت شعري هل أبيتن ليلـة   بوادي القرى انـي اذن لسعيـد
وهل ألقين فـردا بثينـة مـرة   تجود لنا من ودها ونجـود »

قال : «نعم» .
قالت : «وما الذي ترجو ان نجود به ونحن بنو عذرة ؟»
قال : «لا أطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب :

«لا ، والذي تسجد الجباه لـه   مالـي بما تحت ثوبهـا خبر
ولا بفيهـا ولا هممت بهـا   ما كان الا الحديث والنظـر »

فأطرقت بثينة خجلا ثم قالت : «ذلك عهدنا بجميل ، ولولا ذلك ما رأيتني اسعى اليك وحدي» .

فلا تسل عن استغراب حسن والراعي ما رأياه حتى هانت علي حسن نفسه لانه لم يكن يظن انه يستطيع ما استطاعه جميل اذا التقى ببسية .

قضى جميل وبثينة ساعة في مثل ذلك ثم نهضت فودعته احسن وداع ، فودعها بمثله ، وانصرف كل منهما في سبيله وكل منهما يمشي خطوة ثم يلتفت الى صاحبه .

فلما تواريا نهض حسن من بين الاعشاب مذهولا وقال للرجل : «لقد رأيت منظرا طالما تاقت نفسي لمشاهدته ، انه منظر يخجل منه كل

ضعيف النفس دنيء الطبع . ان العفة يا اخا العرب خير ما في الفضائل» .

فقال الشيخ وهو ينقر بعصاه على عباءته لنفض التراب عنها : «كيف لا وقد سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول قال رسول الله ـ صلعم ـ (من عشق فعف فمات فهو شهيد) . وقال ايضا : (عفوا تعف نساءكم)» .

فقال حسن : «صدق رسول الله ، وان بني عذرة كلهم لشهداء فقد بلغني مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ولكنني لم أصدق حتى رأيت ذلك رأي العين» .

ثم انتبه حسن لما هو فيه من امر جرح سليمان وضياع الجمل فقال للراعي : «اين الجمل يا اخا العرب فقد وعدتني باحضاره» .

قال : «امكث هنا حتى آتيك به» . قال ذلك وانحدر في الوادي حتى توارى عن النظر ، ولكن صوت الاحجار المتدحرجة تحت قدميه ما زال مسموعا ، ثم ساد السكون فجلس حسن تحت الشجرة ولبث ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان .

ولما خلا حسن الى نفسه تحت الشجرة جالت به هواجسه في عالم الخيال فانتقل ذهنه مما شاهده في ذلك المساء الى سمية وحاله معها ، ثم الى خادمه عبدالله وتأخره ، ثم الى سليمان وأبيه ، ثم عاد الى الجمل الهارب بكتاب خالد فرأى انه اهمل البحث عنه بتربصه هناك لمشاهدة لقاء ذينك الحبيبين . ولكنه اعتذر بأنه انما فعل ذلك مرغما ، فلو انه لم يطع الشيخ الراعي وظل في مسيره لما وجد الى جمله سبيلا لانه يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها .

وفيما هو كذلك وظلام المساء لا يريه على الآكام والاودية المحيطة به الا ظلالا ضعيفة ، سمع خربشة بين الاعشاب فوقف بغتة ثم فطن الى انها خربشة ضب سارح فلم يلتفت اليه ، ولكنه ظل واقفا وقد تزايد قلقه لابطاء الراعي وهم باللحاق به ولكنه خاف ان يختلفا في الطريق .

ولما طال انتظاره مل الوقوف فمشى على غير هدي ، واتخذ علامـة علقها على الشجرة لتهديه الى المكان من بعيد • وجعل مسيره في جهة الوادي الذي سار اليه الراعي يطلب الجمل وهو يتوقع ان يلتقي بالشيخ وهو عائد او يسمع جعجعة الجمل عن بعد او يعود الى مكانه • ولذلك فانه كان كلما مشى بضع خطوات التفت الى الشجرة مخافة ان تتوارى عن بصره وراء بعض التلال ، فمشى مسافة طويلة لم يسمع في اثنائهـا صوتا ولا رأى شبحا ، ثم نسي امر الشجرة فانحدر في الوادي وهو يتلمس الارض ولا يرى الطريق فكانت رجله تزلق طورا ، وترتطم اصابعه طورا من فوق النعال بأصول الاعشاب الباقية بعد المرعى ، وهو بين ان يحملق نحو الوادي بعينيه و يصيخ بأذنيه او يتفرس في الطريق بين يديه • فلما طال به المسير ولم يهتد الى شيء ندم لنزوله من مكانه •

وبعد مسير طويل على تلك الصورة سمع نباح كلاب في الوادي فالتفت الى جهة الصوت فرأى نورا ضئيلا فتأثر الصوت فاذا به يتعاظم كلما اقترب من النور ، فعلم انه على مقربة من بعض القرى الكثيرة في وادي القرى منتشرة في بطنه وعلى جانبيه • ولكنه استغرب النباح في الليل لعلمه ان ذلك لا يكون الا اذا طرق الحي غاز او لص • فوقـف ليستريح ويفكر في امره فالتفت الى ما يحيط به فاذا هو في واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش ولكنه استأنس بتلك النار علـى بعدها فمشى نحوها فرأى شبحا يعدو صاعدا من الوادي كأنه غزال نافر فلما اقترب منه علم انه الراعي واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه : «ما وراءك يا اخا العرب ؟• اين الجمل ؟»

قال : «ما الذي جاء بك الى هنا ؟»

قال : «جاء بي قلقي على الجمل ورغبتي في التعجيل بالاياب» •

قال : «وما الفائدة من انحدارك في هذا الوادي والليل دامس وأنت

لا تعرف الطريق وقد تعرضت للخطر بطرقك هذا الحي ليلا اذ نبحتك الكلاب ، لانها لم تألفك من قبل كما ألفتني لكثرة ترددي الى هــذه القــرى » .

فقطع حسن كلامه قائلا : «مالنا ولهذا ؟ قل لي اين الجمل ؟»

قال : «لم أعثر عليه في المكان الذي كنت أظنه فيه ، والظاهر انه قصد ماء اخر وقد كنت ذاهبا للبحث عنه في العقيق بجوار المدينة» .

فاستعاذ حسن بالله وقال : «يا لله ! ما هذه المصيبة ؟»

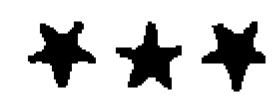
فابتدره الراعي قائلا : «لا تخف يا سيدي فلن يضيع الجمل ولو غاب عنك طويلا فان اهل البادية يرسلون ابلهم للمرعى وقد لا يرونها اياما ثم تعود بنفسها او يعود بها غلام او فتاة . وقد كان ذلك شأننا في زمن الجاهلية فكيف ونحن الان في ظل الاسلام ، وأما انتم معاشر اهل المدن فاذا غفل الرجل منكم عن عمامته خاف اختطافها» .

فمل حسن من جدال الراعي فقال له : «مالنا ولهذا الجدال ؟ اين الجمل وكيف السبيل اليه ؟»

فقال : «يغلب علي ظني انه سار الى العقيق وهو ماء يخرج اهــل المدينة اليه فيقيمون عنده ساعات او اياما في خيام يحملونها معهم ، وربما ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم» .

فقطع حسن كلامه قائلا : «ثم ماذا ؟»

قال : «فالعقيق مجتمع اهل الرخاء من اليثربيين وهو يذكرني ايام الشباب ، فقد كان العقيق موعدنا لنلقى نساء المدينة . لا تغضب يــا سيدي اننا سائرون الان جنوبا نحو المدينة والعقيق في طريقنا اليها» .



استغرب حسن بعده عن المدينة شمال المكان الذي ترك سليمان وأباه فيه ، فقال للشيخ : «هلم بنا» • فمشيا والراعي على شيخوخته أسرع عدوا منه لانه تعود المشي في الوعر • اما حسن فلما صعد من الوادي والتفت الى السماء وتبين الكواكب فعلم انه في أواخر الليل بغت لضياع الوقت وهو لم يأت عملا بعد ، وتشاءم مما تأتى له في ذلك المساء وهو انما أمسك عن رؤية حبيبته رغبة في المسير الى مكة على عجل ، فكيف يعود الى الوراء بعد قضاء الليل في المشي والقلق ؟

قضى مدة سائرا في أثر الراعي ، على ارض رملية ، بعضها رطب بما يرشح فيه من الماء ، وفكره تائه حتى رأى نجم الصبح فعلم ان الفجر دنا ثم رأى الراعي وقف وأشار اليه قائلا : «ألا ترى الماء امامنا عن بعد؟»

قال : «اني ارى سطحا لامعا وكأني ارى فيه سماء اخرى من انعكاس انوار الكواكب» •

ولما رأى الماء شعر بانشراح الصدر واستبشر ببلوغ أمنيته وجعـــل يتفرس في ضفاف ذلك الماء لعله يرى اناسا او جمالا فلم ير شيئا • ثم سمع الراعي يقول : «ها اننا على ضفاف العقيق ولا نرى فيه احدا سوى آثار اناس كانوا هنا ورحلوا في أوائل الليل فاقعد على هذا الحجر واغسل رجليك في هذا الماء واسترح ريثما آتيك بالخبر» •

قال : «دعني أسر معك» •

قال : «لا • امكث هنا واغسل رجليك وسأعود اليك على عجـــل فاني لا أتحقق الامر حتى اطوف حول هذا الماء • ولا حاجة الى مسيرك معي فقد تعبت ، وان كنت في عنفوان الشباب لان اهل المدن لا يقوون على المسير مثلنا» • قال ذلك والتحف العباءة وسار وحسن يتبعه بنظره حتى توارى ، وما لبث ان سمع الشيخ يناديه فنهض وأسرع حتى أقبل عليه فاذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الاغصان وقد قبض بيده على

شيء وهو يقول : «متى خرجت من المدينة ؟»

قال حسن : «نحو الغروب» •

قال : «هل اطعمت الجمل قبل خروجك ؟»

فتحير حسن بماذا يجيب لانه وكل أمر الجمل الى خادمه فقال : «اظن الخادم أطعمه» •

فبسط الشيخ يده فاذا فيها أبعار فقال : «ان هذه الابعار لجمل من جمال المدينة جاء وحده الى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع» •

فاستغرب حسن بته في الامر وقال : «وكيف عرفت ذلك ؟»

قال : «عرفته من هذه الاوساخ ، فان فيها النوى وهو علف جمال المدينة لان النوى كثير عندهم • ويظهر من قلة جفافها انها وضعت من عهد قريب • ولم أر واضعها فيكون قد عاد» •

فوجد حسن كلامه معقولا ولكنه لم يقتنع بأن الجمل الذي يشير اليه هو جمله ، اذ لا يبعد ان يكون جمل اناس آخرين فقال له : «وما الذي انبأك انه جملي وليس من جمال الناس مروا بهذا المكان الليلة ؟»

فضحك الشيخ وقال : «لو كانت أبعار الجمال كثيرة لرأيناها اصنافا وألوانا • فهي اذن لجمل واحد ، وهذا الجمل لم يقم هنا الا قليلا • وأي جمل من جمال اهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل الا ان يكون فارا مثل جملك ؟»

فأعجب حسن ببداهة اهل البادية وتذكر اشتهارهم بقيافة الاثر ولكنه ما زال مشككا في ان يكون ذلك الجمل جمله فقال : «لا ارى ما يمنع بعض اهل المدينة من الخروج الليلة على جمله يلتمس بعض الاحياء فمر بالعقيق ليشرب او يسقي جمله او يستريح» •

قال : «قد يكون ذلك ، ولكن حال المكان ، لا يدل عليه ، لاني لا ارى على الارض آثار آدميين» •

فقطع حسن كلامه وقال وهو يظن انه أفحمه : «الظاهر ان الراكب لم ينزل عن جمله وانما وقف ريثما شرب ثم ساقه» •

فقال : «لا ، لان الجمل لا يستطيع الوقوف تحت هذه الاغصان المدلاة وعليه راكب لانها تمس ظهر الجمل بانبساطها وانحنائها وليس عليه احد» •

قال حسن : «ربما برك الجمل ؟»

قال : «لو فعل لشاهدنا آثار ركبه ، فما الجمل الذي مر من هنا الا جملك ، واذا صبرت هنيهة أريتك الطريق الذي سار فيه فيهون عليك طلبه » •

قال : «وكيف ذلك ؟» • وكان الفجر قد لاح ، وتبينت الارض جيدا فنظر حسن الى ما حوله وراجع ما قاله الشيخ فترجح لديه قوله ، وتحقق ما كان يسمعه عن مهارة اهل البادية في قيافة الاثر ، فلبث ليرى ما يفعله الشيخ فاذا هو قد مشى خطوات قليلة ثم قال : «انظر الى هذه الخطى فانها آثار خفاف جمل يعدو عدوا سريعا ، يدلك على ذلك عمقها وعدم نظامها ، ويظهر ان الجمل عاد الى المدينة» •

فالتفت حسن الى يساره وقد بان الصبح فاذا هو مشرف على المدينة عن بعد ولا بد له من الذهاب اليها • فتذكر حبيبته فيها ولكنه عاد الى التفكير في امر الجمل فقال : «اني لاستغرب ما رأيته اليوم من جملي ولم يكن عهدي به مثل ذلك من قبل» •

قال : «للجمال طبائع غريبة وقد يكون الجمل هادئا ساكنا فلا تراه الا وقد دلق لسانه وأرغى وأزبد وأركن الى الفرار كأنه أصيب بجنة ، وقد يصيبه ذلك على أثر خوف ورعب او جوع • ومهما يكن من الامر فأطلب جملك في المدينة • وأما انا فاني أستأذنك في العودة الى ماشيتي مخافة ان يكون قد اصاب ابلى ما اصاب جملك وهي وحدها هناك ما عدا

غلاما وأمه تركتهما لحراستها» •

فأثنى حسن على الشيخ وودعه وسار قاصدا المدينة وقد أنهكه التعب والقلق وأحس بالجوع وتشاءم مما اتفق له فعول على ان يسير توا الى المسجد للصلاة والتبرك ثم يبحث بعد ذلك عن الجمل ، ثم تذكر حديث سليمان وأبيه وما فيه من الاشارة الى الفتك به فأحب استطلاع سر ابي سليمان قبل دخوله المدينة لئلا يكون فيه ما يمنعه من دخولها ، فسار يلتمس المكان الذي تركهما فيه بالامس فاستشرف أكمة قرب سور المدينة فرأى قرب المستنقعات شيئا كالجمل البارك ثم ما لبث ان سمع جعجعه فأسرع حتى دنا من الجمل فاذا هو جمله بعينه وقد وقع عند حافة المستنقع وقد كسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ولكنه رآه عاريا لا رحل على ظهره ولا خطام في رأسه فشك في ان يكون جمله وظنه جملا اخر ، فتفرس فيه جيدا فلم ير فرقا بينه وبين جمله ، ثم تذكر ميسمه وهو العلامة التي يسمون بها الجمال بسمات القبائل فنظر في الميسم فاذا هو الميسم الذي يعرفه فتحقق انه جمله وانه لم يعد يقوى على المسير فلم يهمه ضياعه وود لو ان الراعي معه ليهبه الجمل فينحره لاهله • ثم عاد الى التفكير في الرحل وما كان عليه من امتعته وبينها كتاب خالد بن يزيد، فزاد تشاؤمه من تلك السفرة وقال في نفسه : «لم يعد لي وطر في المدينة الان» • ووقف برهة ثم مشى الى الجهة التي ترك فيها سليمان مطروحا وبجانبه ابوه فرأى المكان خاليا الا من آثار الدم على صخر منبسط ، ورأى بجانب الصخر ثوبا معفرا فرفعه فاذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعا قطعا فاستغرب تمزقه ، ثم طرح بقاياه وفكر في امر سليمان والكتاب فقال في نفسه : «لعل ابا سليمان عثر على الجمل وهو سائر الى المدينة فلما رآه معطلا حمل رحله معه على نية ان يدفعه الى عند المتقي» • فارتاح حسن الى هذه الفكرة وهدأ اضطرابه وترجح لديه ان

ابا سليمان حمل ابنه الى منزله في المدينة لمداواته ، فعول على الذهاب اليـه .

وفيما هو سائر الى المدينة رأى غبارا يتطاير في عرض الافق مما يلي طريق مكة ، فوقف ينتظر ما يكون فاذا بثلاثة من الابل عليها ثلاثة رجال قد تلثموا وساقوا الابل سوقا عنيفا ، ثم سمع قرقعة اللجم فعلم انها ابل البريد وكان لدواب البريد قعقعة خاصة كأن أرسانها من سلاسل الحديد، او لعلهم كانوا يعلقون في أعناقها جلاجل او نحوها ، فمكث هنيهة ريثما مر البريد فعلم من لباس الرجال وهيئة الركب انهم من العراق فترجح عنده انه بريد الحجاج بن يوسف الى عامل المدينة .

- ٨ -

حسن وسليمان وابوه

سار حسن في أثر البريد قاصدا بيت سليمان من اقرب الطرق فلما وصل اليه سأل عن سليمان فعلم انه مريض فتحقق انه هناك فاستـــأذن وأقبل على حجرة رأى فيها سليمان راقدا وأبوه الى جانبه فخلع نعليـه بالباب ودخل فوقف له ابو سليمان مرحبا به ، وأراد سليمان النهوض فأمسكه وأجلسه وجلس على طرف الفراش بجانبه وجعل يسأله عن حاله وسليمان يحمد الله على انه أحسن كثيرا ، ويعزو الفضل في شفائه الى نجدته اياه . فقال حسن : «ما أظن المصيبة جاءتك الا بسببي» .

فقال سليمان : «أشكر الله لانه نجاك من الخطر» .

فتقدم ابو سليمان والدمع ملء عينيه وقبل حسنا وقال له : «اغفر زلتي يا بني ؛ فان الله هدني بالقصاص حتى خفت فقد ابني ووحيدي، وأشكره على السلامة ولانه أكسبني ابنا اخر» •

فنظر حسن الى ذلك الكهل فاذا هو على ما وصفناه من طول القامه ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة ، ولكنه رأى في وجهه دلائل السويداء وانقباض النفس فاذا ابتسم فكأنما يبتسم تكلفا ، وذا ترك ساعة او ساعات ظل صامتا لا يفوه بكلمة كأنه يفكر في مصاب محدق به•

ثم سألاه عن سبب غيابه ، فقص حسن عليهما الحديث مختصرا ، وكان يتكلم وأبو سليمان يصغي اليه وهو مثبت بصره فيه وكأنه لم يعره كل انتباهه • فلما جاء على اخر الحديث وذكر لقاء الجمل وضياع الرحل قال: «فلما رأيت جملي بلا رحل على مقربة من المكان الذي كنا فيه ظننا انكم عثرتم على الجمل ورأيتموه معطلا فحملتم رحله معكم لتحفظوه لـــي عندكم » •

قال ابو سليمان : «كلا يا ولدي فاننا عدنا ليلا ، ولم نلتفت يمنة ولا يسرة لانشغالنا بجرح اخيك سليمان ، وأنت هل مررت بالمكان الـــذي كنا فيه ؟ »

قال : «نعم وصلت اليه فرأيت أثر الدم ، ووجدت القباء ممزقا وعليه جلط الدم فعجبت لتمزيقه» •

فقال الرجل : «لا تعجب يا ولدي لتمزيقه لانه مزق قلبي فانتقمت منه فاعذرني » •

فاستغرب حسن ذلك وقال له : «بالله ألا قصصت علي خبر هــذا القبـــاء ؟ »

فقال له : «اعفني من خبره واقنع بما قلته لك ولو تلميحا» •

قال : «وماذا قلت ؟»

قال : «ألم اقل ان هذا القباء هو الذي مزق قلبي لانه كان دليلي الى الفريسة المطلوبة فاذا هي ولدي وفلذة كبدي» •

ففطن حسن لأمور كثيرة كانت موضع شكه ، وتذكر انه ليس من يعلم بوجود ذلك القباء معه غير عرفجة لانه اخذه من عنده ولم يلبسه قط ، فاحتاطت به الشكوك وتناوبته الهواجس ، وظل صامتا برهة لا يتكلم ثم قال : «ألا تقول لي من الذي أغراك بقتلي ؟• فاني اخشى ان اتهم اناسا ابرياء» •

قال : «امرني بذلك رجل كبير في هذه المدينة . وهو صاحب السلطان الاقوى فيها» •

ففهم حسن انه يشير الى عامل المدينة طارق بن عمرو ، وكان يعلم بما بين طارق وعرفجة من الصداقة • فترجح لديه ان لعرفجة يدا في هذه المكيدة ، لكنه اسرها في نفسه واعتصم بالصبر الى ان يتم مهمته بمكة •

وأراد سليمان ان يذهب الانقباض عن صديقه فقال لابيه : «كيف رأيت هذا الصديق يا ابي ؟»

فتنهد ابوه وحاول الابتسام وقال : «لم اكن أشك فيما قلته لي . ولكن سوء حظي ساقني الى ما ارتكبته ولكني أحمد الله على خلاصنا من هذا الخطر» • ثم التفت الى حسن وقال : اني أعتذر اليك من تعمدي قتلك على غير معرفة بك ، ولا أظنني دفعت الى ارتكاب الجريمة الا بما جنيته من الذنب برجوعي عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلما» • قال ذلك وشرق بريقه فسكت برهة وحسن ينظر اليه ويعجب • ثم عاد ابو سليمان الى الكلام فقال : «كنت من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن الحسين بن علي ، حتى قتل ظلما في سهل كربلاء • ولكنني لم اثبت على توبتي فانتظمت في خدمة الذين قتلوه ، ولا ريب ان عملي لم يرض الحق سبحانه وتعالى ، وعلى ان أكفر عن ذلك بتكريس ما بقي من حياتي لنصرة

اعدائهم ، وقد علمت انك سائر الى مكة فهل تستصحبني ؟» والا فاني هائم على وجهي في هذه الصحراء» .

فقال حسن : «اذا رافقتني فاني آنس بك وأتخـــذك ابا لي لان سليمان اخي ، ولكن ارى ان ...» . وأسكته الحياء .

فقال ابو سليمان : «تكلم يا بني ولا تخف فاني بمنزلة ابيك ، بل انا خادم لك ولا أستنكف من امر أجريه في خدمتك . قل ما بدا لك» .

قال حسن : «اذا كنت ترى ان تتفضل علي وتعاملني معاملة الاب لابنه فان لي عندك طلبا أستحيي ان أكلفك به» .

قال : «لا تستح يا بني . قل» .

قال : «احب فتاة في هذه المدينة ، وقد خطبتها وأنا مضطر للسفر قبل العقد عليها ، ولا يخفى عليك قلب مثلي في هذه الحال» .

قال : «نعم . ماذا تريد مني ؟ هل تريد ان اوقف نفسي لخدمتها ؟»

قال : «كلا فانها في بيت ابيها ولكنني قليل الثقة بمن حولها» .

قال : «من هي الفتاة ومن هو ابوها ؟»

فوجم حسن برهة ثم قال : «اذا لم يكن بد من معرفتك اسمها ــ ولا ارى بدا من ذلك ــ فأخبرك انها سمية ابنة عرفجة الثقفي» .

فلم يتم حسن قوله حتى بهت ابو سليمان وازداد لونه امتقاعا وأطرق وصارت لحيته ترقص في صدره ، وكان حسن يلاحظه وقد ادرك ما جال في خاطره . وجعل ابو سليمان يهم بالكلام ثم يمسك لانه كان مطلعا على تردد عرفجة على مجلس طارق ، وعرفجة مشهور في المدينة بخياناتـــه وسوء نيته .

اما حسن فلم يمهله ريثما يتكلم فابتدره قائلا : «لا أكلفك اطلاعي على سر ، فقد فهمته وهذا يكفي . اما الفتاة فخطيبتي ولا شيء يمكن ان يثنيها عني او يثنيني عنها . وانما ارجو ان تبحث عنها وتعرف احوالها

وهذه هي وصيتي اليك فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما أتمناه» •

فقال ابو سليمان : «انا عند ما تريد ، وسأولي امرها اهتمامي ، كما أهتم بولدي هذا • كن في سكينة وراحة بال» •

فلما فرغ حسن من امر سمية عاد الى التفكير في الكتاب والخادم فتبادر الى ذهنه انه قد يلقى خادمه في المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب وعزم اذا لم ير الخادم فانه يكتفي بابلاغ عبد الله بن الزبير ففقد الكتاب ويرى ما يكون ، فنهض مودعا • فقال له ابو سليمان : «اذا لم يكن بد من سفرك فاجعله من غير الطريق الذي كنا فيه امس • اخرج من باب اخر وأنا ارسل معك خادمي يهديك الى الطريق ويسوق جملك بدلا من خادمك ، وسأقدم لك جملا احسن من جملك فأنعم بالا وكن على ثقة اننا انا وسليمان في خدمتك حتى تبلغ مرامك» • ثم صاح : «يـــا بلال» • فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح فقال له : «هيىء الجمل الاشرم . واملأ القرب ماء وأعد زاد السفر» • فذهب بلال ثم عاد وقد أعد كل شيء فقال ابو سليمان لحسن : «اذا كان لا بد من سفرك فسر على عجل ولا تقف ولا تسترح حتى تبعد عن المدينة» •

فقطع حسن كلامه وقال : «فاتني ان اخبركم عن ابل البريد ، فقد رأيت ثلاثة منها دخلت المدينة في هذا الصباح وأظنها قادمة من مكة» •

قال ابو سليمان : «لا يبعد انهم جاءوا لطلب نجدة او مدد ، او بخبر فتح او شيء من ذلك ، اما انا فاني سأنتقل من هذا البيت الى ســواه وأختفي يومين او ثلاثة حتى لا يراني احد لئلا يطلبونني للسير معهم» •

ثم ودعهم حسن وركب الجمل وسار بلال في ركابه ، وبود حسن لو يعيد النظر الى سمية قبل سفره ولكنه اراد العجلة وخاف الوقوع فيما هو شر من ذلك •

- ٩ -

سمية في منزل سكينة

فلنترك حسنا قاصدا الى مكة مع بلال ولنعد الى المدينة لنرى ما كان من امر سمية بعد سفره ، فقد تركناها عائدة الى بيت سكينة ومعهـــا عبد الله خادم حسن يسير في خدمتها . فلما وصلا الى باب البيت قالت له سمية : «قد وصلت الى مأمني فانصرف» . وكانت قد استأنست به لانه ثقفي مثل ابيها فلما ودعها قالت له : «قد علمت يا عبد الله منزلة حسن مني فارعه وكن صادقا في خدمته» .

فقال : «اني عبدك وعبده يا مولاني ، واني افديكما بروحي» .

فاطمأنت سمية وأشارت اليه برأسها اشارة الوداع ، فتحول مسرعا يلتمس باب المدينة ليلحق بسيده .

اما سمية فانها اقبلت على بيت سكينة حوالي العشاء ، فتظاهـــرت بأنها كانت في بعض جوانب المنزل ، وسارت الى مجلسها ، فرحبت بها وسألتها عن سبب تخلفها . فقالت : «كنت مشتغلة في بعض الغرف هنا» . فقالت لها ليلى : «قد بحثنا عنك فلم نجدك ، وأخشى ان يكون أبـــاك استبطأ عودتك» .

قالت : «ربما استبطأني ، ولكنني هنا في مأمن من غضبه : ومتى استبطأني بعث في اثري» .

فلما سمعتها سكينة تقول ذلك امسكت بيدها وقربتها اليها حتـــى اقعدتها معها على الوسادة وضمتها وقبلتها وقالت لها : «اهلا بك يا سمية انك من أعز الاحباء» . وكانت سكينة تستلطف سمية وتحبها .

فقالت سمية : «لا حرمنا الله من محبتك يا بنت سبط الرسول ، ان

اقامتك بهذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعا» •

ثم جاء الخدم يدعون سكينة الى المائدة ، وقد مدت الاسمطة فقمن للعشاء • وأما سمية فعادت الى هواجسها واستغربت سكوت ابيها عنها الى ذلك الحين • ثم خطر لها انه غائب عن البيت ويحسبها فيه • فرأت ان تستأذن سكينة في العودة الى البيت فأذنت لها ، وبعثت معها بعض الجواري ليوصلنها اليه •

ولما وصلت سمية الى باب البيت قرعته بطريقة يعرفها الخدم فأسرعت جارية الى فتحه واستقبلت سيدتها وهي تقول : «لقد ابطأت علينا الليلة وشغلت بالنا» •

وكانت هذه الجارية حبشية الاصل اسمها امة الله ، تحب سميـــة كثيرا ، كما ان سمية كانت تستأنس بها وتكرمها فلما ابطأ قدومها في تلك الليلة شغل بال الجارية ولم تستطع رقادا ، حتى طرقت سمية البـــاب فنتحت لها ، وترامت عليها وقبلتها ورحبت بها . فقالت لها سمية : «ألم يأت ابي ؟ »

قالت : «جاء نحو الغروب ودخل الحجرة المعاومة وأقفل بابها ، وما زال هناك ولا يدري احد ماذا يعمل لانه أنار السراج وحمله بيده الى الغرفة على عادته» •

فدخلت سمية غرفتها وخففت ثيابها لتوهم أباها اذا رآها انها فـــي البيت من مدة طويلة • ولم تستغرب مكثه في تلك الحجرة طويلا لانه كثيرا ما كان يفعل ذلك وأهل البيت يستغربون تكتمه ولا يعرفون ما في تلك المحفة المخزونة هناك • ولولا خوفهم من غضبه واستبداده لتوصلوا الى فتحها ولكنهم كانوا يخافون سطوته وشدة وطأته •

ثم رأت سمية ان تلجأ الى فراشها قبل خروج ابيها من مخبئه مخافة ان يراها ويسألها عن سبب غيابها وربما اساء الظن بها ، فجلست علـــى

فراشها ، ودعت أمة الله لتمشط لها شعرها قبل النوم فجثت الجاريـــة خلفها وجعلت تسرح الشعر وتمشطه ووجه سمية الى باحة الدار ، وكانت سمية ترتاح الى مكاشفة أمة الله ببعض شؤونها الخاصة فقالت لها : «هل شغل بالكم غيابي الليلة ؟»

قالت : «نعم يا مولاتي ، لانك قلما تطيلين الغياب ، ولاسيما ان عبد الله جاء للسؤال عنك» .

قالت : «وأي عبد الله ؟»

قالت : «الرجل الذي جاء صباح اليوم» .

فعلمت سمية انه عبد الله خادم حسن ، فبغتت لعلمها انه فارقها ليلحق بسيده على عجل فأدارت وجهها الى الجارية وقالت لها : «متى جاء ؟»

قالت : «جاء قبل وصولك بقليل» .

قالت : «وهل جاء وحده ؟»

قالت : «لم أر معه احدا» .

ففكرت سمية في الامر ، فوجدت انه جاء بعد ان فارقها بساعة او ساعتين ، فتبادر الى ذهنها انه لم يأت الا لغرض اراده حسن منها ، او لشر اصابه ، فتوالت عليها الهواجس واستغرقت في التفكير ، وعادت الجارية الى تمشيطها وهي في غفلة عن كل ذلك .

وبينما سمية غارقة في لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى باحة الدار فرأت فيها نورا يتحرك وسمعت صوت باب يقفل فعلمت ان أباها خرج من الحجرة السرية . ثم اختفى النور وسمعت تصفيقا فعلمت ان اباها يدعو الخادم فخافت ان يكون عازما على استدعائها ، فتظاهرت بالميل الـــى الرقاد وقالت للجارية : «لم يعد لي طاقة بالجلوس فقد اخذ مني النعاس مأخذا عظيما فاتركيني ، واذا سأل عني ابي فأخبريه بأني نائمة منذ حين» . ففهمت الجارية غرضها فضحكت وقالت لها : «لا تخافي» . وتمددت

سمية في فراشها وتظاهرت بأنها استغرقت في النوم ، وبعد قليل سمعت الخادم يسأل الجارية عنها ، وسمعتها تذكر له انها نائمة فانصرف .

وأصبحت في اليوم التالي وهي ما زالت في حاجة الى النوم ، فظلت في الفراش حتى الضحى ، ثم جاءتها جاريتها بماء للغسل وبطعام ، فسألتها عن ابيها فقالت : «أفقت قبيل الصبح على قرع الباب ، ثم علمت ان بعض الناس جاءوا يطلبون سيدي على عجل ، فخرج وهو لم يتم لف عمامته » .

فأطرقت سمية وفكرت في الامر ، فحدثتها نفسها بأن لهذه الدعوة علاقة بخطيبها . ولما تذكرت سوء قصد ابيها وما سمعته من قدوم عبد الله اليها امس ، تبادر الى ذهنها ان شرا عظيما اصاب حسنا — وذلك شأن المحب البعيد عن حبيبه فانه لا يكاد يطمئن قلبه عليه واذا سمع احدا يذكره تبادر الى ذهنه انه فيخطر وقد يفسر الاشارات والرموز والحوادث بما يؤكد ذلك — فكيف بسمية وهي تعلم ما ينويه ابوها لخطيبها ؟. فلم تتناول من الطعام الا قليلا ، ولبثت جالسة تفكر في سبب خروج ابيها وتخاف ان يكون فيه ما يسوء خطيبها .

★ ★ ★

قضت سمية اكثر النهار في قلق واضطراب ، تارة تمشي في الدار ، وآونة تخرج الى البستان ، وهي تتوقع ان ترى عبد الله آتيا او تسمع خبرا . ثم سمعت أذان العصر فالتفتت الى مصدره جهة باب البيت فرأت أباها داخلا فخفق قلبها ولبثت تنتظر ما يبدو منه . فدنا منها وابتسم وناداها اليه فتبعته وهي ما زالت في اضطراب ، ولكنها تظاهرت بارتياح حتى أقبل على غرفة الجلوس فوقف بالباب ينزع نعاله وقال : « كيف قضيت يومك امس عند سكينة ؟»

قالت وهي تتبعه الى وسادته التي تعود الجلوس عليها : «قضيتــه مسرورة ، وعدت وأنت في الحجرة فنمت ونهضت في هذا الصباح ، فعلمت انك خرجت مبكرا فشغل بالي» .

فقطع كلامها ودعاها الى الجلوس بجانبه وعلى وجهه ابتسامة متكلفة فلما جلست قربها منه وضمها وقبلها فأحست ببرد شفتيه واقشعر بدنها لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها لعظم ما كانت فيه من التهيج العصبي الناتج عن القلق ، وقبلت يده فاذا هي أبرد من شفتيه . وتوقعت ان تسمع منه شيئا بعد هذا التملق فاذا هو يقول لها : «أظنك ملت طول المكث في هذه المدينة ؟»

قالت : «اذا كنت انت في خير وسعادة فكل حال ترضيني» .

فأعجبه قولها وألقى يده على كتفها وجعل يلاعب شعرها بين انامله ثم قال : «بورك فيك من ابنة مطيعة ، ان مثل هذا القول يجبر قلب الوالد ، هذا هو البر الذي كنت ارجوه منك . فالحمد لله الذي أذهب ما كان يخامر ذهنك ، وعدت الى ما هو جدير بأمثالك من النزول على حكم آبائهن» .

فأحست سمية من هذا التعريض كأن صخرة وقعت على رأسها ، وأسرع خفقان قلبها . ولو انتبه ابوها وهي مستلقية على صدره لسمع دقات قلبها ولادرك اضطرابها . او لعله ادرك وتجاهل خبثا ورياء . ثم قال ولم يترك لها مجالا للتفكير : «سنذهب غدا لترويح النفس فــــي العقيق فانه منتزه جميل ، فهل يسرك ان نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضي يومنا هناك ؟»

فعجبت سمية من عناية ابيها بأمر نزهتها والترويح عنها ، ولاسيما انه كان لا يخاطبها بالحسنى او يلاطفها الا اذا كان له مأرب من وراء ذلك . فأصبحت لا تسمع منه مثل هذه الملاطفة الا توقعت شرا ، ولكنها لم تكن

تسنطيع غير مداراته فقالت : «اشكرك يا ابي على هذه العناية» .

فقطع كلامها وقال : «لا شكر على واجب ، فاني ابوك ، وسأخبر الخدم ليعدوا لنا خياما وطعاما ويسيروا امامنا الى العقيق قبل الفجر ، ثم نركب انا وأنت عند طلوع الشمس وتقضي يومنا في العقيق ، فقد مللنا المدينة وأسواقها ونخيلها» . قال ذلك بنغمة الاب الحنون ، فلم يسع سمية الا مجاراته ، على انها كانت أشد حاجة منه الى النزهة ، وخطر لها انها ربما استطاعت في اثناء مرورها بالشوارع والطرق ان ترى عبد الله او تسمع خبرا عنه او عن حسن . فأثنت على ابيها وقبلت يده ، فقبلها ثم صفق فجاء عبد اسود كان قد فوض اليه ادارة شؤون منزله وجعله رقيبا على اهل بيته . وكان ذلك العبد قبيح الخلقة عظيم الشفة السفلى أفطس الانف يكاد الشرر يتطاير من عينيه ، ويندر ان يبتسم فاذا فعل فانه يكشر عن أنيابه . فلما وقف بين يديه قال له : «يا قنبر ، اننا عازمون على الخروج في صباح الغد الى العقيق فأعد ما نحتاج اليه من الخيام والاطعمة ، وهيىء الهودج لسمية ، ثم اسبقنا مع الخدم عند الفجر ، وسنلحق بكم بعد ذلك» .

قال : «الامر لمولاي» . وخرج .

ثم نهض عرفجة ودخل الحجرة السرية ، واتجهت سمية الى غرفتها وطلبت من جاريتها امة الله ان تتهيأ لمرافقتها في صباح الغد .

***

باتت سمية ليلتها والاحلام المزعجة تنتابها ، وتريها حسنا في خطر ، ورأت مناظر مخيفة اخرى ، فنهضت وهي في اضطراب شديد . فاذا ابوها قد خرج وتهيأ للرحيل ، وجاءتها الجارية فمشطتها وألبستها ثيابها . ثم ركبت معها الهودج ، وركب ابوها بغلة ، وساروا وقد امسك بخطام

الجمل احد الخدم .

وجعلت سمية تطل من خلال الستور على المارة في الطرق وتتفرس فيهم ، فاستغربت امة الله ذلك منها لعلمها بأدبها وحشمتها . وزاد في استغرابها شدة ما لاحظت في وجهها من القلق . فلما خرجوا من باب المدينة بالغت سمية في التطلع نحو الطريق الذي يؤدي الى مكة لعلها ترى اثرا او تستطلع خبرا فرأت بجانب باب المدينة خياما ورايات وخيولا وجمالا ، وقد تفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود ، فذهلت ولم تفهم امر هذا المعسكر ، ولم تر بدا من ان تسأل أباها فأخرجت رأسها من بين الستور لتبحث عنه فاذا هو قد أركض بغلته نحو المعسكر فظنت انه ذهب لاستطلاع الخبر فأمرت الغلام ان يظل في مسيره فسار حتى بعدوا عن المعسكر وسمية تشرف على الطرق وتتطلع الى كل جهة والقلق باد في عينيها .

وفيما هي تتطلع سمعت جعجعة جمل يتألم فالتفتت فرأت جمل حسن الذي ذكرنا امره ولم تكن قد رأته الا في اثناء مقابلتها حسنا في المساء ، ولكن صورته انطبعت على ذهنها . فلما رأته خفق قلبها كأنها تنسمت منه رائحة الحبيب ، فأوقفت الهودج عنده ونظرت اليه فرجحت انه جمل حسن وجعلت تفكر في الامر ، فخيل اليها ان حسنا قتل وقد اخذ قاتلوه رحل الجمل وخطامه وتركوه . فلما تصورت ذلك تساقطت دموعها وخفق قلبها جزعا واشفاقا .

وكانت امة الله تلاحظ سيدتها ولكنها لم تجرؤ على مخاطبتها في هذا الشأن الا لما رأت دموعها تتساقط فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم: «ما بالك يا سيدتي تبكين لا اراك الله سوءا ؟»

فلما سمعت سمية سؤال الجارية اجهشت في البكاء حتى علا صوتها، فأمسكتها امة الله وقبلت يدها وقالت لها : «بالله كفي عن البكاء وأخبريني

ما سبب ذلك فلعلي أنفعك في شيء» •

فتنهدت سمية ومسحت دموعها بكمها ، ثم التفتت الى خارج الهودج فلم تجد أباها عاد ،ولا رأت احدا يسمعها ، فقصت على جاريتها الحديث مختصرا ، وأطلعتها على مكنون قلبها • فشاركتها الجارية البكاء ثم قالت لها : «انك لم تتحققي ان هذا الجمل جمل حسن ، وهبي انه جمله فليس معنى هذا انه أصيب بسوء ، ولا أحسب هذا الجمل الا لبعض اهل هذا المعسكر انكسر فتركوه ، ومهما يكن من شيء فليس هناك ما يدعو الى الاخذ بالظن والتوهم» •

فارتاحت سمية لهذا التعليل ، ولكنها تذكرت عبد الله ورجوعه الى منزلها في تلك الليلة فقالت : «ولكن ما سبب رجوع خادمه الينا ؟»

قالت الجارية : «قد يكون جاءك برسالة من حسن فلما لم يجدك عاد اليه بها وسافر معه، ولولا ذلك لرأيته امس • وقد مضى يوم ونحن الان في ضحى اليوم الثاني ولم نره» •

فقطعت كلامها وقالت : «أتظنينه اذا علم بسوء اصاب حسنا ، ينقل ذلك الخبر الي ؟» • قالت : «دعي عنك هذه الافكار وتوكلي على الله» •

وفيما هما في الحديث سمعتا وقع حوافر البغلة ، فعلمتا ان ابا سمية قد عاد ، وبعد قليل وصل الى محاذاة الهودج فنادى سمية فأطلت عليه فقال لها : «لعلي غبت عنك طويلا ؟»

قالت : «نعم ، وقد رأينا خياما وجمالا وخيولا فلم نفهم سبب وجودها » •

فأجابها وهو يحاول اصلاح الرسن في رأس البغلة : «ان هذا معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة ، وقد خرج برجاله وجنده قاصدا مكة» •

قالت : «ولماذا ؟»

قال : «جاء بريد الحجاج بن يوسف امس يستقدم طارقا ورجاله

مددا له في حصار مكة وعما قليل يسافرون» . قال ذلك وساق بغلته متظاهرا بأنها هي التي اسرعت من تلقاء نفسها ، فانقطع الحديث . وسرت سمية بانقطاعه لتعود الى التفكير في حسن لعلها تلتمس تعليلا يريح بالها. والمرء ميال الى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك . فبعضهم اذا وقع في مصيبة هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة فيجعل لنفسه مخرجا من سوء عواقبها ومنهم من يزيده قلقا ولكنه لا يلبث وان طال قلقه ان يتوصل الى حل يتوكأ عليه ريثما يرى ما يأتي به القدر .

وكانت الجارية قد رفعت أستار الهودج منذ الخروج من المدينة ، فظلت سمية تسرح نظرها فيما حولها من الهضاب والبطاح وبرك الماء وغابات النخيل ، وهي كأنها لا ترى شيئا لاستغراقها في عالم الخيال ، فلم تنتبه الا على رائحة الشواء ، فالتفتت فاذا هي على مقربة من ثلاث خيام: اثنتين قرب الماء وواحدة منفردة بظل نخلة كبيرة . فنظرت فرأت نفسها على غير ماء العقيق ، وكانت تعرفه فتفرست فيما حولها فاذا هي ما زالت على مقربة من المدينة وخيام المعسكر ظاهرة. وتفرست في الخيام فأدركت انها خيامهم ، فاستغربت ذلك ولكنها لم تعلق عليه اهمية اذ لم يكن لها رغبة في العقيق او غيره .

وجاء الخدم فأناخوا الهودج بقرب الخيمة المنفردة فنزلت سمية وجاريتها ودخلتا الخيمة ، ثم رأت سمية أباها واقفا مع عبده على انفراد، وكانت تكره هذا العبد كرها شديدا لغلظ طبعه وفظاعة خلقته ، فاستعاذت من شرهما بالله .

- ١٠ -

القتل او الزواج بالحجاج

عادت سمية الى هواجسها بعد ان دخلت الخيمة ، فأخذت تفكر في حسن وجمله ، وتصورت وقوع ما تخشاه عليه من القتل فازداد بلبالها • ثم خرجت امة الله لمساعدة بقية الخدم في اعداد الاطعمة وظلت سمية في الخيمة وحدها •

وفيما هي على تلك الحال سمعت سعال ابيها ، ثم رأته والعبد قنبر قادمين نحو خيمتها فاستعاذت بالله من شر ذلك القدوم ، ثم رأت العبد يبطىء بينما أسرع ابوها حتى وصل الى الخيمة فنهضت للقائه ، فقال لها: «كيف رأيت هذا النهار ؟ انه جميل أليس كذلك ؟»

فتظاهرت بالابتسام وقالت : «انه نهار جميل ، ولكنني سمعتك تقول اننا ذاهبون الى العقيق ، وأرانا ما زلنا بباب المدينة !»

قال : «ان العقيق بعيد فأحببت ان نستريح قليلا ثم نستأنف المسير الى العقيق • وما أريد الا ان تكوني مسرورة فرحة وألا اراك منقبضة النفس وقد تهيأت لك اسباب السرور وانك لتعلمين حبي لك ، وانـي انقطعت عن العالم لاجلك•• ولا أدخر جهدا في سبيل راحتك وسعادتك» •

فلما رأت مبالغته في التلطف خافت ما وراء ذلك وظلت ساكتة ، فعاد هو الى اتمام حديثه فقال : «ولقد سرني منك انصياعك الى مشورة ابيك في شأن ذلك الشاب ، ورجوعك الى ما هو جدير بأمثالك • ويسرني ايضا ان أبشرك بسعادة قد وفقك الله اليها ، ويندر ان تنالها فتاة من فتيات المدينة بل هن يغبطنك عليها» •

فازداد قلقها وأحست من وراء ذلك الكلام نذير سوء يزيد فـــي

اضطرابها ، فظلت ساكتة وقلبها يخفق ، ومالت الى استطلاع ما في نفس ابيها ولكنها خافت ان يكون في علمها بذلك ما يسوؤها ، فلبثت صامتة لا تدري ما تقول • وكان هو ينظر الى وجهها خلسة ، ويتشاغل بالعبث بلحيته • فتوقع ان يسمع منها استفهاما ، فلما بقيت صامتة دنا منها وهي مستندة الى عمود الخيمة ووقف امامها وأسند يده الى العمود وجعل يده الاخرى على كتفها • فاضطربت وازداد قلقها فلم تعد تصبر على السكوت ، ثم اذا هو يقول لها : «لماذا لم تسأليني عن تلك السعادة التي اعددتها لك ، ألا يسرك أن تعلمي بما يبذله ابوك في سبيلك ؟ انك ستصيرين عما قليل سيدة نساء هذا الجيش» • قال ذلك وأشار الى المعسكر •

فلما سمعت قوله علمت انه يعرض بخطبتها لاحد كبار رجال الجيش، فتحققت سوء ما أضمره لها بالامس وانها مقبلة على خطر شديد ، فارتبكت وحارت في امرها ولم تدر بماذا تجيب ، ولكن الاضطراب بدا على وجهها • ولو انه تفرس في قرطيها لرآهما يرتعشان ارتعاشا يحاكي خفقان قلبها ـ وما ارتعاشهما الا من رجع ذلك الخفقان ـ واحمرت وجنتاها فتشاغلت باصلاح دمالجها في معصميها والنظر اليها في حين انها لم تكن ترى شيئا لان الدمع غشي بصرها ثم تساقط كاللؤلؤ على معصميها • فلما رآها تبكي تحقق انها لا تزال عالقة القلب بحسن ، فأراد ان يقطع املها منه فقال لها : «ما بالك لا تجيبين ؟• ألم يعجبك ما دبرته لك من اسباب السعادة ؟ ام لم تفهمي مغزى كلامي ؟ انك ستكونين سيدة نساء هذا الجند وجند بني أمية المحاصرين مكة الان ، واذا أشكل عليك فهم مرادي فاعلمي انك ستزفين الى الحجاج بن يوسف كبير أمراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو ثقيف مثلنا ، وله ما لا أزيدك بيانا عنه من علو الشأن» •

فلما سمعت تصريحه لم تعد تتمالك نفسها ، فغطت وجهها بكمهــــا وأسندت رأسها الى العمود وظلت صامتة وقد حبست نفسها عن البكاء او التنهد حتى كادت تختنق وهي لا تدري بماذا تجيب ، مخافة ان يفتك بها ، فلم تر سبيلا غير البكاء . فلما رآها تبكي أمسك يدها وأبعدها عن العمود بلطف فطاوعته وهي تبالغ في الاطراق فقال لها : «أحسب صورة ذلك الغلام في ذهنك ، مع انه قد مضى وانتهى امره فلم يبق لك سبيل اليه . فاذا كان في قلبك بقية امل فيه فانزعيها واطرحيها جانبا» .

فأجفلت سمية ، ورفعت رأسها ونظرت الى ابيها وعيناها تقطران دمعا وكأنها في شك من قوله ، فابتدرها قائلا : «صدقيني انه لم يعد لك سبيل الى حسن ، ولا سبيل له اليك ايضا ، لان امره قد انقضى وأصبح في عداد الاموات» .

فلما سمعت قوله صاحت صيحة سمعها كل من في الخيام ، ولطمت وجهها وقالت : «حسن مات ؟ مات ؟ لا . لا . انه لم يمت ، انه حي» . قالت ذلك واستغرقت في البكاء ، وجلست على حصير من سعف النخل كانوا قد فرشوه في ارض تلك الخيمة وجعلت رأسها بين كفيها وأطلقت لدموعها العنان وأبوها ما زال واقفا وقد بغت لما رآه منها ، على انه قال لنفسه : «انها لا تلبث ان تفرغ من البكاء ، فمتى تحققت موت حسن عادت الى رأيي» . فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف بما بدا منها ، ثم عاد فقال لها : «اراك كأنك لم تصدقي قولي مع انك تعلمين اني لــــم أكذبك قط . صدقيني ان حسنا قتل في اثناء خروجه من المدينة فــــلا سبيل الى رجوعه . أم تريدين ان تقتلي نفسك من اجله ؟»

فصاحت مولولة وقالت : «نعم أقتل نفسي ، ولا غرض لي في الحياة بعده . لقد قتلتموه ظلما وغدرا !. ويلك يا ظالم !. كيــــف قتلته ؟. اقتلني معه .. اقتلني !» . قالت ذلك وعادت الى البكــــاء ، فلما رأى

عرفجة تصلبها عمد الى الملاينة فقال لها : «انا لم اقتله ولكنه قتل بذنبه. ولا فائدة من البكاء عليه ، فاشكري الله على انه مات قبل ان يقترن بك، والا ما وجدت حظوة في عيني الحجاج» .

فقطعت كلامه وقالت : «ما لي وللحجاج ؟ اني لا اريد غير حسن . حسن خطيبي . هو وحده حبيبي حيا او ميتا» . ثم أجفلت وقالت : «لا لا ، لم يمت حسن ، بل هو حي وأيدي الظلمة اللئام تقصر عنه» .

فقال عرفجة : «ألا تزالين تنكرين قتله ؟ هل أريك جثته لكـــــي تصدقي ؟» . فوثبت سمية من مجلسها وقالت : «لا . لا . لا تريني اياه ميتا . ويلاه !. قتل حسن . قتلته انت يا ظالم !. فاقتلني وأرح نفسك مني وأرحني من الحياة . اقتلني كما قتلت رجلا انقذك وأنقذ اهل بيتك من القتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم » . قالت ذلك وقد أحست بقوة عجيبة ويئست من الحياة . فلما سمع عرفجة تقريعها صاح بها : «اقصري يا فاجرة ، أبمثل هذا الكلام تخاطبين أباك ؟. والله لولا حرمة البنوة ولولا ان يقال اني قتلت فتاة لمزجت دمك بهذه المياه ... ولكني أعاملك معاملة صبية حمقاء ، وسأصبر عليك قليلا فاذا أبيت الا ما بدا من وقاحتك فاني قاتلك بهذا الخنجر !»

قال ذلك واسنل من منطقته خنجرا لمع نصله كالبرق فلما رأت النصل تعرضت له وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهي تقول : «اضرب . اغمد خنجرك في هذا القلب . اطعن . أتخوفني بالموت ؟. ان الموت أحب الي من الحياة» .

فلما رأى منها ذلك العناد صاح قائلا : «أهذه نتيجة تعبي في تربيتك يا فاجرة ؟ لقد حل لي قتلك ، ولكني لا ألوث يدي بدمك وسترين قبل موتك جميع اصناف العذاب» . ثم صاح : «قنبر» . فأقبل ذلك العبد بأسرع من لمح البصر كأنه كان في جيب عرفجة وأخرجه بيده ، وقال :

«لبيك يا مولاي» . فقال له : «شد يدي هذه الخائنة بالامراس وقيد رجليها بالحبال وسأريها عاقبة العناد» .

فلما رأت سمية قنبر مقبلا نحوها وثبت من مقعدها وصاحت به . «اذهب يا عبد السوء لا تدن مني . اغرب من وجهي ، لا تدن مني . اذهب قبح الله وجهك» . قالت ذلك وهي لا تعي ما تقول .

اما قنبر فأخرج من جيبه حبلا كان قد أعده لمثل هذا الغرض ، وهجم عليها وهو لا يبالي صياحها فقبض على يدها وهي تحاول التخلص منه، وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل أشد الرجال ونسيت حزنها ، ودفعته عنها وهو يحاول اخضاعها بلا عنف ، فلما رآها تدفعه وتقاومه عزم على استعمال العنف فصاح فيها صيحة دوت دويا عظيما وجذبها من يدها فلطم رأسها عمود الخيمة ، فوقعت مغشيا عليها ، فأخذ في شد وثاقها غير مكترث لحالها .

وكان الخدم قد سمعوا صياح سمية ، ولكن لم يجرؤ احد منهم على الاقتراب من الخيمة الا امة الله جاريتها فانها هرولت خلسة واستترت وراء نخلة حولها عشب العليق ولبثت تسترق السمع . فلما رأت هجوم قنبر على سيدتها علمت انه لن يحجم عن فتلها ، ثم سمعت لطمة عقبها سكوت فخافت ان يكون قد اصاب سمية سوء ، فلم تر سبيلا الى نجدتها الا بالحيلة ، فأسرعت الى عرفجة وترامت على قدميه وقبلتهما وقالت : «بالله ألا اشفقت على سيدتي وأغضيت عن جرأتها وأنا اضمن لك كل ما تريده منها » .

وكان عرفجة يعامل سمية بذلك العنف لكي يحملها على قبول الزواج بالحجاج ،لانه يرجو من وراء ذلك منفعة كبرى لنفسه . وقد ذكرنا ما فطر عليه من حب الذات والطمع مع سوء النية . وقد بلغ منه الطمع حدا هون عليه تقديم ابنته ضحية على مذبح أغراضه ، ومات

ضميره فلم يعد يهمه ما يرتكبه في سبيل بلوغ مقاصده • وكان يعلم ان الحجاج يرغب في الزواج بسمية ويبذل لها مهرا كبيرا ، ولكنه كـــان يخاف ان تشكوه لعبد الملك بن مروان بوساطة سكينة بنت الحسين او غيرها من اهل الوجاهة والنسب في المدينة • فلما اطمأن الى مقتل حسن اخبر طارقا بن عمرو امير المدينة بأن مثل ابنته لا تليق بغير الحجاج بن يوسف وانه يعلم برغبته فيها • وكان طارق ايضا مثل عرفجة قسوة وطمعا ولا سبيل له الى غرضه الا اذا تقرب الى الحجاج بما يرضيه ، فرأى ان يتقرب اليه بسمية فيخطبها له ويحملها اليه • فوافق عرفجة وساعده على التخلص من حسن ودفع اليه بعض مهر سمية ، على ان يأخذ بقية المهر بعد وصولها الى الحجاج بالقرب من مكة •

وكان عرفجة يعلم ميل ابنته الى حسن ، ونفورها من الحجاج وغيره، ويتوقع اباءها فهيأ الاسباب لاقناعها بأية وسيلة ، وتواعد مع طارق على ان يخرج بها الى قرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى فاذا لم تقتنع عمد الى العنف فيحملها الى الحجاج مكرهة ولم يكن هو ينوي الذهاب معها لغرض له بالمدينة يتعلق بتلك المحفة السرية ، فأراد اقناعها خـــارج المدينة وارسالها توا الى مكة مخافة ان تفر الى سكينة وتلتجىء الـــى بيتها في المدينة فتحميها او تساعدها في ابلاغ امرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج • اما بعد ان تسير الى مكة ويتزوجها الحجاج فلا يعود هناك محل للشكوى • ولا يهمه ان تشكو سمية اذ يكون قد نال بغيته ، ولذلك اوصى طارقا بأن يعقد الحجاج قرانه بها حال وصولها حتى ينقطع لديها كل امل في النجاة • ثم احتال في اخراجها الى المعسكر كما تقدم • فلما رأى نفورها مما عرضه عليها من امـــر الحجاج ، اصدر امره الى قنبر بشد وثاقها وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها •

فلما لقيته امة الله وترامت على قدميه ووعدته باقناعها ، نادى عبده فخرج ، وأمر امة الله فدخلت الخيمة وحدها ، فرأت سيدتها مغمي عليها فبادرت الى ركوة من جلد فيها ماء فرشت سمية به حتى افاقت ، وأخذت في حل وثاقها . فلما رأت سمية جاريتها فوق رأسها تقبلها وتحـــاول انعاشها ، ارتدت روحها اليها ، وسمعت امة الله تقول لها بصوت منخفض: «ماذا فعلت بنفسك يا سيدتي ؟ ما هذا الذي ارى ؟»

فعادت سمية الى البكاء وقالت : «أتسألينني يا امة الله عن ما ترينه، لقد مات حسن قتله الظالمون قبحهم الله» .

فقطعت امة الله كلامها ووضعت يدها على فمها وهمست في أذنهـا وقالت : «اخفضي صوتك لنتدبر الامر بالحكمة لان العنف لا يجدي» .

قالت سمية : «دعيني يا امة الله . فاني لا اريد الحياة بعد مقتل حبيبي ومنية فؤادي حسن . لقد قتلوه لعنهم الله !. ليتهم قتلونـــي عوضا عنه» .

فتقطع قلب امة الله حزنا على سيدتها ، ولكنها كانت عاقلة حكيمة صاحبة دهاء ، فتجلدت وقالت : «من قال لك انهم قتلوه ؟»

قالت : «أتسألينني ؟. أما رأينا معا جمله مكسورا مهجورا ؟. وهبي ان ذلك لم يكن يدل على قتله فما قولك وقد اخبرني بقتله ابي الظالم الخائن ، وعرض علي ان يريني جثته رأي العين ؟. هل بعد ذلك من شك ؟ وهل تلومينني اذا ندبت حياتي ونحت على شبابي ؟. وهل ترين سبيلا الى راحتي غير الموت ؟»

فقالت الجارية : «ان امر القتل لا يمكن ان نعده يقينا حتى الان ، وليس يخفى عليك رغبة ابيك في تزويجك بالحجاج ، فلعله ادعى ان حسنا قتل لكي يحول قلبك عنه ، ومع ذلك فان قتلك نفسك امـــر مستدرك ولا يجوز لك ذلك الا بعد ان تتيقني انهـم قتلوا حبيبك .

فعليك ان تصبري ، ثم اذا لم يفتح الله عليك بابا للفرج ورأيت الحجاج أوشك ان يبلغ مرامه منك ، فليس أسهل من ان تقتلي نفسك بتجرع السم قبل وصوله اليك» •

قالت : «ومن اين آتي بالسم ؟»

قالت : «انا آتيك به ، فاشترطي على ابيك ان اكون في خدمتك ، وأنا أهيىء لك السم ، ومتى تحققت انقطاع الامل ، أسعفتـــك به ، وتجرعت منه معك ، اما الان فدعي العناد وتظاهري بالرضا ، ولا يبعد ان يفتح علينا قبل وصولنا الى هذا المعسكر ، او قبل وصولنا الى مكة ، او لعلنا نجد حسنا في الطريق فتذهبين اليه • وليس يليق بك ان تطلقـي لنفسك عنان اليأس ، اذ ماذا يكون الشأن اذا قتلت نفسك وكان حسن لا يزال حيا ؟»

فلما سمعت سمية كلام امة الله أحست بانشراح صدرها وارتاح بالها وعادت اليها الآمال • والانسان سريع الرجوع الى الامل لان طبيعـــة الوجود تبعده عن اليأس ، وحب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار حبا في البقاء ، ويندر ان يرتكب احد جريمة الانتحار بعد اعماله الفكرة والتبصر • وما لبثت سمية ان استحسنت رأي جاريتهـــا فقالت لها : «افعلي ما بدا لك ، فأنت تعرفين ما في قلبي ، فعسى ان يأتيني اللـــه بالفرج على يدك» •

فسرت الجارية لنجاحها في اقناع سيدتها ، ولكنها شعرت بهـــول الموقف ، وكانت ترجح موت حسن • على انها عمدت الى الصبر وخرجت الى سيدها وكان واقفا مع عبده تحت نخلة • فلما رآها اومأ اليها ان تدنو منه • فمشت منحرفة عن موقفه ففهم انها تريد الاختلاء به• فمشى وحده حتى التقيا • فقالت : «اني رأيت سمية مطيعة لك في كل ما تريد، لكنها استوحشت معاملة قنبر فلا تدعه يخاطبها او يكلمها • ولا يخفى

على مولاي ان من كان في حال سمية لا يؤخذ بالعنف ، وقد خاطبتها الان باللين فرأيتها لانت . ولا بد من جلسة اخرى أتمم بها المراد . فاذا كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم فدعني اكن في خدمتها حتى نأتي الحجاج ولك علي كل ما يسرك» .

فاطمأن بال عرفجة وهان عليه ابعاد قنبر عنها ، وأطاع امة الله في ارسالها معها وقال لها : «لا بد من ذهابها الى خيمة أعدوها لها في معسكرهم ولا آمن ان تسير وحدها ، فاذهبي انت معها وأكدي لها اني لم أفعل ما فعلته الا رغبة في راحتها» .

فقبلت امة الله يده وقالت : «بارك الله فيك ، ولكن سمية تحتاج الى احضار ثيابها وأدواتها» .

فقطع عرفجة كلامها وقال : «كل شيء معد لها في خيمتها بالمعسكر وما عليها الا الرجوع اليه» .

فقالت امة الله : «ادخل الان عليها في الخيمة ، وكلمها كلاما لينا» . قالت ذلك ومشت فمشى عرفجة حتى دخل الخيمة فرأى سمية جالسة باكية ، فدنا منها وأمسك بيدها وقال : «لقد ساءني ما الجأتني اليه من الكلام الجافي ، ولكني علمت من امة الله انك فعلت ذلك بالرغم منك، فانهضي وسيري معها الى خيمتك في المعسكر ، وقد اوصيتها بأن تكون في خدمتك» .

فنهضت سمية مطرقة ، فأسرعت امة الله الى يد عرفجة وقدمتها الى سمية وهي تقول : «قبلي يد ابيك ليتم رضاؤه عنك» . فقبلتها . وكان الهودج لا يزال معدا فقبلها وأركبها ، وأمة الله معها ، وركب هو بغلته وسار امامهما حتى أوصلهما الى المعسكر وسلم الجمل الى عريف الجند. فتسلمه العريف وسار معهم الى خيمة في بعض اطراف المعسكر .

* * *

كانت سمية في اثناء الطريق غارقة في هواجسها وقد زال اثر كلام امة الله في نفسها • ولما مرت بالمكان الذي كان الجمل المكسور فيه رأت بعض العبيد قد نحروه وأخذوا في سلخ جلده ، فتصورت انهم قتلوا حسنا ونحروا جمله ، وعظم عليها الامر ولكنها تجلدت ، وكانت امة الله تراقب حركاتها خلسة • وبعد هنيهة وصلوا الى المعسكر فتحققت سمية انها وقعت في الشباك وعز عليها ان تزف الى رجل فظ غليظ القلب بدلا من حبيبها ، فاستوحشت وزاد قلقها ـ والفتاة اذا زوجوها برجل تعرفه وترضاه لا بد من استيحاشها في اوائل ايامها الا اذا كان زواجها عن غرام متبادل فكيف بسمية وهي ترجح قتل حبيبها ظلما ، وترى ان أباها قد باعها لرجل لا تحبه والناس يتحدثون بقساوته وشدته وبأن امره نافذ لا مرد له ؟

فلما وصل بعيرها الى الخيمة المعدة لها اناخوه وأنزلوها وأمة الله معها ثم دخلتا الخيمة فرأت سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها هناك فجلست على بساط كانوا قد فرشوه لها • وجلست امة الله الى جانبها تحادثها وتلاطفها ، وسمية تنظر الى خارج الخيمة تتشاغل بما تراه من حركات الجند والعبيد والخيل والجمال وهي مستغرقة في الهموم •وكان أشد ما شغل ذهنها ان رأت كلبا ينهش خرقة سوداء ويلاعبها بين يديه فيقذفها ثم يعدو في اثرها عدوه الى فريسة ، وتلك عادة الكلاب اذا لم تكن جائعة ثم اتفق ان قذف الكلب تلك الخرقة فوقعت بين يديها ، فما كاد بصرها يقع عليها حتى اجفلت وخفق قلبها ومدت يدها اليها ففر الكلب من امامها •

فأمسكت الخرقة بأنملتين ورفعتها وتفرست فيها فاذا هي ملوثة بالدم • وما لبثت ان قلبتها وصاحت : «ويلاه هذا هو القباء • هذا قباء ابي قتل حسنا به !»

فتناولته امة الله من يدها وقد عرفته ولكنها راحت تغالط سمية لتخفف عنها فقالت : «كيف عرفت انه قباؤه والاقبية تتشابه ؟»

فقطعت سمية كلامها وقالت : «قد عرفته من هذا الوشي على هذا الكم فاني طرزته بيدي وأنا أعلم الناس برسمه» . قالت ذلك وشرقت بدموعها ولم تنتظر جوابا من امة الله وأخذت تبكي وتقول : «قتلوه . لم يبق عندي شك في قتله» .

فقطعت امة كلامها وقالت : «وما علاقة هذا القباء بقتله ؟»

قالت : «ألا تتذكرين ان ابي اهداه اليه يوم عزمه على السفر ، وألح عليه ان يلبسه للوقاية من البرد ؟ ويل له من مشهد يوم عظيم . لقد ألبسه القباء وأوعز الى احد من صنائعه ان يقتله وكأنه اتخذ القباء دليلا عليه فأصابوا غرضهم منه ، وهذه هي بقية القباء وعليها الدم . فهل من بعد هذا شك في انهم قتلوه ؟» وما العمل ؟ كيف أسلم نفسي الى قوم قتلوا حبيبي ؟» . قالت ذلك وغصت بريقها .

فقالت امة الله : «سلمي امرك الى الله ولا تيأسي من رحمته . واعلمي ان ما يقدره الله واقع . فاصبري والله مع الصابرين» .

فلم تر سمية غير الصبر فصبرت نفسها . والمرء قبل وقوع المصيبة يتوهم انها اذا وقعت يستحيل عليه احتمالها ، وقد يتوهم ذلك ايضا اهله وذووه ، ولكنه متى وقعت لا يعدم سبيلا لاحتمالها والصبر عليها وأمثال هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم . فلا غرو اذا صبرت سمية بعد ما تحققته من مقتل حبيبها .

وفي أصيل ذلك اليوم نودي الجند : «الخيل الخيل» فركبوا بعد ان قوضوا الخيام ، وساروا والفرسان في مقدمتهم وأصحاب الرايات بينهم وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بن عمر ، وكلهم بلباس اهل البادية الا هو فانه لبس درعا فارسية كان قد جاء بها من العراق .

اما سمية فحملوها على هودج ومعها خادمتها ، وكان يقود الجمل عبد ، ويسوقه عبد : والى كل من الجانبين حارس على هجين • وكان طارق يتردد الى الهودج يتعهده ويسأل اهله هل يحتاجون الى شيء ، ثم يركض فرسه الى اطراف الجند يتفقده ويدير شؤونه •

* * *

فلنترك سمية في هودجها تفكر في مصيرها ولنرجع الى المدينة للبحث عن عبد الله خادم حسن فقد تركناه راجعا من بيت سكينة بعد ان أوصل سمية اليه • ثم اخبرت امة الله سمية انه جاء الى المنزل للسؤال عنها فلم يجدها فرجع على أعقابه •

وكان عبد الله لما رجع من بيت سكينة قد اسرع لملاقاة سيده خارج باب المدينة ، وهو قلق لما سمعه من حديث سمية مع حسن في تلك الليلة• وتصور ما يحدق بسيده من الاخطار فسار وهو يفكر في الامر ، ونسي نفسه فأخطأ الطريق وخرج من غير الباب الذي خرج منه حسن ، ثم سار من طريق اخر يؤدي الى جهة اخرى • وكثيرا ما يتفق ذلك في مثل هذه الحال فيتجه الرجل شرقا وهو يرى انه يسير غربا • وبعد ان سار ساعة وهو لا يرى راكبا ولا يسمع صوتا وقد اشتد الظلام ، وقف ونظر الى ما حوله فاذا هو بين النخيل لا يتبين الطريق ولا يدري اين هو ، ولكنه لم يكن له علم بطريقة الاستدلال بالكواكب ، فحول سيره الى جهة اخرى ، ولكنه لم يصل الى المكان المقصود ، على انه كان كلما بعد عن المدينة استدل عليها ببعض ما يبدو فيها من الانوار فيرجع الى جوارها • وحدثته نفسه بدخولها ولكنه خاف ان يكون سيده في انتظاره ببعض ضواحيها ، ثم بدا له ان سيده ربما كان قد عاد الى بيت سمية لسبب ما ، فرجع الى المدينة وجاء منزل عرفجة فلم يجد سمية هناك كما تقدم ،

فعاد الى خارج المدينة وقضى ليلته في هذا الاضطراب .

وقبل الفجر سمع جعجعة جمل يتألم فولى وجهه شطر جهة الصوت ، وقد خيل اليه انه جمل سيده ، فاستأنس به ، وأخذ ينادي الجمل بما تعود ان يناديه به من الاسماء والاصوات فازداد الجمل جعجعة ولكنه بقي في مكانه حتى بلغه عبد الله فعرف انه جمل سيده حقا غير انه لا يستطيع النهوض كأنه معقور ، فغاص عبد الله في الماء حتى دنا منه فأدار الجمل رأسه اليه كأنه يحييه ويستنجده .

ولما تحقق انه معقور ، ولم يجد حسنا عنده ، اضطرب وشغل باله : فأسرع الى الرحل فنزعه عنه ، ووقف مدة وهو يفكر فيما عسى ان يكون قد حدث لحسن . واشتد به الاضطراب والقلق . ولم يجد فائدة من ان يسأل عنه في بيت عرفجة لانه لم يجده هناك بالامس ، وقد خشي اذا سأل سمية عنه ان يزيد في بلبالها . فخطر له ان يقصد الى المكان الذي باتا فيه ليلة وصولهما الى المدينة مع ليلى الاخيلية ، فسار اليه ، ومر اثناء مسيره بمنزل عرفجة فتنسم الاخبار ، ولما لم ير اثرا لحسن واصل السير حتى اتى البيت فلم يجد به احدا ، فجلس وقد اخذ التعب منه مأخذا عظيما ، ووضع الرحل بين يديه وجعل يفتشه فوجد اسطوانة مختومة وعليها اسم عبد الله بن الزبير فعلم انها الرسالة التي يحملها حسن الى مكة . فلما رآها ازداد قلقه وقال في نفسه لو ان حسنا ترك الجمل باختياره لحمل هذا الكتاب معه ، لانه انما جاء هذه الديار من اجله . فترجح لديه انه قتل او أصيب بمكروه، فقضى نهاره لم يذق طعاما، وأخذ يندب مولاه تارة ، ويعلل نفسه بلقياه تارة اخرى . ولم يغادر سوقا ولا دربا من دروب المدينة الا مر به وهو يتفرس في وجوه الناس ويتنسم الاخبار ، فلم ير الا انهماك الناس في اعداد النجدة للحجاج عملا بما حمله البريد اليهم . وبات ليلته بالمدينة وهو يفكر في الامر ، فقر رأيه

اخيرا على ان يحمل كتاب خالد الى عبد الله بن الزبير في مكة فيتم المهمة التي جاء حسن من اجلها ، على ان يبحث عنه في اثناء ذلك •

- ١١ -

عبد الله بن الزبير

كان عبد الله بن الزبير بن العوام من كبار الصحابة • وكان قد رفض المبايعة ليزيد بن معاوية كما رفضها الحسين بن علي ، وخرجا من المدينة الى مكة ، ودعا كل منهما الى بيعته هو ، على ان عبد الله رأى ألا يتظاهر بذلك والحسين في مكة لعلمه انه أولى منه بالبيعة • فلما كان شخوص الحسين الى الكوفة ومقتله في كربلاء ، خلا الجو لابن الزبير فبايعه الناس واستفحل امره ، وجعل مكة عاصمته • وبايعه اهل الحجاز واليمن ، وحاربه بنو أمية ولكنهم لم يبلغوا منه وطرا ، فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان الحجاج يومئذ احد امراء عبد الملك ، ولهذا ثقة في شجاعته ، رغب الحجاج في قتال عبد الله ، وقص على عبد الملك رؤيا قال انه رأى نفسه فيها وقد اخذ ابن الزبير وسلخه ، وطلب من عبد الملك ان يشخصه لقتاله ، فأشخصه في ثلاثة آلاف من اهل الشام، وأعطاه كتاب امان الى ابن الزبير ومن معه ان اطاعوا ، وأوصاه بأن يرفق بالكعبة •

فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ وحدثت بينه وبين ابن الزبير مناوشات لم يتم الفوز فيها لاحدهما ، فمل الحجاج ، وأرسل الى عبد الملك يستأذنه

في دخول الحرم وحصر ابن الزبير ، فأذن له وأنجـــده بخمسة آلاف آخرين ، فاشتد بذلك ازر الحجاج ، وحاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق • فعظم ذلك على المسلمين وأنبوه ، ولكنه أصر على رأيه • وطال الحصار على اهل مكة حتى قل زادهم وأصابهم جوع شديد • وكانت مكة يومئذ قليلة العمارة ليس فيها غير المسجد وفي وسطه الكعبة وبعض الابنية ، وكانت الكعبة قد تهدمت في حصارها قبل قدوم الحجاج فأعاد ابن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه •

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل ابي قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق •

وكان ابن الزبير مقيما مع اهله بالمسجد الحرام ، ومعه جماعة مـن رجاله قد بايعوه حتى الموت وصبروا معه صبر الرجال • وأما الحجـاج فكانت خطته ان يستمر في تضييق الحصار على عبد الله ، وبعث بسراياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والخروج منها • ولما طال آمد الحصار، دون ان يستسلم المحاصرون استنجد الحجاج طارقا امير المدينة كما تقدم •

* * *

ولنرجع الى حسن وقد خرج من المدينة على جمل اهداه اياه ابـو سليمان ، ومعه العبد بلال • وبعد مسيرة ايام اشرفا على مكة عند الغروب فرأياها محاطة بشراذم من الفرسان يطوفون حولها • فقال بلال : «اني ارى الطلائع الاموية حول مكة ، ولا آمن اذا واصلنا السير ان يمنعونا، فهل تأذن لي في الخروج اليهم للاستطلاع ثم اعود اليك ؟»

فوافقه حسن على ذلك ، وأوصاه بالرجوع اليه عند حائط انتظره فيه بعيدا من الطريق العام •

وسار بلال ، واتجه حسن الى ذلك الحائط ، وهو من آثار بنـاء قديم هناك ، وترجل وعقل جمله وراء الحائط ثم اتكأ بجانبه بحيث لا يراه احد من المارة . ولبث مدة وقد طاب له الاتكاء لعظم ما قاساه من الجهد في اثناء ركوبه الطويل من المدينة الى مكة فأحس براحة ؛ ولكنه ما لبث ان رأى الشمس تغرب والظلال تتقلص وبلال لم يرجع . فلما آن العشاء استبطأه وحسب لتأخره الف حساب ، ثم وقف وتسلق الحائط وجعل ينظر الى الافق لعله يراه قادما .

وفيما هو في ذلك سمع سعال بلال ، فالتفت فرآه قادما يعدو عدو الغزال والارض رملية لا يسمع وقع الخطى عليها ، فلما وصل اليه قال: «لا سبيل لنا الى مكة الليلة لان رجال الحجاج مضيقون عليها الحصار، من كل ناحية حتى لا يدخلها احد ولا يخرج منها احد» .

قال حسن : «وما الحيلة ؟» لا بد من دخولنا» .

قال : «ليس لنا يا مولاي الا ان نصبر الى الغد ؛ لأبحث عن سبيل الى دخولنا» .

فقال : «أنبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟»

قال : «كلا يا مولاي ، فقد دبرت وسيلة أظنها تريحك وتسهل عليك الدخول » .

قال : «وما هي ؟»

قال : «أتعرف محمدا بن الحنفية ؟»

قال حسن : «كيف لا وهو ابن الامام علي ، وأخو الحسن والحسين من ابيهما ؟»

قال : «ان له حرمة عند الحجاج وعند ابن الزبير ، فاذا وسطناه دخلنا مكة على اهون سبيل» .

قال : «كيف تكون له هذه الحرمة وهو عدو لابن الزبير ولعبد الملك،

لانه يزاحم الاول على الخلافة في الحجاز ، ويزاحم الاخر على الخلافة في الشام . ألم تسمع بحديث المختار ؟»

فقال بلال : «كيف لم اسمع به ؟»

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه : «لقد كان المختار يطالب بالخلافة لمحمد بن الحنفية ، ثم قتله مصعب اخو عبد الله بن الزبير المحصور في هذا الحرم الان ، وجاء عبد الملك بن مروان فحارب مصعبا وقتله وأخذ العراق منه» .

قال : «صدقت يا مولاي ، ولكن المختار طلب من تلقاء نفسه البيعة لابن الحنفية دون ان يكلفه هذا بذلك ولا اراده ، وقد لجأ المختار الى هذه الخطة تمهيدا لاستقلاله بالامر لنفسه ، وعلى هذا حمل الكرسي المشهور امره عند الناس ، وزعم انه كرسي الامام علي ، كما ادعى ما يشبه النبوة حتى كرهه الناس ونفروا منه» .

فقال حسن : «هل رأيت ذلك الكرسي وهل تعرف اصله ؟»

قال : «ان سر هذا الكرسي عندي ، وطالما جلست عليه قبل ان يصبح مقدسا كما ادعى المختار» .

قال : «وكيف ذلك يا بلال ؟ انك والله لواسع الاطلاع» .

قال : «ان الذي يعيش طويلا يرى كثيرا . فقد اتفق لي منذ بضع سنين وأنا في المدينة اني اصطحبت رجلا اسمه الطفيل بن جعدة بن هبيرة ، وكانت جدته أم جعدة اخت علي بن ابي طالب . وكان يتردد الى جار له زيات كنت أتردد اليه احيانا ، فأصيب الطفيل يوما بضيق ولم يبق معه ما ينفقه على نفسه . وكان المختار يومئذ قد قام لمحاربة قتلة الحسين ، فأراد الطفيل ان يحتال عليه ليكسب منه مالا ، فاشترى من جاره الزيات كرسيا قديما كان مهملا عنده ثم غسله وسقاه الدهن حتى لمع ، وذهب به الى المختار وقال له : اني كنت أكتمك شيئا وقد بدا لي ان

أذكره لك . ان ابي جعدة كان يجلس على كرسي عندنا ، ويروي ان فيه اثرا من علي . فقال له المختار : سبحان الله لماذا كتمت خبره ، ابعث به الي . فبعث به اليه وقد غشاه بملاءة ، فدفع له اثني عشر الف درهم . فأخذها الطفيل وانصرف . ثم غشي المختار الكرسي بالديباج وزينه بأنواع الزينة ، ودعا الناس الى المسجد حيث اراهم اياه بعد الصلاة وقال لهم : (ان هذا الكرسي من ذخائر امير المؤمنين علي عليه السلام . وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني اسرائيل) . فصدقوه وصار اذا حارب خصومه حمل الكرسي معه الى ميدان القتال وقال لمن معه : (قاتلوا ولكم الظفر والنصر ، هذا الكرسي محله فيكم محل تابوت بني اسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم) ..»

فقال حسن : «لعلك تعرف ابن الحنفية ؟»

قال : «نعم يا مولاي ، وقد شهدت كثيرا مما يتناقله الناس من احاديث قوته البدنية . واذكر اني رأيته في حياة ابيه الامام علي ، وكنت غلاما ، وفي يد ابيه درع طويلة فأراد ان ينقص بعض حلقاتها فدفعها الى محمد وأمره ان ينقص منها كذا حلقة ، فقبض محمد باحدى يديه على ذيلها وبالاخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدده ابوه . وهو يعرفني ايضا» .

فقال حسن : «وماذا ترى ان نصنع الان ؟»

قال : «ان ابن الحنفية مقيم الان بالشعب في جوار مكة ، فاذا شئت نزلنا عنده الليلة ثم نرى ما يكون في الغد» .

فقال : «وهل تعرف الطريق اليه ؟»

قال : «عرفته في اثناء غيابي عنك الان ، وقد اوصاني بك مولاي ابو سليمان خيرا اراك اهلا له .. فأنا خادمك حتى تبلغ مأمنك» .

فقال حسن : «بورك فيك» . وأخذ يهيىء رحله للركوب وبلال

يساعده ويقول : «اني ارى مكة في ضيق شديد ، وأخاف على ابن الزبير من عاقبة هذا الصبر ، فان الامويين غالبون اخر الامر على ما ارى» .

فتذكر حسن ما هو قادم لاجله وخاف الفشل ، ولكنه صبر ريثما يدخل مكة في الغد .

سار حسن وبلال حتى اتيا ارضا صخرية مشيا بين شقوقها ، ثم صعدا تلالا اشرفا منها بعد قليل على شعب بعيد اوقدت به نار لهداية الضيوف كما هي العادة عند العرب . وهم حسن بأن يسأل بلالا فاذا بهذا يقول له : «اننا على مقربة من الشعب . وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل ، فهل تريد ان ننزل في دار الاضياف رأسا ام نقصد خيمة محمد نستأذنه ونخاطبه في امر دخولنا مكة ؟»

قال : «اخشى ان يكون في ذهابنا الان الى خيمته ما يزعجه ، فلنترك ذلك الى صباح غد» .

قال : «اذن نذهب الى دار الضيافة فانهم لا يسألون القادم اليها عن سبب قدومه ، ومتى اصبحنا نرى ما يكون . وربما خرجت انا الليلة لأدبر الامر» .

فأثنى حسن على غيرته . وبعد قليل لاحت لهما خيام عديدة منصوبة على غير نظام يتوسطها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببابه انه فسطاط محمد بن الحنفية ، فوقف بلال برهة وهو يتفرس في الخيام حتى تبين خيام الاضياف وعرفها من انفرادها عن سواها وقربها من النار . فسارا حتى اقتربا منها فسمعا لغطا وكلاما . ثم ترجل حسن ، وسبقه بلال الى اقرب الخيام فلقيه رجل رحب به وسأله عما يريد ، وطلب اليه ان ينتسب ، فانتسب وقال : «اننا أضياف غرباء» . فأنزلهما على الرحب والسعة ، وأفرد لهما خيمة ليس فيها احد . فدخل حسن ، وأعطى بلال الجمل لاحد الخدم ليأخذه الى المعالف ، ثم عاد الى حسن فوجد

عنده طعاما أعده القوم ، فأكلا ، ثم خرج بلال ، على ان يعود بعد قليل، وتوسد حسن على فراش من جلد فرشوه له ، وكان التعب قد اخذ منه مأخذا عظيما فغلب النعاس عليه فنام ، ولكن هواجسه لم تنم معــــه فتحولت الى احلام مزعجة رأى فيها انه دخل مكة وقد دخلها الحجــاج وقبض عليه وحبسه وقيده ، فشق ذلك عليه وانزعج ، ثم أفاق من نومه مذعورا فشكر الله لان ذلك كان حلما ولكنه تشاءم وغلب عليه الارق فجعل يتقلب والنوم لا يأتيه . فأراد رؤية بلال لعله يقص عليه ما يتسلى به ريثما يطلع النهار ، وخرج للبحث عنه عند باب الخيمة حيث ظن انه نام هناك ، وناداه فلما لم يجب ظنه مستغرقا في النوم ، ثم ما لبث ان تبين انه لم يعد بعد ، وتفرس في النجوم فعلم انه في الهزيع الاخير من الليل ، فقلق على بلال ، ثم التف بردائه اتقاء للبرد ، وخرج ليبحث عنه حول الخيام .

* * *

وفيما هو في ذلك سمع جعجعة جمل قادم نحو الخيام فالتفت فاذا هناك جملان على احدهما ما يشبه الهودج ويقوده رجل ماش لم يستطع تبين وجهه لاشتداد الظلام ، فتبادر الى ذهنه ان رجلا وامرأته وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح . ولكنه استغرب مسيرهم في اواخر الليل بجوار مكة وهي في حصار شديد . فعاد الى خيمته وفي نفسه ان يستطلع حقيقة القادمين ، فجعل ينظر من شقوق في الخيمة تطل علـــى الطريق ، فرأى ان الجملين قد أنيخا ونزل راكب احدهما وهو رجل قصير القامة ، ملثم بعمامته وقد التف بعباءته . ثم رأى الرجل الذي كـــان ماشيا يقود الجمل فاذا هو عبد كبير الجثة سريع الحركة ، تسلم جمـــل الراكب الاول وعقله بجانب الجمل الاخر وهو يقول : «أترى يا مولاي

ان ابقى هنا مع الجملين ، ام اسير في خدمتك ؟»

فرد عليه الرجل بصوت منخفض قائلا : «امكث انت هنا واحتفظ بما على الجمل فانه أعز شيء عندي كما لا يخفى عليك» .

قال : «هل اسير في خدمتك الى خيمة الاضياف ؟»

قال : «لست ذاهبا الى هناك ، فامكث انت هنا ريثما اعود اليك» . قال ذلك ومشى .

وكان حسن يتوقع ان يرى زوجة الرجل الاول تنزل من الهودج ، ولكنه رآه ما زال مجللا بغطائه ، ثم رأى العبد عاد الى الجمل الذي يحمل الهودج وجلس بجانبه مستندا الى بطن الجمل ، وما لبث ان نام نوما عميقا وعلا شخيره . فاستغرب حسن ما رآه ، وكان قد تعب من الوقوف ، فعاد الى فراشه وفكره مضطرب . وبعد ان جلس قليلا عاد الى باب الخيمة للبحث عن بلال وقد ازداد قلقه لغيابه ، فأطل برأسه من الباب وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد احدا ، وحال الظلام بينه وبين الاشباح البعيدة فعاد الى فراشه وقد احدقت الهواجس به ، فحدثته نفسه بأن يخرج الى ذلك العبد ويسأله عن سر الهودج ، ولكنه أحجم وقال في نفسه : «لو كان بلال هنا لكلفته بهذه المهمة» .

وفيما هو في ذلك سمع وقع أقدام خارج الخيمة تقترب من بابها ، فأدرك ان بلالا قادم ، ولم يشأ ان يناديه لئلا ينتبه العبد الاخر النائم بجانب الجمل . فوقف ومشى الى الباب ، فرأى بلالا يهم بالاتكاء ، ورآه بلال فوقف وقال : «ما الذي ايقظك في اخر الليل يا مولاي ؟»

قال وهو يشير اليه ان يخفض صوته : «لقد استيقظت من زمن ، فقلقت لغيابك ، ثم رأيت بعض الناس حطوا رحالهم وراء خيمتنا ، وظهر لي من امرهم ما اقلقني» .

فقال بلال : «وما الذي تبغيه مني فأفعله ، اني رهن اشارتك» .

قال : «هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟»

قال : «كلا وانما جئت من هنا» .

قال : «تعال اذن» . وأمسكه بيده فأدخله الخيمة وأراه الجملين والعبد النائم تحت الهودج ، وقص عليه ما كان من امرهم الى ان قال :

«فهل تستطيع مخاطبة هذا العبد لتعرف منه الغرض من قدومهم ؟»

قال : «ذلك شيء يسير» . ثم خرج من باب الخيمة ودار حتى دنا من الجملين وحسن ينظر اليه من شق الخيمة فرآه يقترب من العبد رويدا رويدا حتى دنا منه وتفرس في وجهه والعبد نائم ثم انكفأ راجعا مسرعا حتى دخل الخيمة ، فبادره حسن سائلا : «لماذا لم تخاطبه» .

قال : «لاني اعرفه وأعرف حكايته» .

قال : «وكيف ذلك ؟»

قال : «اجلس لأقص عليك ما يغنيك عن كثرة البحث . لقد نمت اول الليل بباب هذه الخيمة ولكنني ما لبثت ان استيقظت وأخذت أفكر في حيلة نستطيع بها مقابلة محمد غدا حتى لا يطول مكثنا . وخفت ان يكون علينا بأس اذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا فرأيت ان أذلل العقبات وأنت نائم ، فنهضت وسرت الى رجل من المقربين الى الامير كنت قد عرفته ايام كنا بالمدينة ولي عليه دالة . فلقيت الرجل في خيمة له بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح ، يدخل عليه صاحبي منه من باب خاص دون سائر الناس ، فلما اتيته رحب بي وأكرمني وسألني عن امري ، فقلت له اننا جئنا نلتمس من الامير وسيلة ندخل بها مكة . فوعدني خيرا ثم أجلسني وجعل يسألني عن حوادث مرت بنا قديما وأمور يهمه الاطلاع عليها، وكلما هممت بالنهوض اقعدني حتى طال بي الجلوس. وبينما انا أهم بالنهوض سمعنا وقع أقدام خارج الخيمة على غير انتظار فأقعدني صاحبي وخرج وهو يقول : (من الرجل ؟) . وسمعت من يجيبه

قائلا : (انا عرفجة) . ولما كنت أعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة وكثيرا ما رأيته في دار الامارة خرجت لأحقق امره فرأيت الرجل ملثما ولكنني عرفت انه هو صاحبي هذا من صوته وقامته» .

وهنا تذكر حسن ان الصوت الذي سمعه لما أناخ الرجل الجملين يشبه صوت عرفجة ، فبغت واستغرب مجيئه في هذا الليل ، وتبادر الى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدى ابن الحنفية ، ولكنه استبعد ذلك لعلمه انه ليس على وجه البسيطة رجل عرف بخروجه من المدينة غير سليمان وأبيه وخادمه بلال . ثم على فرض ان عرفجة عرف بمسيره الى مكة فكيف يعرف انه في هذا الشعب . ولكن اذا كان هو عرفجة فمن عسى ان تكون التي جاءت معه في الهودج ؟ انه غير متزوج وليس عنده من النساء الا ابنته سمية ، فهل هي التي في الهودج ؟ وخفق قلبه وتصاعد الدم الى وجهه . كل ذلك وبلال واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه .

فقال حسن : «وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل في هذا الليل ؟ »

قال : «كلا يا مولاي لاني رأيته يحدث صاحبي همسا فرأيت ان أنصرف لاخلي لهما المكان . ولما استأذنت صاحبي ناداني اليه وقال : (موعدنا غدا ان شاء الله) . فعلمت انه لا يزال على وعده فأتيت وآثرت النوم بباب الخيمة الى الصباح» .

فقال حسن : «وما الذي عرفته من امر العبد النائم بجانب الجمل؟»

قال : «عرفت انه قنبر خادم عرفجة ، وهو عبد سمج الخلق فظ الطبع يعرفه كل اهل المدينة» .

قال حسن : «وما ظنك بمن في الهودج ؟»

قال : «لا أظنه هودجا وانما هو محفة . ولا يبعد ان يكون فيها

بعض النساء او ربما كانت فيه ابنته سمية لانه ليس له سواها» .

فلما سمع حسن اسم حبيبته تجددت أشجانه ، وتذكر ان بلالا لا يعلم شيئا من امره مع سمية ، فضاقت نفسه عن كتمان سره ولكنه تجلد وقال : «أتظنه يحمل ابنته معه الى هنا في مثل هذه الظروف ؟»

قال : «لا اخاله يفعل ذلك ، وهب انه حملها فلا أظنه يبقيها محبوسة لا نسمع لها صوتا ، ولاسيما ان المحفة ضيقة لا تكفي لكي تنام فيها» .

فاطمأن قلب حسن على سمية ولكنه بقي مشغول الخاطر بأمر المحفة، وهم بأن يعود الى سؤال بلال في شأنها ، فاذا بهذا يبتدره قائلا : «ليس في المحفة فتاة ولا امرأة ، فقد تذكرت الان ان لهذا الرجل محفة قـــد احتفظ بها في منزله لا يطلع احدا على ما فيها ، وأهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها . فلعلها هي هذه» .

فازداد حسن شوقا الى معرفة سر المحفة ، ولكن القلق عاوده مــن جهة ما حمل عرفجة على القدوم في هذا الليل ، فقال لبلال : «متى نذهب الى ابن علي ؟»

قال : «عند طلوع الشمس» .

فعاد حسن الى فراشه ، واضطجع بلال بباب الخيمة . وقضيا ما بقي من الليل بين نوم وتقلب وهواجس ، ولما طلع النهار نهضا وخرجا فما كاد حسن يلتفت الى موضع الجملين وراء خيمته حتى بغت اذ لم يجد لهما اثرا ، وظن ان عرفجة قد سافر .

وواصلا سيرهما بين الخيام ، وهي على مرتفع من الارض متشعب، به للخيل والجمال مسارح وقد خرج الخدم ليقدموا لها علفها . فلما بلغا خيمة محمد ، وكانت رحبة عالية قائمة على عمد عديدة ، رأيا بابها مسدلا فعلما ان محمدا في شاغل ، فتحولا الى خيمة صاحب بلال وهي ملتصقة بها ، فلما دخلا عليه رحب بهما وأدخلهما وهو يشير اليهما ألا يتكلما .

فدخل حسن ونظر من كوة في الخيمة تطل على خيمة الامير فرأى محمدا جالسا وبين يديه رجل قصير القامة عرف انه عرفجة ، فقال في نفسه هذه فرصة لا ينبغي ان تضيعها ويجب ان نطلع على سر هذه المقابلة • وتفرس حسن في محمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانت فيه ملامح الشيخوخة وهو لا يزال كهلا ، ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والكتم فلا يظهر فيها الشيب على ان دلائل القوة لا تزال ظاهرة في كفيه ووجهه وعينيه •

وخاف حسن ان يكون في تطلعه هكذا ما يؤاخذ به صاحب بلال ، فأراد ان يعتذر فتظاهر بالرغبة في الخروج فقال له الرجل : «تفضل يا مولاي واجلس فاني احب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هذه المقابلة السرية التي يزعم انها ذات بال ، ولقد ساءني بخشونته حتى صرت لا أبالي كتمان سره» •

فنزل هذا القول بردا وسلاما على قلب حسن ، وفرح لتمكنه من نيل بغيته ، ولكنه تظاهر بعدم اكتراثه للاطلاع على السر ، وجلس بحيث يرى ولا يُرى فرأى عرفجة جالسا بين يدي ابن الحنفية ويخاطبه متهيبا ، وسمعه يقول له : «انت تعلم ايها الامام انك أولى الناس بهذا الامر بعد الحسن والحسين سيدي شباب اهل الجنة • ان الخلافة بعدهما لك فأنت وحدك ولي هذا الامر وليس بنو أمية سوى معتدين» •

وظل محمد صامتا لا يتكلم ، فظنه عرفجة راضيا بما يقول ، فاستأنف الكلام قائلا : «وأنت تعلم يا مولاي ان المختار قام بالدعوة لبيعتك ، ولكنه لم يثبت على عهده فلم يوفقه الله ، كما نعلم ان السر الذي كان يستعين به على بث الدعوة جدير بأن يقوم به من تندبه لذلك» •

وظل محمد صامتا مطرقا كأنه يفكر في امر اخر ، في حين مضى عرفجة في حديثه فقال : «ولا يخفى على مولاي الامام ان بني أمية الان في شغل بعبدالله بن الزبير ، وأكثر جندهم منهمكون في حصاره ،

والعراق خال ممن يدعو اهله الى الحق ، فاذا ندبت احدا وسيرته الى العراق ليدعو الى بيعتك كان ذلك من سداد الرأي» .

فرفع محمد رأسه وقال : «ان الفشل لم يأتنا الا من العراق ، ففيه قتل ابي وأخي غدرا وخيانة» .

فزحزح عرفجة نفسه على البساط وقال : «ان السبب في ذلك الفشل لم يبق منه شيء الان . واني ارى السبل قد تمهدت والوقت دنا لظهور الحــق » .

فقال محمد : «ومن تراه يليق لهذه المهمة ؟»

قال : «انك انت الذي ستضع سرك بين يديه وتعهد اليه في النداء بصوت الله ، فأمر اختياره اليك» .

قال : «وبمن تشير ؟»

فسكت عرفجة وأطرق ، وكأنه يخشى ان يصرح بترشيح نفسه لهذه المهمة لئلا يساء الظن به ثم قال : «ان هذا الانتداب لا يكون الا بالهام من الله ، فاختر من يلهمك الله اختياره» .

قال : «واذا لم يلهمني الله ؟»

فارتبك عرفجة في امره وتهيب التصريح له بغرضه . وكان غرضه الاول من هذا الامر كسب المال فباع بنته للحجاج وجاء لنصرة عدوه .

وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الحياد وقد طلب الحجاج منه ان يبايع لعبد الملك ، وطلب منه ابن الزبير ان يبايع له ، فأبى البيعتين ولبث في انتظار ما يكون من امر مكة وحصارها ، وذلك لانه كان عاقلا لا يجهل عجزه عن القيام بدعوة جديدة الى بيعته هو بعد ذلك الفشل . على انه ظل يساير عرفجة وهو لا ينوي ترك الحياد .

اما عرفجة فلم ير بدا من الاجابة فقال : «اذا لم تلهم اختيار احد لهذه المهمة فاختر صاحب الكرسي» .

فقال محمد : «وأي كرسي ؟»

فنهض عرفجة وتحول الى باب الخيمة ونادى قنبر عبده ، ثم رجع، وبعد هنيهة دخل قنبر وعلى كتفه المحفة وعليها ستار ، فوضعها بين يدي محمد وخرج • فقال محمد لعرفجة : «ما هذا ؟»

قال : «هذا تابوت العهد !» • ثم اخرج مفتاحا ورفع الستار عن المحفة وجعل يعالجها بالمفتاح حتى فتحت فرفع سقفها وحسن ينظر ويتطاول بعنقه وهو يعجب من غدر عرفجة وخبثه • ثم ما لبث ان رآه مد يده الى داخل المحفة وأخرج شيئا مغشي بالديباج فرفع الديباج عنه فاذا هو كرسي خشبه يلمع كالمرآة •

وتقدم عرفجة بالكرسي حتى وضعه بين يدي محمد وهو يقول : «أليس هذا كرسي الامام علي الذي انتصر به المختار ؟»

فابتسم محمد وقال : «ولكنه فشل بعدئذ» •

قال : «لقد فشل لانه لم يخلص النية في سعيه» •

فقال محمد : «وهل تخلص انت النية اذا ندبناك لهذه المهمة ؟»

قال وقد بان السرور في وجهه : «كيف لا ، وهذه بغيتي وأكون قد نصرت الحق وأهله ؟»

***

عجب حسن لقبول محمد هذا الامر ولكنه ما لبث ان سمعه يقول لعرفجة : «ولكن دعوة اهل العراق تحتاج الى المال ، لان بني أمية انما غلبوا أخوي بالمال ، وسيغلبون اللائذ بالكعبة بالمال ايضا ، فان ديارهم غنية وعندهم المال كثير ينفقونه في ابتياع الاحزاب والاتباع • فاذا كنت صاحب مال فاني ارجو لك النجاح» •

فلما سمع عرفجة كلام محمد سقط في يده ، وخاب ما امله ، ولم

يدر بماذا يجيب • ولكن محمدا لم ينتظر جوابه فقال له : «ان هــذا الكرسي الذي تزعم انه كرسي ابي ليس سوى كرسي قديم لاحــــد الزياتين • وقد زعمت اني ندبت المختار ليدعو الى بيعتي ، وهذا وهم باطل لان ذلك الثقفي انما ندب نفسه لتلك المهمة ليشبع بطنه • فاذا كنت انت جائعا فالتمس بابا اخر غير هذا !» • قال ذلك وقــد ظهر الغضب والجد في وجهه •

فارتبك عرفجة وتحقق ضياع امله بعد ان قضى بضعة أعوام فــي تنميق ذلك الكرسي وصقله ، وكتمان امره عن اهل المدينة • وكان لا يشك في انه اذا عرض الامر على محمد بن الحنفية وجــد منه قبولا ، وبذلك يبتز منه المال ليشبع مطامعه وشرهه ، ويضيف ذلك المال الى ما قبضه ويقبضه مهرا لابنته من الحجاج •

وكان عرفجة من اصحاب الاحساس الاصم والعواطف المائتة • لا يحجم عن عمل مهما يكن خطيرا ، اذا وجد فيه ما يشبع نهمه الى المال فلما تبين الغضب في عيني محمد ، عمد الى الخديعة فوقف بين يديه وهو يظهر الاستغراب وقال : «لقد عجلت يا مولاي بالحكم علي ، وأنا انما ادعوك الى امر عائدته لك ولاهل بيتك ، ولا ألتمس على ذلك اجرا ولا شكورا » •

فقطع محمد كلامه وهو ينظر اليه شزرا وقال : «أتظن امرك يخفى علي ؟• لقد قرأت المكر والخديعة في عينيك • ولولا حرمة الجــوار لألحقتك بالمختار وألحقت بك بني ثقيف !» • ثم نادى : «سعيد» •

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح ، وأسرع حتى دخل على محمد ، وحسن وبلال ينظران وقد غلب عليهما السرور •

فلما وقف سعيد بين يدي محمد قال له : «الق هذا الكرسي فــي النار ، وأخرج هذا الثقفي من خيمتي ، وليقم حيثما يشاء واذا رحــل

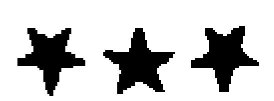
تزودوه بما يحتاج اليه» •

فلما سمع عرفجة ذلك خرج من تلقاء نفسه وهو يظهر الاسف ، وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط ، فوجده يبحث عن عبده قنبر فلما لم يجده التفت اليه وقال : «اني راحل الى بلدي وقد اسفت لان الامام محمدا لم يفهم مرادي» • قال ذلك متلطفا خوفا على حياته • فعجب سعيد للفرق العظيم بين هذا التزلف وبين مقابلته الخشنة ساعة وصوله بالامس — وذلك شأن اهل الكبرياء يستبدون بالضعفاء من الناس • فاذا لقوا قويا استولى عليهم الذل وصغرت نفوسهم • لان ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم يكن عن نفس كبيرة وانما هو ضعف رأي وصغر نفس •

وكأنما رق قلب سعيد لتزلف عرفجة ، فعرض عليه النزول في دار الاضياف فاعتذر برغبته في الرجوع ، وكان قنبر قد عاد فناداه وأمره باعداد العدة للرحيل ، ثم ركب عرفجة جملا وقنبر الجمل الاخر وخرجا من الشعب يلتمسان معسكر الحجاج • فلما بعدا عن الخيام اخذ عرفجة يتوعد محمدا بالسوء عند الحجاج ويذكره بكل قبيح من الشتم والسباب ليستر ما بدا لعبده من فشله •

اما سعيد فانه عاد الى فسطاط محمد وتناول الكرسي وألقاه في النار وعاد الى حسن وبلال في خيمته فأخبرهما بخروج عرفجة من الخيام ، وهنا عاد حسن الى التفكير في دخول مكة فسأل سعيدا في ذلك فأجاب بقوله : «سألت مولاي الامام في هذا الشأن فأمر بذهابي معكما لاني تعودت الذهاب الى مكة خلال الحصار وأكثر الطلائع يعرفونني» • قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه في الذهاب معهما فأذن له •

وعاد سعيد اليهما بالاذن فخرجا الى دار الاضياف ليتأهبا للسفر ، وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد ، فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفه ، والشمس قد تكبدت السماء •



وفيما هم يسيرون وحسن يفكر في مهمته وكيف يدخل على عبد الله ابن الزبير وليس معه كتاب خالد ، رأوا غبارا يتصاعد في الافق من جهة طريق المدينة ، ثم انقشع الغبار عن أعلام تخفق وخيول تركض وجمال تجعجع ، فلما اقترب الركب تفرس حسن في الاعلام والناس ، فأدرك انهم من أنصار بني أمية وأنهم قادمون من المدينة لنجدة الحجاج ٠

ولكنه استغرب وصولهم في ذلك اليوم مع انه آقلع قبلهم ، والسيارة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم ، فظن نفسه مخطئا في حكمه عليهم فأعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق انها لاهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها ، وعلم من عظم السرعة التي مشت بها تلك الحملة ما يدل على اضطرار الحجاج اليها ٠ فترجل حسن ورفيقاه والتجأوا الى مكان يرون الركب منه ولا يراهم احد ؛ وجعل يتفرس في وجوه الناس ٠

ومر الفرسانَ وحملة الرايات اولا ، ثم تبعهم المشاة ، فأحمال الزاد والمؤونة ٠

وأخيرا رآى هودجا يقوده عبد ويسوقه عبد والى كل من جانبيه فارس ٠ ولم ير في تلك الحملة هودجا غيره وكان من عادة العرب في الجاهلية وأوائل الاسلام ان يحملوا معهم النساء والاولاد حين يخرجون الى القتال ٠ فاستغرب حسن امر هذا الهودج وتبين من الاحتفاء بأمره انه لبعض الامراء ٠ وما درى انه يقل حبيبته التي سلبت لبه وانهم يحملونها الى سواه ٠ ولو درى ذلك لطارت نفسه شعاعا اليها ٠ ولو صح ما قاله الشعراء من تواصل القلوب عن بعد لاضطرب حسن وخفق قلبه ودله على ساكنة الهودج ٠

وظلوا وقوفا يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها اتجهت الى جبل ابي قبيس ، فتحققوا انها نجدة المدينة الى الحجاج ، لعلمهم بأن الحجاج مخيم هناك ٠

- ١٢ -

رمي الكعبة بالمنجنيق

سار حسن وصاحباه حتى اقبلوا على مكة فرأوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها ، وجاء اليهم بعضهم ، فتقدم سعيد لاستقبالهم وأخبرهم بأنهم ذاهبون في شأن يخص ابن الحنفية ، فأذنوا لهم في الدخول .

ونظر حسن الى جبل ابي قبيس فرأى فيه خياما وحولها الناس وقد صغرت أشباحهم لبعد المسافة . وبعد قليل وصلوا الى تل فيه بعض المدافن فقال سعيد : «اننا في الحجون» . فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة فأشرف على المسجد الحرام والكعبة في وسطه . وكان قد زار مكة من قبل ورأى الكعبة لكنه رآها اليوم اكبر مما عهدها ، ورأى على سطحها اشياء غريبة كالفرش والاثاث ، فوقف هنيهة يفكر في الامر ، ثم قال لسعيد : «اني ارى الكعبة على غير ما أعهدها فيه ، وكأنها اتسعت ، وكأن عليها فرشا وأثاثا ، وكأن على ارض المسجد خياما !.. ألست ترى ذلك ؟»

فقال سعيد : «لقد صدق ظنك ، فالكعبة الان اكبر مما تعهدها لانها احترقت في الحصار الماضي على عهد يزيد بن معاوية ، فأعاد ابن الزبير بناءها ووسعها الى ما كانت عليه في الزمن الاول قبل ان تبنيها قريش. وأما ما تراه على سطحها فهو ألواح من الساج وضعها عبد الله هناك ووضع فوقها الفرش والقطائف وقاية لها من حجارة المنجنيق ، لان الحجاج نصب المنجنيق على جبل ابي قبيس وجعل يرمي الكعبة بالحجارة نكاية بابن الزبير» .

فقطع حسن كلامه وقال : «أعوذ بالله ! أيرمون بيت الله بالحجارة؟»

فقال : «هذا عمل الحجاج فانه رجل ظالم لا يبالي شيئا في سبيل مقاصده ، فقد رأيناه يرمي الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها • واتفق في الحجة الماضية ان عبد الله بن عمر حج ، وكان مولاي الامام محمد في جملة الحجاج ؛ فكنا نطوف والحجارة تتساقط علينا ، فبعث ابن عمر الى الحجاج يقول له : (اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك في شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الارض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا ، وان المنجنيق قد منعهم من الطواف والسعي) • فلما فرغوا من طـــــواف الزيارة نادى منادي الحجاج : (انصرفوا الى بلادكم فانا نعود الى رمي الحجارة على ابن الزبير الملحد)• وسمعت انه اول ما رمى الكعبة بالمنجنيق ارعدت السماء وأبرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة ، فأعظم رجاله الامر وأمسكوا أيديهم • فأخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيه ورمى بها معهم • فلما اصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من اصحابه اثني عشر رجلا فقال الحجاج لرجاله: (يا اهل الشام لا تنكروا هذا • فاني ابن تهامة وهذه صواعقها • وهذا الفتح قد حضر فأبشروا) • فلما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت نفرا من اصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : (ألا ترون انهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلافها) ••»

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوه وساق جمله حتى نزلوا اسواق مكة فقال لسعيد : «لقد بلغنا مأمننا ، فاذا رأيت الرجوع فارجع جزاك الله خيرا» •

فقال : «بل أوصلكما الى المسجد فأطوف طوفة وأعود» •

ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية فقال سعيد : «هذا صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة • انظر الى حمام الحرم

كيف يطاير اجفالا من صوت وقوعه» •

وكان حسن قد أحس بالجوع لانهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا، فقال لسعيد : «بالله ألا اخذتنا الى احد باعة الاطعمة فنأكل شيئا» • فضحك سعيد وقال : «ان الاطعمة قليلة في مكة والناس في ضنك شديد من الجوع ، فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم ، والمد من الذرة بعشرين درهما ، وقد سمعت ان ابن الزبير اضطر لما اصاب رجاله من المجاعة ان يذبح فرسه ويقسم لحمها فيهم» • قال ذلك وأدنى فمه من أذن حسن وقال بصوت منخفض : «ولكنني أعلم ان بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا اختزنها خوف المجاعة ، ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار ، والحجاج ورجاله ينتظرون فراغ ما عنده من المؤونة ليستسلم » •

فقال حسن : «لا بد من ابتياع شيء نأكله ولو كان غاليا» • وأشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشيء من خبز الشعير والسويق فأكلوا على عجل ، وساروا حتى اتوا المسجد الحرام ، فدخل حسن وسعيد الى المسجد وهما يتظاهران بالرغبة في الطواف ، ثم سأل حسن عن ابـــن الزبير فقيل له : «انه يصلي بجانب الكعبة» • فسأل : «وأين يذهب بعد الصلاة ؟» • فقالوا : «انه يذهب الى بيته» • ثم دله سعيد على بيت ابن الزبير وودعه وعاد الى الشعب •

وبعد ان صلى حسن ركعتين وطلب الى الله ان يرشده الى الصواب، جلس في بعض أطراف المسجد ينتظر فراغ عبد الله من صلاته ، وجعل يفكر في امر المهمة التي جاء لاجلها ، والوقت ليس وقت خطبة ولا زواج• ثم تذكر ما كان من امر سمية وانتظارها رجوعه ليقترنا • وانتقل بـــه التفكير الى ما كان من امر عرفجة في ذلك الصباح ، وخيل اليه ان الفشل الذي اصابه سيحمله على العودة الى المدينة لانه لا يستطيع الغياب عنها

طويلا وليس عند سمية احد ، ولعله يعـــدل بعد ذلك عن رفضـــه تزويجها له .

ولاحظ ان من يدخلون المسجد قليلون ، ثم ما لبث ان سمع قرقعة وأحس شيئا هوى بالقرب منه وسمع رفرفة أطيار فالتفت فرأى حجرا كبيرا اصاب الكعبة وسقط على الارض ، فعلم انه من أحجار المنجنيق وقد أجفل حمام الحرم من وقعه فتطاير ثم عاد فوقع على جوانبها وعلى جدران المسجد . ولم ير الناس يهتمون لتلك الحجارة لانهم ألفـــوا سقوطها بينهم .

وتذكر ان عبد الله يصلي بجوار الكعبة فاستغرب تعريضه نفســه لحجارة المنجنيق ، وخاف ان يكون ذلك الحجر قد اصابه ولاسيما ان وقت صلاته طال . فقلق عليه ، ونهض فسار في فناء المسجـــد يلتمس الكعبة حتى مر بالحطيم وحجر اسماعيل ، ودار نحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الاخرى بضعة رجال وقوفا . فأقبل عليهم ليسألهم عن عبد الله ، فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجدا قد استقبـــل الارض بوجهه ، ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كأنهمـــا واقفتان على حائط والرجل لا يتحرك . فخيل له انه ميت ، واستغرب وقوف الناس هناك دون ان يهتموا له . فاقترب من احدهم وحياه ، وسأله ما شأن ذلك الساجد ، فابتسم الرجل وقال : «آلا تعرف من هو؟ انه امير المؤمنين» .

فأدرك حسن انه عبد الله بن الزبير وزاد استغرابا وقال : «وما للحمام يقع على ظهره فلا يتحرك» .

قال : «انك غريب فيما يبدو ، فلا تعلم ان مولانا امير المؤمنين اكثر الناس صلاة وسجودا ، وكثيرا ما رأينا الطير على ظهره في اثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده» .

فقال حسن : «انه سجود طويل» .

وجاء رجل اخر كان واقفا هناك وقال : «انكم لا تعلمون من تقوى امير المؤمنين الا قليلا . اما انا فقد صحبته طويلا فرأيته يقضي لياليه على ثلاث : ليلة يقضيها قائما الى الصباح ، وليلة راكعا ، وليلة ساجدا . ناهيك بصومه فانه يصوم الدهر كله الا ثلاثة ايام يفطرها في كل شهر» .

فدهش حسن وقال في نفسه : «يجدر بمن كان هكذا ان يكتب له النصر » .

وفيما هم وقوف سمعوا صوتا كهزيم الرعد ، ادركوا انه صوت المنجنيق فتنافروا ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقـــط الى الارض بجانب ابن الزبير فنفر الحمام عنه وهو لا يزال ساكنا لا يتحرك . فذهل حسن وقال لصاحبه : «ألا تخافون على حياة امير المؤمنين ؟»

قال : «لقد طالما نبهناه الى ذلك وكثيرا ما وقع له مثل ما تراه وهو لا يبالي » .

فقال حسن : «أرجو ان يحرسه الله» .

فقال الرجل : «ان الله حارسه لفرط تقواه وكثرة عبادته ، وقد وقع هنا في العام الماضي سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف فطاف امير المؤمنين سابحا !»

- ١٣ -

فشل ابن الزبير

تأمل حسن في وجه مخاطبه وهو يتكلم والاهتمام باد في محياه لا

يدري بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له ، ورآه موجها نفسه اليه كأنما يتوقع ان يسأله عن ابن الزبير ليشرح له مـــا يعلمه من تقواه وشجاعته وصدق دعوته . قرأ حسن كل ذلك في عيني الرجل فأدرك انه من أشد أنصار ابن الزبير غيرة عليه ، وتبين له مـــن قيافته وهندامه انه من وجهائهم . وزاد اعتقادا في وجاهته لما آنسه من لطفه ودعته ، لان الانسان يزداد لطفا ووداعة بازدياد منزلته رفعة : فاذا رأيت جفاء وكبرياء من احد الناس وأنت لا تعرفه فاعلم انه دنيء الطبع ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر ، ولا بما في خزائنه مـــن الاموال الطائلة .

وبينما حسن يفكر في ذلك ومخاطبه واقف الى جانبه ، سمعا عبد الله ينادي : «اين ابن صفوان ؟» . ثم رأى الرجل الذي كان يخاطبه بغت وأسرع الى عبد الله يقول : «لبيك يا امير المؤمنين» .

ففهم حسن انه عبد الله بن صفوان الجمحي . وكان قد سمع عن حبه لابن الزبير وتفانيه في نصرته : وهو أصلع في نحو الستين من عمره، عريض الجبهة خشن الملامح عريض الفكين ، مما يدل على الثبات والقوة. ثم التفت حسن الى ابن الزبير وتهيأ للسلام عليه اذا مر بجانبه فاذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة في أسفل ذقنه خفيفة فـــي عارضيه . وتفرس فيه وهو يصلح عمامته عند نهوضه من الصلاة فرأى شعره جمة مفروقة طويلة . وتأمل في وجهه فرأى الهرم قد بدا فـــي ملامحه لفرط ما قاساه من امر ذلك الحصار وشدة ما احاط به من الضيق، وهو في الثالثة والسبعين من عمره ؛ لانه اول مولود ولد للمسلمين بعد الهجـــرة .

وهم حسن بالسلام عليه وتقبيل يده ؛ ولكنه رآه اتجه الى موضع اخر دون ان يلتفت الى احد ، وأعجب بشيته الثابتة التي تدل على جلال

ووقار ، ورأى ابن صفوان يسير في أثره مراعيا اياه بعينيه وكل جوارحه، وفي مشيته عرج ، فعلم انهما سائران الى البيت ، فاقتفى أثرهما وهـو يفكر في مخاطبة عبد الله بالامر الذي جاء من اجله لكنه تهيب واستحيى لما رآه فيه من الاضطراب والضيق ، ورأى ان يتحين لذلك فرصة اخرى.

وخرج عبد الله من المسجد وابن صفوان يتبعه وحسن في أثرهما . وكان الناس يقفون في الطريق لتحية عبد الله . حتى اشرفوا على دار واسعة قد غصت بالواقفين من الناس ، وخارجها مرابط الخيول والمعالف. فلما أقبل عبد الله على الدار توجهت أبصار الناس اليه ووسعوا له ، فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى أشرف على مقعد في صدر القاعة فجلس عليه الاربعاء ، وجلس الى يمينه شاب كبير الشبه به . فأدرك حسن انه احد اولاده . ثم جاء شابان آخران فجلسا عن يساره ؛ وجلس بقية القوم بين يديه لا يفوه احدهم بكلمة لفرط ما اخاط بهم من الامر العظيم. ولبثوا هنيهة كأن على رؤوسهم الطير . اما حسن فرأى نفسه غريبا بين هذه الجموع ، وهم بالخروج فرأى ابن صفوان يشير اليه من بعض جوانب القاعة داعيا اياه الى الدخول ، فمشى اليه وجلس الى جانبه وقال له : «يسرني اني عرفتك اليوم وقد طالما سمعت باسمك» . فقال ابن صفوان : «فهلا انتسبت لاعرفك انا ايضا» .

قال : «سأطلعك على امري فيما بعد ، فلا غنى لي عن معونتك» .

وكانا يتكلمان همسا والناس سكوت ، وربما ادرك احدهم السعال فأمسك عنه . فالتفت حسن الى ابن صفوان وقال له : «اي ابناء امير المؤمنين هؤلاء ؟»

قال : «ان الذي تراه الى يمينه هو اخوه عروة بن الزبير . امـا الجالسان الى يساره فولداه حمزة وحبيب ، وترى على مقربة منهما شابا مطرقا هو الزبير ولده الثالث ؛ وان هذا الشاب لجدير بأن يكون ابن

امير المؤمنين» • ثم تهيأ للنهوض قائلا : «لا بد لي من مفارقتك الان لامر يدعو الى ذلك ، فاننا في مجلس ذي بال اليوم ، وستسمع وترى فان هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل» • ثم سار حتى وقف على مقربة من عبد الله فأشار اليه عبد الله ان يقعد •

وبعد قليل ، وقف احد الجالسين وخاطب عبد الله قائلا : «يا امير المؤمنين ، اننا بحمد الله نؤمن بصدق دعوتك وانك على الحق • وقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك ما نزيد على ان نموت• وانما هي احدى خصلتين ، اما ان تأذن لنا فنأخذ الامان لانفسنا ، واما ان تأذن لنا فنخرج» •

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق ضعف القوم وانهم صائرون الى الفشل • ثم سمع ابن الزبير يقول : «ألم تبايعوني على انفسكـــــم وأموالكم ؟ »

فقال الرجل : «بلى ولكنا نرجو ان تقيلنا بيعتنا ، اذ لا نرى فائدة من البقاء عليها» •

فقال عبد الله : «انني عاهدت الله على ألا يبايعني احد فأقيله بيعته الا ابن صفوان» •

فالتفت حسن الى ابن صفوان فرآه قد وقف بغتة والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه وقد ظهر التأثر في وجهه وقال : «اما انا فاني أقاتـــل معك حتى اموت ولا أسلمك في مثل هذه الحالة» •

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الاصوات وضج الناس، وانقسموا شيعا وأحزابا ، وبدا ان اكثرهم لا يرون رأي ابن صفوان • فشق ذلك على حسن ودبت الحمية في عروقه فوقف وقال : «بورك فيك يا ابــن صفوان ، بورك في رجل بايع وثبت على بيعته ، ان امير المؤمنين كمـــا تعلمون اولى الناس بهذا الامر ، وذلك لان عثمان استخلفه على داره يوم

مقتله فهو ولي عهده من ذلك اليوم • وانكم لتعلمون انه نعم الخليفة لا تغره بهارج الدنيا • ألا ترون عبد الملك بن مروان كيف يستعين على هذا الامر بالمال والرجال ؟ في حين يستعين امير المؤمنين بالصوم والصلاة• تلك هي خلافة الراشدين رحمهم الله اجمعين • الم تسمعوا ماذا فعل عبد الملك يوم جاءه الخبر بالبيعة بعد موت ابيه مروان ؟• انتم تعلمون ان عبد الملك كان من فقهاء المدينة ، ولكثرة ما كان يظهره من التديـن والتقوى سموه حمامة المسجد • فلما مات ابوه وبشر بالخلافة كـان المصحف في يده فأطبقه وقال : (هذا فراق بيني وبينك !) • فأين هذا من سجود امير المؤمنين وصلاته وصيامه مما لا يخفى على احد • هذا وان لامير المؤمنين بيعة في أعناقكم ، وأنتم جماعة قريش اهل الحماسة والنخوة ، فكيف تغادرون امير المؤمنين في مثل هذه الحال ؟• أما لكم اسوة بابن صفوان ؟»

وكان حسن يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد امتقع لونه وأيقن ان القوم قد نكصوا على أعقابهم • ولكنه لم يستطع غير الانتصار لما رآه حقا • وكانت الابصار شاخصة اليه لانه غريب لم يعرفه احدهم • وكان عبد الله بن الزبير ينظر اليه ويعجب بغيرته • فلما فرغ من الكلام علت الضوضاء فوقف رجل اخر وقال : «لقد نطقت بالصواب ، وان البيعة في أعناقنا لا ننكرها ، وما نحن خارجون من بين يديه الا بأمره • ولكننا نرى القتال اصبح عبثا ، ومعنا من الرجال عشرة آلاف ، وقد جعنا جميعا وعطشنا وقلت مؤونتنا وذخيرتنا • وهذه منجنيقات الحجاج ترمينا من فوق الكعبة لا يبالي حرمة هذا البيت • وقد نصب لنا الحجاج الان راية الامان فمن خرج اليها سلم • فما بالنا لا نختار الطريق الاسلم» • ثم التفت الرجل الى عبد الله بن الزبير وقال : «اكتب الى عبد الملك بـن مروان لترى رأيه فلعلكما تنتهيان الى امر فيه صلاح الحال» •

فلما سمع عبد الله اسم عبد الملك بن مروان أجفل وتغير وجهه وقال: «كيف أكتب اليه ؟.. أبدأ بنفسي او أبدأ به . أأكتب (من عبد الله امير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟) . فوالله لا يقبل هذا ابدا . ام أكتب (لعبد الملك بن مروان امير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟) . فوالله لان تقع الخضراء على الغبراء أحب الي من ذلك» . قال ذلك وعاد الـى اطراقه ، وسكت الناس ينتظرون رأيا جديدا فاذا بعروة بن الزبير اخـي عبد الله التفت اليه وهو جالس بجانبه على المقعد وقال له : «يا امـير المؤمنين قد جعل الله لك اسوة» .

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب في جبينه : «من هو ؟»

قال عروة : «حسن بن علي ، فانه خلع نفسه وبايع معاوية» . ولم يتم عروة قوله حتى رفع عبد الله رجله وضربه بها حتى القاه عن المقعد . فأجفل الناس من سقوط عروة وأعظموا غضب عبد الله فتهيبوا ، ثـم سمعوه يقول له : «يا عروة . والله لو قبلت ما يقولون ما عشت الا قليلا ولا اخذت الا الدنية . وان ضربة بسيف في عز لخير من لطمة في ذل». ثم وقف والتفت الى الجموع ولحيته ترقص في وجهه من شدة التأثـر وقال لهم : «انتم مخيرون فافعلوا ما تشاءون ، وان رجلا يجر الى الحرب بحبل لا يحارب ، وان الله وليي ونعم النصـير» . قال ذلك وأراد الانصراف ، فوقف ولداه حمزة وحبيب وقالا : «هل نحن مخيران ايضا؟»

فعجب حسن لما سمعه وقال في نفسه : «حتى اولاده تخلوا عنه». والتفت الى عبد الله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما من الدمع ثم قال : «نعم وأنتما ايضا في حل ، امضيا واطلبا الحياة ولا تموتا» . ثم اختنق صوته فسكت ريثما ابتلع ريقه ونظر الى ابنه الثالث الزبير وقال له : «يا بني اطلب لنفسك أمانا مع أخويك فوالله اني لاحب بقاءكم» .

فوثب الزبير من مجلسه وقال ولم يبد على وجهه شيء من الخوف : «حاش لله ان أتخلى عنك فما كنت لأرغب بنفسي عنك» .

***

انصرف عبد الله من باب يؤدي الى دار النساء ، وظل حسن واقفا يسمع ما يدور بين الحاضرين . فعلم انهم اجمعوا على الخروج الى الحجاج يلتمسون أمانه . وأدرك ان أشد ما أبعدهم عن عبد الله انه يقتر عليهم، في حين يسخو عبد الملك على بني أمية ويبذل الاموال لمناصريه . فساءه ذلك لاعتقاده ان هؤلاء انما ارادوا الخروج رغبة في العطاء ، وان صبر ابن الزبير لا يفيده شيئا ولكن الانسان لا يعيش في هذه الدنيا عمرين وانما هي موتة فلا كانت عيشة تشرى بالشرف والمروءة .

وأحس حسن بيد أمسكته ، فالتفت فاذا بابن صفوان يدعوه اليه فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول : «ان امير المؤمنين يدعوك وقد أحب ان يراك» . قال ذلك وتركه هناك وخرج .

فسر حسن لهذه الدعوة ورآها فرصة لاداء المهمة التي جاء لاجلها ، وان كان الكلام فيها لا يجدي نفعا .

ثم عاد اليه ابن صفوان وأشار اليه ان يتبعه ، ومضى به الى حجرة رأيا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد اخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وهو تارة يمسح جبهته وطورا يحك لحيته ، وآونة يشمر عن ساعده او يرسل كمه مما يدل على عظم البلبال . وتأمل حسن في تلك الحجرة فاذا هي لا شيء فيها من الاثاث غير حصير ومقعد . فلما اقبلا عليه تقدم حسن اليه وسلم بالخلافة فرحب به ودعاه الى الجلوس على المقعد ، فلم ير الجلوس وابن الزبير واقف ، فألح عليه هذا بالجلوس وقال : «دعني واقفا وسأجلس بعد هنيهة» .

فجلس حسن وبقي صفوان واقفا مكانه يراعـــي عبد الله ويراقب حركاته ولا يتكلم .

ثم التفت عبد الله الى حسن وقال : «من اين قدمت ؟»

قال : «من الشام» .

فبغت عبد الله عند سماع اسم الشام لان فيها اعداءه ومناظريه ، والتفت الى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته في الاستغراب فرآه لا يقل عنه استغرابا ، فقال عبد الله : «وما الذي جاء بك الينا ونحن في هذه الحال . لعلك جاسوس ؟»

قال : «معاذ الله يا مولاي !. كيف اكون جاسوسا وأفعل ما فعلته اليـــوم ؟ »

فجلس عبد الله على جانب المقعد وأمر ابن صفوان بالجلوس فجلس. ثم قال عبد الله : «لا غرابة فيما ظهر منك ان كنت جاسوســـا ، لان الجواسيس يتلونون تلون الحرباء . على اني لا أبالي مهما يكن مـــن امرك فما انا ممن يستعينون بالجواسيس وأنا لا اخافهم وانما أستعين بالحق والعدل» .

فوقف حسن وهو يقول : «العفو يا مولاي ، اني أجل نفسي عــن الجاسوسية في هذا السبيل ، وانما انا رسول اليك في مهمة لا ارى مسوغا للكلام فيها الان» .

قال : «وماذا تعني ؟ وكيف لا مسوغ لها ؟. قل .. لا بأس مما تراه من الاحوال . من ارسلك الينا من الشام ؟. لعلك قادم من عبد الملـــك بنصيحة ؟ »

قال : «لا يا مولاي ، بل انا قادم من عند خالد بن يزيد بن معاوية».

قال : «وهو ايضا أموي ، وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك وان يكن أعرف منه بالكيمياء والشعر وما الى ذلك» .

فقال حسن : «ما كنت أحسب الحقيقة تخفى على مولاي امير المؤمنين فانها عكس ذلك على خط مستقيم» .

قال : «كيف يكون هذا وكلاهما أموي وقد اتحدا علينا وقاما لحربنا ؟ »

قال : «اما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد . ولو عرفت ما بينهما من الدخائل لتحققت ان خالدا أرغب في بيعة امير المؤمنين من آل العوام انفسهم» .

فقال عبد الله وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف : «وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذي أمر بحصار هذا البيت وقاتلنا حتى هدم الكعبة بمنجنيقاته ثم احترقت وأعدنا بناءها ؟»

فقال حسن : «صدقت يا مولاي انه ابن يزيد بن معاوية ، ولكن لا يخفى عليك انه لما مات يزيد كان الحصين بن النمير لا يزال محاصرا البيت الحرام وأنتم فيه ، وهو لا يعلم بموت خليفته يزيد ، وقيل انكم عرفتم بموته قبله ، واذا صح ما سمعته عما دار بينكم وبينه في شأن الخلافة » .

فقطع عبد الله كلامه وقال : «أظنك تعني انه عرض علي البيعة بعد موت يزيد ؟»

قال حسن : «نعم يا مولاي ذلك ما أعنيه ، ولو انك اجبته الى هذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك» .

فتقطب حاجبا عبد الله بغتة كأنه تذكر امرا يؤلمه ذكره وقال : «ولكنه اراد ان أذهب معه الى الشام ، وأبى الا ان تكون البيعة هناك» .

قال : «وما منع مولاي ان يذهب الى الشام ، انك لو ذهبت معه اليها وقربته منك لم يختلف عليك احد» .

فأسرع عبد الله في قطع الكلام لانه لا يحب ان يتذكر الخطأ الذي

ارتكبه في ذلك ولولاه لكان بنو العوام خلفاء الاسلام بدل بني أمية لشدة اضطراب حال بني أمية في ذلك الحين • وقال لحسن : «ثم ماذا؟» أوصلنا الى حديث خالد» •

قال : «لما مات يزيد بايع اهل الشام ابنه معاوية (الثاني) كما تعلمون وهذا لم يكن يرى لبني أمية حقا في الخلافة كما صرح جهارا في خطابه بعد ان تولاها بأربعين يوما ، فانه أمر فنودي : (الصلاة جامعة) • فلما اجتمع الناس وقف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (اما بعد ، فاني ضعفت عن أمركم ، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم اجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم اجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا • ما كنت لأتزودها ميتا وما استمتعت بها حيا) • ثم دخل داره وتغيب حتى مات • فلما مات معاوية هذا اختلف الناس فيمن يولونه ، واضطربت الاحوال حتى آل الامر الى مبايعة مروان بن الحكم لانه أكبر بني أمية سنا • وكلنا نعلم شأن هذا الرجل في امر عثمان وكيف انه قد أوقد جذوة تلك الفتنة التي لم تتخلص من عواقبها الى اليوم • وهكذا تولى الخلافة مروان دون خالد بن يزيد الذي كان أحق بها منه ، بحكم نظام الوراثة الذي وضعه جده معاوية • على ان بني سفيان لم يرضوا ببيعته حتى عاهدهم على انه يجعل الخلافة بعده لخالد • فلما تولاها مروان حدثته نفسه ان يخرجها من نسل معاوية الى نسله ، فتزوج أم خالد حتى تصغر نفس خالد عن طلب الخلافة • واتفق بعد بضعة اشهر ان مروان ناظر خالدا في شأن وشتمه وأهان امه ، فخرج خالد الى امه وأطلعها على ما كان فقالت له : (دعه فانه لا يقولها بعد اليوم) • وفي المساء جاءها مروان وسألها : (هل اخبرك خالد بما جرى بيننا) • فقالت : (يا امير المؤمنين ، خالد أشد تعظيما لك من ان يذكر لي خبرا جرى بينك وبينه) • فلما امسى المساء وضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليها هي

وجواريها حتى مات ولم يتم السنة في خلافته ، والناس يظنونه مات حنف أنفه . فخلفه ابنه عبد الملك وهو يعلم بالامر ، ولكنه خشي اذا انتقم لابيه ان يفتضح امره ويقال ان امرأة قتلته . فظل حاقدا على خالد ؛ وظل خالد ينظر اليه نظره الى مختلس . ولهذا قلت لمولاي امير المؤمنين ان خالدا أرغب من آل العوام في خلافتك» .

★ ★ ★

لما فرغ حسن من كلامه ؛ اطرق عبد الله طويلا ؛ وشعر حسن وابن صفوان بما يجول في خاطره في اثناء ذلك الصمت الطويل . ثم رفع رأسه بغتة ونظر الى حسن وقال : «لقد فات الوقت ، ما يقدره الله فهو كائن . على اني ما اظن خالدا يرضى بخروج هذا الامر من بني أعمامه الى رجل حاربه ابوه عليه . ولا ارى ثمة مسوغا لذلك» . ثم استدرك فقال : «ولكنك لم تذكر بعد ما هو الامر الذي جئت لاجله ؟»

فقال حسن : «انه امر لا يستحسن الخوض فيه الان !»

قال : «بل قل» .

قال : «لقد بعثني خالد الى امير المؤمنين خاطبا» .

قال : «من ؟ ولمن ؟»

قال : «مولاتي رملة اخت امير المؤمنين ، الى مولاي خالد بن يزيد . وقد كتب بذلك كتابا فقدته في المدينة لسبب يطول شرحه» .

فوقع الطلب موقع الاستغراب عند عبد الله لما بينه وبين بني أمية . على انه لما تذكر ما سمعه من حسن مال الى تصديق الامر ؛ وان بقي مرتابا في حقيقة مهمته ، فقال له : «اذا كان خالد كما وصفت فاني أرحب بمصاهرته ، وكنت أود الاطلاع على كتابه . وليس هناك ما يدعو الى العجلة والحال على ما ترى . فلنصبر حتى يقضي الله بيننا وبين هذا

الطاغية الذي يرمي بسنجنيقاته بيت الله ولا يخاف عقابا» •

فقال حسن : «ذلك ما دعاني الى التردد في تبليغ الرسالة ، ولكن يكفيني ما علمته من رضاكم ، رغم اني لا احمل كتاب خالد • وسأكتب اليه لأطمئنه بالقبول ولكي يرسل كتابا اخر في هذا الشأن • ثم انـي أعرض على مولاي ان اكون في خدمته لعلي استطيع امرا يكون فيه مصلحة له • فهل ترى ان أذهب الى الحجاج فأكلمه في شأن الهدنة او الصلح فربما كان لكلامي وقع عنده لاني أعد من أنصار بني أمية فلا يرتاب في اخلاصي ؟»

فقطع عبد الله كلامه وقال : «لا •• لا •• دعهم وما يفعلون ، اني لا أريد وساطة لدى عبد ثقيف » • قال ذلك ووقف ، فوقف حسن وحياه ثم انصرف من غير الباب الذي دخل منه ، وكان الليل قد ارخى نقابه فتبعه ابن صفوان وناداه قائلا : «رويدك يا اخا العرب» •

فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه ، فأمسك هذا بيده وأدنى فمه من أذنه وقال همسا : «تعال معي» •

فمشى معه حتى دخلا دارا بجانب دار ابن الزبير ، فأدخله غرفة خالية وقال له : «سمعتك تعرض على امير المؤمنين التوسط لدى الحجاج في المهادنة او نحوها ، وأمير المؤمنين لم يقبل ذلك أنفة منه • ولكنني أعلم ما نحن فيه من الضنك • وان المهادنة تفيدنا في لم شعثنا لاننا قد تشتتنا• لا اقول ذلك خوفا من الموت فاننا لا رغبة لنا في هذه الحياة ، وانما نحن نطلب الآخرة وبنو أمية يريدون هذه الحياة الفانية ويسفكون الدماء من اجلها • فاذا رأيت ان تقوم بهذه المهمة فافعل» •

قال : «سأسعى في ذلك جهدي ، ولعلي أوفق الى ما فيه الخير ان شاء الله » •

فقال ابن صفوان : «انزل الان في دار الاضياف اذا شئت ، او انزل

في داري » .

فقال حسن : «بل انزل في دار الاضياف ريثما أدبر الامر» .

قال : «ولكن الليل ادركنا ، فامكث عندنا الليلة ، فاذا اصبحنا خرجت الى حيث تريد» .

فتذكر حسن بلالا والجمل ، وكان قد تركهما بباب المسجد فقال : «ان خادمي ينتظرني بباب المسجد والجمل معه ، وأخاف ان يستبطئني فيظن ان قد مسني سوء» .

فقال ابن صفوان : «انه اذا استبطأك ، فسينام حيث هو ، وفي الغد نراه » .

فأطاعه حسن وبات عنده . وقضى معظم الليل يفكر في امر ابن الزبير وفي مسيره الى الحجاج ، ثم ادركه النوم فرأى في منامه انه لقي الحجاج وجادله في امر الكعبة وكيف يرميها بالمنجنيق ، فسمع من الحجاج كلاما غليظا ، فأفاق في الصباح وهو منقبض النفس .

ثم جاءه ابن صفوان بالطعام فأكل ، وعرض عليه ان يسير معه الى بيت الاضياف فقال حسن : «ارى ان أبحث عن الخادم والجمل» .

فقال : «لا خوف عليهما ، هلم بنا الى دار الاضياف لتعرفها فانها بجانب بيت امير المؤمنين ، ثم تذهب بعدئذ الى حيث تشاء» .

★ ★ ★

سار ابن صفوان مع حسن حتى أدخله دار الاضياف ، واتجه هو الى بيت عبد الله . ورأى حسن في الدار اناسا لم يعرف احدا منهم ، فجعل يتفرس في الوجوه لعله يرى خادمه بينهم ، فلما لم يجده هم بالخروج الى مواقف الدواب عسى ان يجده مع جمله هناك ، ثم رأى بلالا مقبلا والبغتة بادية في وجهه وعيناه شائعتان كأنه يفتش عن ضائع ، وما كاد بلال يراه

حتى سارع اليه وقال : «اين كنت يا مولاي • ان سيدي ابا سليمـــان يبحث عنك » •

فبغت حسن لذكر ابي سليمان لعلمه انه فارقه في المدينة وقد عهد اليه في تنسم أخبار سمية . فقلق لمجيئه ونهض وقال : «اين هو ؟»

قال : «تركته في المسجد وجئت للبحث عنك ؛ فهل أدعوه اليك ؟»

قال : «بل أذهب اليه» • وهم بالخروج فرأى اهل الدار في هرج ومرج يزاحم بعضهم بعضا كأنهم يوسعون الطريق لقادم عظيم ؛ فوقـــف مع الواقفين وسأل احدهم عن القادم ، فقال له : «ان ذات النطاقين قادمة الى دار الاضياف» •

فعلم انها أسماء بنت ابي بكر ، أم عبد الله بن الزبير ، وكان يحسبها قد ماتت لكبر سنها لانها ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة • فهي يومئذ قد بلغت المائة من عمرها • وكانت مشهورة بكبر العقل وسعـــة الصدر وصحة الدين • فأحب ان يراها فجعل يتطاول حتى اقبلت فاذا هي قد احدودب ظهرها وعميت ؛ وجاءت تتوكأ على عكاز ؛ وبجانبها رجل يسندها ويرشدها الى الطريق • ورأى الناس يدنون منها ويقبلون اطراف ثوبها تبركا بها . حتى اذا اقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم : «خافوا الله ولا تبخلوا على عباده بالطعام وان كان قليلا في الاسواق فان الله كفيل بطعام الغد» •

فعجب حسن لاهتمام أم الخليفة بأمر الاضياف على عجزها وضعفها، ولكنه تذكر ما يقال عن بخل ابنها عبد الله فظنها جاءت تحث الخدم على اكرام الضيوف لاعتقادها ان ذلك يدفع البلاء عن اهلها • ولا شك في انها كانت قلقة على ابنها عبد الله لعلمها بما يتهدده من الخطر العظيم •

وبعد ان مر موكب ذات النطاقين ، خرج حسن ومعه بلال وسارا الى المسجد ؛ وسارع حسن الى لقاء ابي سليمان • فحياه وقال : «ما وراءك

يا عماه ؟»

قال : «ان ما ورائي ذو بال يا بني» .

فبغت حسن وقال : «وما هو ؟. قل يا عماه . هل اصاب سمية سوء ؟ »

قال : «لم يصبها سوء ولكنها جاءت الى مكة» .

قال حسن : «جاءت الى هنا ؟. وأين هي ؟»

قال : «اصبر ريثما نجلس في بعض جوانب المسجد على انفراد وأقص عليك الخبر» . وكان المسجد خاليا من الناس خوفا من حجارة المنجنيق، فانتحيا ركنا فيه . وحسن في قلق شديد فلما جلسا قال : «قل يا عماه اين سمية الان فقد نفد صبري . وكيف جاءت مكة ؟»

قال : «انها جاءت مكة ، ولكنها الان خارجها» .

فانتبه حسن وقال : «لعلها عند الحجاج ؟»

قال : «نعم يا بني انها عنده» .

فصاح وهو لا يعي ما يقول وما في المسجد من يسمعه غير ابي سليمان : «وكيف كان ذلك ؟ أفصح بالله» .

قال : «اخذها زوجة له ، لان أباها عرفجة زفها اليه يوم سفرك ، وأرسلها مع الحملة التي بعث الحجاج يطلبها من طارق بن عمرو عامل المدينة » .

فلما سمع حسن ذلك أطرق كأنه أصيب بذهول ، وتذكر انه شاهد تلك الحملة بالامس مارة قرب مكة ومعها هودج يحرسه فارسان فارتعدت فرائصه وهز رأسه وقال : «أعوذ بالله !. أأرى سمية تساق الى الحجاج وأبقى واقفا انظر الى هودجها ولا أنقذها ؟. ولكنني لم اعرفها ولا بد من انقاذها من يد ذلك الظالم ، ومن يد ابيها الخائن الغادر قبحه الله» . ثم التفت الى ابي سليمان وقال : «وهل سيقت الى الحجاج برضاها ؟»

فقال ابو سليمان : «ما أظنها الا سيقت مرغمة • فقد علمت ان أباها احتال في اخراجها من المنزل الى ضواحي المدينة وسلمها للجند المعسكرين هنـــاك » •

قال حسن : «اذن هي الان امامنا في هذه الخيام قرب جبل ابـــي قبيس • لا بد لي من الذهاب اليها ، فاما ان أنقذها او اموت فـــي سبيلها » •

فقال ابو سليمان : «اعلم يا بني اني رهين اشارتك وقد قلت لك اني وقفت حياتي على خدمتك ، فاذا رأيت ان تبعثني في شأنها فافعل» •

فصمت حسن مفكرا ثم قال : «انني أحتاج اليك يا عماه في ابلاغ رسالة الى مكان بعيد» •

قال : «اني على استعداد للذهاب الى السند في خدمتك» •

قال : «لا •• بل الى الشام ، الى خالد بن يزيد ، فهل تقبل ؟»

قال : «افعل ان شاء الله ، اين الرسالة ؟»

قال : «اكتبها اليه الان وهي خاصة بالمهمة التي جئت لاجلها» •

قال : «اكتب وأنا بين يديك» •

فأخرج حسن من جيبه منديلا من القباطي (نسيج مصري) وكان قد أعد دواة وقلما في جيبه لمثل هذه الغاية • وجلس على حجر بجانب احدى عضادات المسجد فكتب أسطرا قال فيها :

«الى خالد بن يزيد من حسن • أما بعد فقد جئت البيت الحرام بعد ان مررت بالمدينة وأضعت فيها كتابك ، ولهذا حديث سأقصه عليك عند اللقاء • على اني واصلت السفر الى مكة ولقيت ابن الزبير وأبلغته الامر خلال اشتغاله بالحصار وضيق ما حوله ، فأجاب بالرضاء • ولكنه رأى ان تبعث اليه بكتاب اخر في هذا الشأن ، فاذا شئت فافعل ، وابعث الكتاب مع حامل هذا اليك ، وأنا باق هنا لامر يهمني كثيرا ، والسلام عليكـم

ورحمة الله» •

ثم سلم الكتاب الى ابي سليمان وقال له : «امض على عجل ، واحذر ان يعترضك الحراس حول مكة» •

قال : «لقد دخلت ولم ينالوا مني مأربا ، وسأترك بلالا في خدمتك لعلك تحتاج اليه في شيء» •

فأثنى عليه وودعه ، وعاد الى ما كان فيه من الاهتمام بأمر سمية ، فرأى ان يذهب الى معسكر الحجاج يبحث عنها ويستطلع خبرها • وكان كلما فكر في الامر ، وتصور انها زفت الى الحجاج ، اضطرب وثارت أشجانه واشتد قلقه ، حتى لم يعد يستطيع صبرا فعزم على الذهاب الى معسكر الحجاج بحجة انه مندوب من قبل ابن الزبير للمخابرة في شأن وقف الحرب ، ولكنه لم ير بدا من استشارة ابن صفوان لئلا يغضب ابن الزبير • فنهض لساعته وأسرع الى بيت ابن صفوان فلـــــم يجده ، فالتمسه في دار ابن الزبير ، فلم يجد احدا في القاعة التي كان الاجتماع فيها بالامس ، وبينما هو مار بالقرب من مرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة وقع نظره على رجل كان في خدمة ليلى الاخيلية ، فتوسم فيه الخير وناداه وقال له : «ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟»

قال : «جئت مع مولاتي» •

قال : «ليلى هنا الان ؟ وأين هي ؟»

قال : «هي عند امير المؤمنين في بيته ، وأظنها في حجرة امه ذات النطاقين » •

قال : «ومن اين اتيتم ؟»

قال : «من معسكر الحجاج» •

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه بأن ليلى لا بد ان تكون قد رأت سمية هناك وسمعت منها شيئا ، فلم يعد يصبر على لقائه ليلى وأخـــذ

يتمشى خارج البيت ، وكلما سمع حركة او صوتا ظنها خارجة ، حتى مل الانتظار فعاد الى الخادم وقال له : «هل اقمتم بمعسكر الحجاج طويلا؟»

قال : «اقمنا يوما وليلة ، ثم رأيت مولاتي اسرعت الى مكة ، وأرسل الحجاج معنا من أوصلنا اليها لئلا يعترضنا الحراس المحيطون بها» .

فأدرك حسن انها جاءت باشارة الحجاج فزاده رغبته في مقابلتها واستطلاع حقيقة الامر . وفيما هو يفكر في ذلك رأى ابن صفوان خارجا من الدار مهرولا . فلما تلاقت نظراتهما أقبل عليه ابن صفوان وقال : «احمد الله على اني رأيتك هنا ، فقد كنت ذاهبا للبحث عنك مخافة ان تكون قد مضيت في الامر الذي ندبت نفسك له بالامس» .

قال حسن : «وماذا تعني ؟»

قال : «أعني مقابلة الحجاج» .

قال : «وما الذي حدث ؟»

قال : «لقد جاءت ليلى الاخيلية من عنده ، لمثل ذلك الغرض . وقد سمعت من امير المؤمنين انه لا يرى صلحا ولا هدنة ، لان الحجاج لا يريد منه غير الاستسلام ، وهذا امر مستحيل عندنا والموت اهون منه» .

فقال حسن : «وأين هي ليلى الان ؟»

قال : «في دار النساء وقد نزلت عند مولاتي ذات النطاقين ، ورملة بنت الزبير عندها ايضا» .

قال : «هل من سبيل الى مقابلتها ؟»

قال : «ذلك يسير . هل اخبرها بأنك تطلب مقابلتها ؟»

قال : «افعل» .

- ١٤ -

سمية في بيت الحجاج

دخل ابن صفوان ، ثم عاد وأشار الى حسن ان يتبعه ، فدخل وراءه غرفة رأى فيها ليلى وحدها في انتظاره . فلما أقبل عليها قالت : «اذن انت حسن حقا ؟. كيف اذن أكدوا لي انك قتلت ؟»

فابتسم وقال : «كدت أقتل . ولكنني حي الان فأخبريني هل كنت في معسكر الحجاج ؟»

قالت : «نعم» .

قال : «وهل رأيت سمية هناك ؟»

قالت : «نعم رأيتها» .

فخفق قلبه عند سماع جوابها وعاد يسألها قائلا : «هل رأيتها حقيقة؟»

قالت «رأيتها ورأتني ، وكلمتها وكلمتني !»

قال : «بالله كيف حالها ؟ وما الذي جرى لها ؟»

قالت : «اراك غائبا عن الدنيا ؟ ألم تعلم انها حملت الى الحجاج لتزف اليـــه ؟ »

فلما سمع ذكر الزفاف صعد الدم الى وجهه وقال وهو يظهر التجلد: «نعم علمت ، ولكن هل زفت اليه حقا ؟»

قالت : «زفت اليه منذ يومين ، وهي الان في داره مع نسائه» .

قال : «في داره مع نسائه ؟. اذن صارت زوجة له ؟»

قالت : «نعم» .

قال : «وهل ذكرتماني في حديثكما ؟»

قالت : «ذكرناك وبكينا عليك وهي التي اخبرتني بموتك» .

قال : «وهل هي آسفة على موتي ؟»

قالت : «اما قلبها فمعك ، فهي لا تفتر عن ذكرك لحظة مع حبها من لقائك ، لا يهنأ لها العيش مع احد غيرك» .

فأبرقت أسرة حسن عند سماعه ذلك وقال : «اذا كان الحجاج عقد قرانه بها كما تقولين ، ويئست من لقائي فكيف ألقاها ؟»

قالت : «الحب كله رجاء يا حسن ، بل الحب يضع الرجاء في موضع اليأس » .

قال : «أباقية هي على حبي ؟»

قالت : «نعم وهي مع ذلك لا ترجو لقاءك فكيف اذا علمت بأنك حي؟ فهل انت تحبها مثل حبها لك ؟»

قال : «كيف لا ؟» . وهاجت أشجانه ولم يعد يستطيع صبرا على الذهاب اليها وأحس انه مقصر في حق سبية . وهان عليه ان يضحي بنفسه لانقاذها . وكلما تصور انها زفت الى الحجاج عظم الامر عليه وكادت الغيرة تحرقه ، فأطرق برهة ثم قال : «وهل زفت الى الحجاج حقيقة ؟ »

قالت : «قلت لك انها زفت اليه وهي في داره مع سائر نسائه» .

قال : «أعوذ بالله !» ولكن قلبي لا يصدق انها في بيته مثل احدى نسائه . وهل يحبها هو ؟»

قالت : «يحبها حبا شديدا ، ولم يكن يحلم بحصوله عليها لانها لا تريده ، ولكن المقادير ساعدته فحملوها اليه قسرا» .

فاضطرب وجمد الدم في عروقه وقال : «اني اطير اليها وأختطفها من وسط بيته ومن بين مخالبه !»

فقطعت ليلى كلامه وقالت : «تبصر يا حسن ، ان دون الوصول اليها عقبات لا يستطاع تجاوزها الا بالحكمة» .

قال : «وأي حكمة ؟ كيف يمسها الحجاج وأنا حي ؟» ليس في الحب حكمة • الحب شيء والحكمة شيء اخر • ان الرجل اذا احب ، خضع لقوانين الحب وحدها ، وما في الحب حكمة ولا سياسة ولا رياء» •

فلما رأت ليلى شدة هياجه اشفقت على حياته مما يعترض السبيل الى سمية من الاخطار ، ولاسيما انها عند الحجاج الذي اشتهر بالظلم والجبروت • فاذا وقع حسن بين يديه فلن يعفيه من القتل ، فقالت له : «اني معك في ان الحب لا سياسة فيه ولا حكمة ، ولكن المحب ينبغي ان يحرص على حياته لاجل حبيبه ، فيجب ان تحرص على حياتك لاجل سمية • تبصر في الامر يا بني ، وسأكون في عونك حتى تبلغ ما تريده ، فاني أعرف قيمة الحب ويسوءني ان يفرق احد بين حبيبين ، بل انــي لأنقم على من يسعى في التفريق بينهما !» • قالت ذلك وتنهدت وأشرق الدمع في عينيها •

فأدرك حسن انها تنطق عن احساس صادق لانها احبت توبة ومنعوها منه فقال : «بورك فيك يا ليلى فلقد خففت من شدة بلواي ، فأشيري علي بما ترين » •

فقالت : «اني وفدت على الحجاج في معسكره ، على عادتي فــي الوفود على الامراء ، فرحب بي وأنزلني في دار أعز نسائه عليه ، وهي هند بنت النعمان • ولعلك تعلم انها جميلة ذات حسب ونسب ولكنها لا تحبه ولا تحترمه ، فلقيت سمية عندها ، وتحدثت معها في شأنك فلما انبأتني بفقدك شق ذلك علي ، واعتزمت ان أستطلع خبرك في مكة ، فعرضت على الحجاج ان آتي اليها وأحاول اقناع ابن الزبير بالاستسلام، مع اني أعلم ان استسلامه مستحيل • فلما جئت مكة علمت انك جئتها بالامس ، وخطبت رملة لخالد فقبل ابن الزبير ولكنه استمهلك ريثمــا تنقضي الحرب • فكان سروري مزدوجا بسلامتك ونجاحك في المهمــة

التي جئت لاجلها • وأرى ان اعود الان الى معسكر الحجاج وأجعلـك راويتي ، وأنت تعلم ان لكل شاعر عربي راوية يرافقه فيحفظ أشعـــاره ويرويها عنه • والحجاج لا يعرفك ، فلن يخطر بباله انك مناظره علـى سمية ، ومتى وصلنا الى المعسكر وأقمنا به ، تفكرنا في امـــر سمية ، وأسأل الله التوفيق» •

فاستحسن حسن رأيها وقال : «اذن هلم بنا الان ، فاني لا أصبر على هذه الحال» •

قالت : «اسبقني الى المسجد ريثما أودع ذات النطاقين وألحق بك» •

قال : «لقد انساني حديث سمية استطلاع ما دار بينك وبين ابن الزبير في امر الصلح او الاستسلام»

قالت : «كنت على يقين من انه لن يقبل ، وقد رأيت أمه أسماء ذات النطاقين اكثر منه تشددا ، واني لأعجب لهذه العجوز وصبرها على المكاره فقد رأيتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على الثبات فـــي دعوته • على اني وقد رأيت معسكره ومعسكر الحجاج ، لا أشك في ان ابن الزبير مغلوب ، فالفرق كبير بين المعسكرين في العدد والعـدة وكل شيء » •

فابتدرها حسن قائلا : «لقد رأيت بعيني اصحاب ابن الزبير واخوته وأهله يتخلون عنه ، وقد نفدت قواته وأقواته فالامر خارج من يديه لا محالـــة » •

قالت : «القوة هي الغالبة يا حسن ، والخلافة صائرة الى بني أمية • لان عندهم الرجال والاموال ، وقد ساعدتهم الاقدار من كل ناحية» •

فقطع حسن كلامها وقال : «ليس يهمني الان الا امر سمية ، وسأسبقك الى المسجد فأتهيأ للسفر» • قال ذلك وتركها وأسرع الى المسجد ، فوجد بلالا جالسا بباب حانوت لرجل فارسي يبيع الاقمشة بجوار الصفا • فلما

رآه بلال نهض وتبعه حتى دخلا المسجد ، فقص حسن عليه عزمه على الذهاب الى معسكر الحجاج وأسر اليه الغرض من ذلك .

فقال بلال : «ألا استطيع ان اكون في خدمتك يا مولاي ؟»

قال : «بورك فيك . ولكنني ذاهب في مهمة لا تخلو من الخطر ؛ واذا انكشف امري فيها فلن ينفعني الرجل والرجلان ، على اني ارجو التوفيق . فابق انت هنا بضعة ايام ، فاذا لم اعد فاطلبني في معسكر هذا الطاغية » .

تنكر حسن في ثياب غير ثيابه ، وحمل جرابا فيه أدراج من الرق كتب فيها بعض القصائد . ثم مكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت وركبت جملا يقوده خادم ، فركب حسن جمله ، وسارا والخادم يمشي وراءهما حتى مروا ببيت ابن صفوان وكان واقفا بالباب فرأى ليلى وعرفها؛ وتفرس في حسن فعرفه كذلك رغم تنكره . فحياهما وقال : «الى اين؟» .

فقال حسن : «لقد عزمت على ان ابدأ السعي في سبيل التوفيق» .

فهز ابن صفوان رأسه وتنهد وقال : «أسأل الله لكما السلامة» .

وما لبث حسن وليلى ان ابتعدا عن بيت ابن صفوان ، وخرجا من مكة حتى لقيهما رجال الحجاج ؛ فعرفوا ليلى ولم يعترضوهما ، فواصلا السير حتى اقبلا على معسكر الحجاج .

نظر حسن الى المعسكر والاعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيدة ، فعظم امر الحجاج في عينيه وقال : «يا ليلى ان الامر صائر الى هذا العاتي لا محالة . واني لينفطر قلبي كلما تصورت مصير عبد الله ابن الزبير . أتظنينه مغرورا بنفسه ؟»

قالت : «كلا ، ولكنه يعتقد انه على الحق» .

قال : «ما الذي اراه على جبل ابي قبيس ؟»

قالت : «ألم تر وقوع الاحجار على الكعبة ؟ ان الحجاج نصب

منجنيقاته على الجبل وهو يرمي الحجارة منها على الكعبة • ومع المنجنيقات فصيلة من الجند» •

قال : «وأين خيام النساء التي تقيم بها سمية ؟»

فقالت : «نحن سائرون الان الى خيمة الحجاج ، وهي الكبيرة القائمة في وسط هذه الخيام ، وسأدخل انا ثم اخرج وأسير بك الى مكان أعرفه ، وأذهب الى هند بنت النعمان فأرى سمية هنالك وأقص عليها قصتك ، وأتفق معها على موعد تلتقيان فيه خارج المعسكر» • وما زالا سائرين حتى اقبلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عمودا امامها اناس بالحراب ، وآخرون بالسيوف ، وهم أشبه بالحراس عند الروم — وكان بنو أمية قد اقتبسوا نظام الحرس من الرومان وتوخاه عمالهم ارهابا للناس — وقبل وصولهما الى الباب اناخا الجملين ، ونزلا فمشت ليلى والناس يوسعون لها وحسن يسير في اثرها حتى وقفت بباب الخيمة، فدخل احد الحراس يستأذن لها ثم عاد يدعوها الى الدخول ، فدخلت وظل حسن مع الواقفين بالباب وهو في شوق شديد لرؤية الحجاج ، وقد طالما سمع به وبعظم اعماله فوقف بحيث يستطيع رؤيته من باب الخيمة• فاذا هو جالس في صدرها على سجادة ثمينة وقد تربع ووضع السيف على فخذيه تحت مطرف من خز القاه على كتفيه وأداره على جنبه • ورآه لما دخلت ليلى رحب بها بصوت أرق مما كان يتوقعه ، وكان الحجاج رقيق الصوت الا اذا استفاض في الخطابة فيرتفع كثيرا • وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلى فاذا هو اخفش العينين ، مقطب الوجه ، ولم يجد في وجهه قبولا للابتسام او الضحك •

* * *

لاحت من حسن التفاتة الى جلساء الحجاج ، فرأى رجلا لم يكد

يتبينه حتى اضطربت جوارحه واستعاذ بالله من رؤيته فقد كان عرفجة ابا سمية ، وقد جلس بجانب الحجاج يقضي ويمضي وله الحول والطول. وأدرك حسن ان عرفجة لم ينل هذا المنصب الا بتضحية ابنته سمية فهاجت عواطفه وحدثته نفسه بأن يفتك به انتقاما منه . ولكنه ما لبث ان عاد الى رشده وعلم بما يحيط به من الاخطار فأشاح بوجهه الى خارج المعسكر لئلا يلاحظ احد عليه شيئا . كما خشي ان يراه عرفجة فيعرفه ويدبر له مكيدة اخرى ، فمشى متظاهرا بأنه يسير على غير هدي حتى بعد عن خيمة الحجاج .

ثم سمع ليلى تناديه فسار اليها وتبعها والجراب معلق في كتفه بوصفه راويتها . وبعد ان قطعا مسافة في المعسكر قالت : «انظر الى هذه الخيمة بجانب هذه الراية انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم ، فأنم بها ريثما آتيك او أبعث اليك» .

قال : «وسمية ؟.. ألا استطيع رؤيتها الان ؟ خذيني معك بوصفي خادما لك او تابعا او اي شيء لأرى سمية» .

فرق له قلب ليلى وقالت له : «سر في آثري حتى ندخل مضرب خيام النساء واجعل كأنك تحمل لي هذا الجراب حتى تضعه في الخيمة التي نحن سائرون اليها ، ومتى وصلنا أدبر لك حيلة لمشاهدتها ومخاطبتها» .

فرقص قلبه فرحا ونسي كل خطر في سبيل شوقه لرؤية حبيبته . وبعد هنيهة وصلا الى خباء له عدة ابواب وحوله خيام اخرى صغيرة ، فعلم انه خباء اهل الحجاج ، وقالت ليلى : «امكث تحت هذه النخلة ومتى دعوتك فادخل» . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فجلس هناك وقلبه يدق وعيناه شائعتان .

ودخلت ليلى الخباء وهو اقسام لكل امرأة قسم على عادة العرب في بناء الاخبية ، فدخلت القسم الذي فارقت هندا فيه فرأتها وسمية جالستين

لا تتكلمان • ولما رأتاها رحبتا بها ، وآنست في وجه هند انقباضا فقالت: «ما لهند غضبى ؟» • فأجابت سمية بقولها : «ومن ذا الذي يقترب من النار ولا يحترق بها • ان ظلم هذا الجبار العاتي ليصل حتى الى اهـل بيتـه » •

وكانت ليلى تعلم ببغض هند للحجاج ، فلم تستغرب ذلك ، ولكنها اغتنمت الفرصة وأجابت سمية قائلة : «اراك تشكين من الحجاج وقساوته وأنت لم تعرفيه الا بالامس ، وهو مغرم بك ، ولا يكاد يصدق انـه حصل عليك» •

فقطعت كلامها وقالت : «لم يحصل ولن يحصل على شيء باذن الله» •

فقالت : «ولكن هذا بعيد وأنت في داره وبين يديه ليلا ونهارا» •

فأشارت بعينيها كأنها تكتم امرا لا تريد ان تبـوح به امام هند • فاستغربت ليلى قولها وتظاهرت بأنها تريد مخاطبتها في شأن فدخلت بها الى خيمتها الخاصة ، فاستقبلتهما امة الله جاريـة سمية وكانت تهيىء الطعام ، ثم خرجت من الخيمة لبعض شأنها • فلما خلا المكان قالت ليلى : «رأيتك تتوعدين الحجاج وتتبرئين منه وهو زوجك الشرعي ، فضلا عما له من السلطان النافذ عليك ، فكيف تقولين انه لم يحصل على شيء ؟»

وكانت سمية قد جلست على حصير من سعف النخل ، وبين يديها وسادة تتشاغل باصلاح ثنياتها وهي تسمع كلام ليلى • فلمـا سمعت سؤال ليلى بدت الحيرة على وجهها وامتقع لونه امتقاعا شديدا وبقيت تنظر الى الارض وليلى تفكر في ذلك وتستغربه ولا تعلم سبب هـذا الانفعال فقالت : «مالي ارى سمية ساكتة لا تجيبني عن سؤالي ؟ كيف تقولين انه لم يحصل عليك وأنت بين يديه ؟»

فرفعت سمية رأسها وقد بدا التأثر في عينيها وشفتيهـا وقالت : «صدقيني يا ليلى ، انه لن يحصل مني على شيء رغم عقد قرانه بي •

ولم يكن ذلك تفضلا منه ولكنه أجبر عليه لقسم سبق به لسانه • وأما كونه لن يحصل علي فقد اعددت وسيلة انجو بها منه الى حبيبي ••»

قالت ذلك وشرقت بريقها فاختنق صوتها فأرسلت دموعها وهي صامتة لا تشهق ولا تتكلم ، فازداد عطف ليلى عليها ، ولكنها استغربت ما سمعته منها عن الوسيلة التي أعدتها للنجاة • فقالت : «وأي وسيلة أعددت ؟ وأين هو حسن الان ؟»

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تعد تتمالك عن البكاء فكان جوابها الشهيق والنحيب ، وهمت ليلى بأن تطمئنها عن حسن ولكنها خشيت ان يصيبها سوء من المفاجأة • فقالت : «اذا كنت تحبينني فلا تخفي علي سر هذا الامر ، فقد رأيت مني كل اخلاص وأنا خادمة لك الى اخر نسمة من حياتي • قولي ، ولا تخفي علي شيئا» •

فقالت وهي تمسح دموعها : «اما سبب كونه لم يحصل على شيء مني ، فذلك انه اراد ان يطوف بالكعبة اخر الحجة الماضية فمنعه ابن الزبير من ذلك » فأقسم ألا ينزع سلاحه ولا يقرب نساءه ولا الطيب حتى يقتله» •

فتذكرت ليلى انها كانت لا ترى الحجاج الا مدججا بسلاحه حيثما كان ليلا ونهارا • واعتزمت ان تفضي الى حسن بذلك لعلمها انه يشرح صدره ، ثم قالت لسمية : «وما هي الوسيلة التي دبرتها للنجاة منه في المستقبل ؟ »

فمدت سمية يدها الى جيبها فأخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدتها فاذا في داخلها قطعة رق ملفوفة على هيئة درج ، فتبادر الى ذهن ليلى انها كتاب • ثم رأت سمية تناولت ذلك الرق بين اصابعها وقالت : «ان الفرج يأتيني من هذا الدواء !»

فقالت ليلى : «وما ذلك ؟»

فقالت : «هو سم احتفظت به حتى اذا تحققت وقوع الخطر تناولته فيذهب بي الى مكان ارجو ان ألاقي حسنا فيه» •

فرأت ليلى ان تبوح لها بالسر فقالت : «وما قولك اذا لاقيت حبيبك وأنت حية ؟»

فتفرست سمية في وجه ليلى وهي تحسبها تمازحها وقالت : «لا تحببي الحياة الي ، فان لقائي اياه في العالم الاخر خير وأبقى • اما هنا فلا امل لي في ذلك» •

قالت : «لا تقطعي الامل يا سمية» •

فأجابت وهي تحسبها تخفف عنها : «لا أبالي أقطعت الامل ام لم أقطعه ، فان مدة عذابي في هذا العالم اصبحت قصيرة ، ولا بد من انقضاء هذه الحرب فاذا ظل هذا الطاغية حيا كان دوائي في هذه الصرة، واذا مات» • ثم تنهدت وأكملت حديثها فقالت : «ولكن ما الفائدة من بقائي حية وحدي ؟»

فقطعت ليلى كلامها وقالت والجد في غنة صوتها : «اذا بقيت حية فانك لا تكونين وحدك لان حسنا حي !»

فلما سمعت سمية ذلك بغتت وعادت الى التفرس في وجه ليلى ، فرأت الجد باديا في عينيها فوثبت من مجلسها وقالت : «بالله أعيدي ذكره وعلليني ببقائه • قولي انه حي فان ذكره يحييني !» • قالت ذلك واختنق صوتها فبكت ثم قالت : «ولكن ما الفائدة من التعلل بالاحلام ؟»

فقالت ليلى : «لسنا في حلم ، وانما نحن في يقظة ، وقد آن لك ان تري حسنا انه في انتظارك على مقربة من هذا الخباء وسأدعوه اليك لتلتقيا» • ثم خفضت صوتها وقالت : «وتتواعدا على وقت تفران فيه من هذا المعسكر ، ولا خوف من مجيء الحجاج الى خيام النساء ما دام قد

أقسم لا يقربهن» •

* * *

وكانت سمية تسمع قول ليلى وهي لا تكاد تصدقه ، ولكنها لم تر بدا من تصديقه ولاسيما بعد ان سمعت ان حسنا بقرب خبائها ، فهرولت الى شق في الخباء ونظرت الى الخارج وكان الليل قد سدل نقابه فلم تر احدا ، فنادت امة الله فأسرعت اليها وقد انارت السراج ودخلت حتى وضعته على المسرجة فقالت لها سمية : «هل رأيت احدا جالسا حول هذا الخبـاء ؟ »

قالت : «كلا يا مولاتي ولكنني رأيت رجلين مرا معا وخرجا من المعسكر » •

فقالت ليلى : «هل رأيت احدهما يحمل جرابا ؟»

قالت : «أظنني رأيت مع احدهما شيئا كالجراب» •

فأسرعت ليلى وسمية في أثرها وأطلتا من باب الخباء فلم تريا احدا، فتحولت ليلى نحو المكان الذي اجلست فيه حسنا فلم تر له اثرا ، فأسقط في يدها ، وفكرت في سبب ذهابه ومن يكون الرجل الذي ذهب به فلم تهتد الى حل •

اما سمية فخامرها شك في قول ليلى ، ولكنها تحققت صدقها لما بدا في عينيها من دلائل الاهتمام وما غشي جبينها من امارات الانقباض ، فقالت لها : «اين عسى ان يكون حسن الان ؟»

فقالت ليلى : «ان ذهابه لا بد ان يكون لامر ذي بال ، فقد جاء معي وهو لا يكاد يصدق انه يحظى برؤيتك ، وما أظنه تحول من هذا المكان بارادته • ولعله يعود الليلة فلنترقب رجوعه • ولكن من يكون رفيقه الاخر وهو غريب في المعسكر وقد جاء اليه متنكرا ؟»

ثم دخلتا الخباء ، ومكثت سمية مطرقة مستغرقة في الهواجس وهي مرهفة سمعها فاذا هب النسيم ظنت حسنا قادما فيضطرب قلبها . وخرجت ليلى الى خباء هند وهي تكتم ما في نفسها لعلها تستطلع شيئا جديدا .

اما سمية فنادت امة الله وكانت انيستها في وحشتها وعزاءها في احزانها والمطلعة على مكنونات قلبها . فلما نادتها لم تسمع جوابها ولا جاءتها فأعادت الصوت فلم يجبها احد ، فاستعاذت بالله من تلك الليلة ، وخرجت الى حيث تتوقع ان تراها فرأت في الظلام شبحين عرفت منهما امة الله ، ورأت الثاني بلباس الرجال فخفق قلبها وتوقعت ان يكون حبيبها فلم تعد تصبر عن المناداة فقالت : «امة الله ؟»

فقالت : «لبيك يا مولاتي اني قادمة على عجل» . قالت ذلك وظلت واقفة مع الرجل ، فقلقت سمية ولم تعد تستطيع صبرا وهمت بالمسير نحوهما فرأتهما قادمين فتقهقرت حتى وقفت بباب الخباء ووسعت حتى يقع نور السراج على وجه القادم مع امة الله فتعرفه ، ولكنه ظل واقفا على بضع خطوات من الخباء ، ثم تبينت انه بلباس حرس الحجاج ، فتشاءمت منه ودخلت الخباء مسرعة وأمة الله في أثرها . وكانت امة الله قد ادركت اضطراب سيدتها من منظر الرجل فابتدرتها قائلة : «لا تخافي يا مولاتي ان الرجل رسول خير» .

قالت : «ممن ؟»

قالت وقد خفضت صوتها : «من حسن» .

فبدت البغتة في وجهها وقالت : «ليدخل» .

فخرجت امة الله وعادت والرجل معها وعليه لباس الحرس . ولم تكن ملابس الجند قد تميزت يومئذ عن ملابس سائر الناس تمييزا تاما . غير ان حرس الامراء الامويين كان لهم لباس خاص بهم ، اقتبسه معاوية من الروم مع علامات خاصة، فوقفت سمية لاستقبال الرجل وركبتاها تصطكان

لعظم اضطرابها من منظره .

اما هو فلما دخل حياها باحترام وقال لها بصوت منخفض : « لا يزعجك امري يا مولاتي ولا يخيفك هذا اللباس فاني خادم لـــك ولمولاي حسن» .

فلما سمعت صوته تفرست في وجهه فعرفت انه عبد الله خادم حسن فصاحت فيه : «انت عبد الله ؟»

قال : «نعم يا مولاتي اني خادمك عبد الله» .

قالت : «وما الذي جاء بك الى هذا المعسكر ؟ وأين حسن ؟» هل هو حي كما يقولون ؟» . قالت ذلك وشرقت بدموعها .

فقال : «نعم يا سيدتي انه على قيد الحياة ، ولم اكن أعرف ذلك الا هذه الساعة ، وكنت قد يئست من حياته مثلك ولكن الله انعم علينـــا بنجاته . فالحمد لله» .

قالت : «وأين هو ؟»

قال : «انه مختبىء على مقربة من هذا المكان حتى لا يراه احد ، لانه جاء متنكرا ولم ينتبه له الا ابوك ، فطلب الى الامير ان يقبض عليه . وقد اطلعت انا على هذه المكيدة فأسرعت اليه وأنبأته بها ، وخرجت به الى مخبأ قرب هذا المعسكر ، وجئت لأنبئك بذلك لنتعاون على استنباط حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان وأنا في خدمتكما» .

فقالت : «سامح الله ابي ، بل لا سامحه الله على ما يسومنا اياه من البلاء . لقد اصبحت أكره اسم عرفجة وأكره ان اراه من اجل هـــذه المعاملة . آه يا ربي ! ما العمل ؟ ما الحيلة ؟ قل لي يا عبد الله : هل حسن في مأمن ؟»

قال : «نعم يا مولاتي انه في مكان امين ولا بأس عليه» .

فقالت : «وكيف ادخلت نفسك في زمرة الحراس ، وكيف انطلى امرك

على الحجاج وعلى ابي ؟»

قال : «ان حكايتي طويلة ، وخلاصتها اني لما يئست من لقاء مولاي حسن في المدينة وكنت قد عثرت على رحله وفيه كتاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير لا بد من ايصاله اليه ، رأيت القدوم به الى مكة، فاذا كان مولاي حسن قد سبقني اليها لقيته وسلمته اليه ، واذا لم اجده اوصلت انا الكتاب الى ابن الزبير . فلما دنوت من مكة علمت ان رجال الحجاج يحيطون بها من كل جانب ، ولا يستطيع احد الدخول اليها ، وخشيت ان يقع الكتاب في ايديهم ، واحتلت لدخول معسكر الحجاج لعلي أتنسم خبرا عن سيدي ، وقد يسر لي الدخول اني من ثقيف قبيلة الحجاج ، وهو كثير الثقة في اهل قبيلته ويعرفني من قبل ، ولكنني أعلم انه رجل شديد داهية فربما شك في امري فيأمر بقتلي ، فعزمت على ان أتقرب اليه بأن اعطيه الكتاب ، ولاسيما اني لم أر فيه فائدة بعد فقد مولاي ، وربما تمكنت باقترابي من الحجاج من استطلاع خبر مولاي، فتظاهرت بأني قادم على الحجاج لامر ذي بال يهمه ، وجئت المعسكر وطلبت ان أقابله في خلوة فأذن لي ، فلما عرفته بنفسي عرفني . ثم اخرجت له ذلك الكتاب وأنا عالم ان ليس فيه ذكر لمولاي حسن ، وانما هو خطاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير في امر خطبة او نحوها، فتظاهرت بأني عثرت بالكتاب مع رجل قادم من الشام ، ولما رأيت عليه اسم عبد الله بن الزبير شككت في امره فقتلت حامله ، وجئت بالكتاب اليه .

«فلما سمع الحجاج ذلك مني ، مع علمه بأني من قبيلته ، أحسن الظن بي وقربني منه وجعلني من حراسه كما ترين . وفي مساء ذلك اليوم قدم ابوك على الحجاج فأطلعه على ذلك وأنا واقف ببابه . فلما اطلع ابوك على الكتاب ناداني فدخلت الفسطاط فقال : (من اين اتيت بهذا الكتاب؟!)

فقصصت عليه الخبر كما ذكرته ، فقال : (ان صاحب هذا الكتاب عدو لنا عرفناه في المدينة وحاولنا قتله ، ولكن الذي ذهب لاغتياله لم يعد الينا : فهل قتلته انت ؟) . فلما سمعت قوله اطمأننت على حياة مولاي ، ومضيت في اتمام الحيلة فقلت : (لا أعلم أهو الذي قتلته ام لا ، ولكنني قتلت شابا بلباس كذا) . وذكرت له ما يقرب من صفات مولاي فقال : (لعله هو وقد أحسنت على اي حال) . وأدناني ابوك منه ومكثت في جملة الحراس وأنا أتفقد الاحوال وأستطلع الاخبار حتى جاءنا مولاي في هذا النهار مع ليلى الاخيلية وقد تنكر ، فعرفته ، ولم ينتبه لي ولا انا اردت ان يعرفني لئلا ينكشف امرنا . فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج وخرجت . وكان ابوك مع الحجاج في الفسطاط ، فلما خرجت ليلى رأيت علائم الغدر في وجه ابيك ، وسمعته يخاطب الحجـــــاج فأصغيت فاذا هو يشير باصبعه الى ليلى ويقول : (ان راويتها جاسوس متنكر) . وأشار بالقبض عليه ، فعلمت انه عرف حسنا واحتلت فــــي الخروج حتى جئته وهو جالس بقرب هذا الخباء فأخبرني انه جاء مــــن اجلك ، فذهبت به الى خربة وراء هذا المعسكر لا يهتدي اليها احد ، ووعدته ان آتي اليك وأطلعك على امره لندبر حيلة للفرار» .

وكان عبد الله يتكلم وسمية تتطاول بعنقها وتصيخ بسمعها وعيناها شاخصتان فيه . فلما جاء على اخر الحديث اطمأن قلبها وزال قلقها على حبيبها ، فانبسطت أسرتها وقالت : «بورك فيك يا عبد الله ، انك لنعم الرجل . واذا أتيح لنا ان ننجو على يدك فستكون شريكنا في سعادتنا ، والا فلا حول ولا ..»

فقال : «ان النجاة قريبة ان شاء الله ، ولكن لا بد من الصبر ، فاذني لي في الانصراف الان ، لاعود الى موقفي لئلا يشكوا في امري ، فاذا حدث شيء او احتجت الى شيء فاني رهين اشارتك . واذا حدث عندي

شيء جئتك به» • قال ذلك وهم بالخروج فاستوقفته وقالت له : «الى اين ؟ وكيف تترك حسنا وحده في تلك الخربة ومن اين يأكل وأين ينام؟»

فقال : «أتظنين اني تركته ولم أعد اليه ؟• كوني مطمئنة فاني أدبر له كل ما يحتاج اليه» • وودعها وخرج •

وتذكرت سمية ليلى ، فنادت امة الله وقالت لها : «اين هي ليلى ؟»

فقالت : «هي في خباء هند» • وخرجت ثم عادت تقول : «لم اجد في الخباء احدا» •

فاستغربت ذلك وقالت : «ألم تسألي الخدم عنهما ؟»

قالت : «سألت الخادمة فذكرت لي ان هندا خرجت عند الغروب تتمشى بين الاخبية ، ثمجاءت ليلى للسؤال عنها فلما لم تجدها اقتفت اثرها ، ولم تعودا من ذلك الحين» •

فقالت : «وأين تذهبان في هذا الليل ؟ اخاف ان يكون الحجاج بعث للقبض على ليلى لانها واطأت حسنا على التنكر» • وخافت سمية اذا بالغت في البحث عنهما ان تنصرف الشبهة اليها فدخلت خباءها وجلست تفكر فيما مر بها في تلك الليلة من الغرائب • وكلما تصورت انها نجت بحبيبها وخرجت من معسكر الحجاج يختلج قلبها فرحا •

اما عرفجة فانه عرف حسنا حالما وقع بصره عليه ، فتجاهل وانتظر حتى خرجت ليلى ثم طلب القبض عليه كما تقدم • ففوض اليه الحجاج ان يفعل به ما شاء ، فلما ارفض المجلس خرج عرفجة الى كبير الحراس وأوصاه بأن يبعث بضعة عشر من رجاله بالسلاح يقتفون أثر راوية الشاعرة ويقبضون عليه حيثما وجدوه • وكان عبد الله قد سبق الى حسن وخرج به الى ذلك المخبأ •

فلما لم يعثر الحراس على حسن هناك ، عادوا الى عرفجة وأنبأوه بذلك فقال : «الي بليلى فانها في اخبية النساء» • فعادوا اليها فرأوها

تتمشى مع هند بجوار الاخبية ، فأشاروا اليهـــا ان تأتي الى فسطاط الحجاج • فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف امرها ولكنها لم تر بدا من الطاعة فسارت مع الحراس حتى اتوا الفسطاط والظلام قد عقد قبابه، فلم يدخلوا فسطاط الحجاج بل دخلوا فسطاطا اخر رأت في صدره عرفجة جالسا • فلما رأته استعاذت بالله من شر ذلك المساء ، ولكنها كانت جريئة لا تبالي بمن تلاقي ؛ فدعاها الى الجلوس وقال لها : «اين هو راويتك يا ليلى ؟»

فلما سمعت سؤاله ادركت ان امر حسن قد انكشف فلم تشأ ان تشرك نفسها في ذنبه فيقعان معا فلا تعود قادرة على مساعدته ، فعمدت الى الحيلة وقالت : «وأي راوية تعني ؟»

قال : «راويتك الذي يحمل جرابك وقد جئت به اليوم» •

قالت : «وهل دخلت على الامير ومعي راوية ؟»

قال : «لم يدخل معك ولكنه بقي خارجا ، ولما مضيت أقتفي أثرك» •

قالت : «وهل يدل ذلك على انه راويتي ؟ وكيف يكون راويتي ولا ادعوه الى الجلوس في حضرة الامير ؟»

قال : «اراك تتنصلين منه ونحن لا نريد به شر» •

قالت : «لا يهمني ما تريدون به ، ولكني جئت الى المعسكر بالامس وليس معي راوية» •

قال : «كان معك رجل يحمل جرابا» •

قالت : «أتعني الرجل الذي يحمل الجراب ؟ لقد التقيت به عنـد دخولي المعسكر ورأيته يسير بجانبي فلم أتنبه لامره ، ولا اعرفه •• ومع ذلك فاذا كنتم تسيئون الظن بمن يبذل نفسه في خدمتكم فلا حيلة لنا فيكـم » •

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ويقول : «نحن لم نسيء الظن

بك يا ليلى ، وأنت شاعرة الامير ولك عنده المنزلة السامية ، ولكن هذا الرجل قد خدعنا وهو جاسوس دخل معسكرنا ونحن نحسبه راويتك» .

قالت : «وهل الامير ممن يخافون الجواسيس ؟ ان من كان مثلـه حزما وقوة لجدير بأن يخافه الجواسيس ، على اني لو علمت بجاسوس في هذا المعسكر لاطلعت الامير على خبره» .

قال : «بورك فيك ، وأرجو ان تكوني عينا على هذا الرجل ، فاذا رأيته فأنبئينا بمكانه ، فقد بعثنا من يقبض عليه فلم يقفوا له على اثر ولعله يظهر غدا فاكتمي هذا الان» . قال ذلك ونهض ، فنهضت ليلى وخرجت من عنده قلقة على حسن ، وان سرت لنجاته من قبضتهم . ثم عادت توا الى سمية وقصت عليها الخبر ، فأطلعتها سمية على حديث عبد اللـــه فاطمأن بالها .

فضى حسن ليلته في الخربة التي اختبأ فيها بجانب المعسكر ، وهي تطل على الطريق المؤدي الى مكة ، ولم يغمض له جفن لشدة قلقه وتشتت افكاره . وقد عظم عليه ان يخرج من معسكر الحجاج فرارا ولكنه ادرك انه يستحيل عليه النجاة بغير ذلك ، ولبث حتى الصباح وهو يفكر في وسيلة لانقاذ سمية من الحجاج .

كان عبد الله قد وعده ان يوافيه في مخبئه ليدله على طريقة للفرار ، فقضى ليله في هذه الهواجس ، وفي الصباح صعد على أكمة أشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى عبد الله او رسولا منه ، فرأى بينه وبين المعسكر ارضا خالية وتبين المكان جيدا . وفيما هو يتطلع رأى رجلا قادما على هجين من أطراف المعسكر كأنه آت من الصحراء ، ثـــم اقترب الرجل منه فتبين انه خادمه عبد الله ، فاستبشر بقدومه فلما وصل عبد الله ترجل وأشار اليه ان يعود الى الخربة مخافة الرقباء ، فقال له حسن : «ما وراءك الان ؟»

قال : «أبشرك اولا بأن الحجاج لم يقرب سمية وان كان قد عقد قرانه بها» • قال : «وكيف عرفت ذلك ؟»

قال : «عرفته عن ثقة ، فقد اخبرتني به ليلى الاخيلية ، وهي التي ساعدتنا في تدبير الحيلة للخروج» • وذكر له امر القسم الذي اقسمه الحجاج ، فانشرح لذلك صدر حسن ، ثم قال : «ومادا دبرتموه للنجاة من بطش الحجاج ، اني لاستنكف فرارنا على هذه الصورة ، ويخيل الي ان سمية لا ترضى مني هذا الضعف» •

قال : «انها لما علمت بنجاتك سرت سرورا عظيما ، لانهم لو ظفروا بك لفتكوا بكما معا • ثم اي فائدة من بقائك في المعسكر بعد انكشاف امرك ، وهل تستطيع مقاومة الحجاج وجنده ؟• وعلى اي حال قد جئتك بما استقر رأينا عليه في هذا الصباح ، وهو ان اترك هذا الجمل عندك وأعود ، فتتأهب انت للرحيل في العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التي تراها امامك ،وسنجدني وسيدتي سمية هناك وكل منا على هجين ومعنا المؤونة اللازمة للسفر في الصحراء اياما • ومتى بعدنا عن مكة صرنا في مأمن » •

فسر حسن لهذا التدبير ، على صعوبة تنفيذه ، وقال لعبد الله : «احذر ان يطلع احد على ما دبرتموه ، فتكون الثانية شرا من الاولى • وثق بأنني ان وقعت في هذه المرة فلن يسعني الا ان أناضل عن سمية حتى اموت بين يديها» •

قال : «لقد اعددنا كل شيء ، ولا خوف على سمية لان الحجاج لا يأتي الى خباء اهله مطلقا في هذه الايام للسبب الذي ذكرته لك» •

اطمأن بال حسن وجلس في مخبئه بالخربة يتناول طعاما أحضره له عبد الله ، ولم تمض ساعة حتى سمع صوت قعقعة اللجم ووقع حوافر الخيل ، فصعد الى الاكمة وتطلع نحو مصدر الصوت فرأى اكثر من

عشرين فارسا قد اكتسوا بالدروع ، وفي مقدمتهم فارس ضخم اسود ، هو قنبر عبد عرفجة . فلما وصلوا الى المكان اشار قنبر بيده الى حسن وقال : «هذا هو فامسكوه» . فأحاطوا به من كل ناحية ، ولم ير حسن بدا من التجلد فقال لهم : «ما بالكم ؟ وما الذي تطلبونه ؟»

فضحك قنبر مستهزئا وقال : «ان الامير يدعوك الى وليمة العرس!»

فاستشاط حسن غضبا من استخفاف العبد به ، وقال له : «اخسأ يا عبد السوء» .

وما أتم كلامه حتى أحدق به الفرسان وسيوفهم مسلولة ، فوضع حسن يده على قبضة سيفه وقد ثارت الحمية في رأسه وقال لهم : « لا يغرنكم عددكم ، ولا تظنوا اني اهاب سيوفكم وخيولكم، فاما اخبرتموني بما تريدون بالحسنى ، وأما فلن تنالوا مني شعرة قبل ان يقطر حسامي من دمائكم» . قال ذلك وقد اخذ الهياج منه مأخذا عظيما ولم يعد يبالي الحياة .

فتقدم اليه فارس منهم لا يظهر من وجهه غير عينيه خلال اللثام وقد شهر السيف بيده وقال : «نراك تظهر من الضعف قوة ، وما انت الا جاسوس نذل لا احسبك تحتمل ضربة من هذا السيف» .

فلما سمع حسن قوله صعد الدم الى رأسه وصاح في هذا الفارس قائلا : «أتخوفني بسيفك ؟ انما يخاف السيوف من يخاف الموت ، ولست ذلك الرجل . فاذا اردت النزال فانزل نتبارز راجلين ، فلا يصح النزال وأنت راكب وأنا راجل . واذا خفت فانزلوا جميعا وأنا أستعين الله عليكم » .

فضحك الفارس بصوت عال سمعه الجميع ، قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن : «لو ان الامير أمرنا بقتلك لاريناك القتل كيف يكون، ولكنه أمرنا ان نقودك اليه اسيرا . فامش» .

قال : «لا اسير ماشيا وأنتم راكبون ، فاما ان اركب معكـــــم او تمشوا معي !»

فلما رأوا هذه الجرأة منه هابوه وحسبوا له حسابا ، وجعلـــــوا يتشاورون فيما يفعلونه • فأشار بعضهم بقتله ، وعارض اخرون لان الامير لم يأمرهم بذلك • ثم قر رأيهم على مسايرته ريثما يبلغون به المعسكـر ويقدمونه فيرى الامير رأيه فيه •

وكانوا يعلمون انه يندر ان يساق الى الحجاج منهم وينجو من القتل. فانه كان سفاكا للدماء حتى احصوا الذين قتلهم في حياته فبلغوا مائـة الف وعشرين الفا ، ووجدوا في سجونه بعد موته ثلاثة وثلاثين الفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب • فرأى الفرسان ان يعاملوا حسنا بالحسنى ويتركوا امر الايقاع به الى الحجاج • فتقدم اليه فارس غــير الذي كلمه اولا وقال له : «لو كنا قد امرنا بقتالك لقاتلنـاك مشاة او فرسانا ، ويحكم الله بيننا وبينك ، ولكننا جئنا لنحملك الى الامير» •

قال : «قلت لكم اني لا اسير معكم ماشيا وأنتم راكبون» • وكان قنبر واقفا يسمع كلامه وهو يستغرب صبرهم على جرأته ، فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ورطانتهم : «امش يا حســـن وهل انت احسن مني ؟ »

فلما سمع حسن كلامه جرد سيفه وصاح فيه قائلا : «اذا تكلـــم الناس فاخرس انت يا عبد النحس • والا فاني مطير رأسك بحد هــذا السيــف » •

فضحك قنبر حتى بانت نواجذه ثم قال : «بعد قليل نرى من المقتول منا . ولكنك غير ملوم لان سمية خرجت من يديك ، تعال وانظرها بين نساء الامير !»

فلما سمعه حسن يذكر سمية ، عز عليه ان يحتقره ذلك العبد ويهزأ

به ، فهاج غضبه واستغرب سكوت سائر الفرسان عن وقاحته ، ولكنه أمسك نفسه وقال له : «لولا خوفي ان يقال لطخت حسامي بدم عبد لئيم لأطرت رأسك عن جذعك ، ولكنني ارجو ان يكون ذلك نصيب مولاك الخائن ، فاخرس ولا تخاطبني والا فأنت الجاني على نفسك» .

فلم يزدد قنبر الا قحة واستخفافا ، واقترب من حسن ويده على قبضة سيفه وقال : «أمثلي تقول هذا الكلام يا حسن ثم تعرض بذكر مولاي، والله اني ضاربك ضربة أعلمك بها الادب والحشمة» . قال ذلك وهم باستلال السيف ، فعيل صبر حسن لقحة ذلك العبد وسكوت بقية الفرسان ، فجرد حسامه وتلقاه بضربة على عنقه فذهب رأسه يتدحرج على الاحجار .

فلما رأى الفرسان ذلك صاحوا فيه : «لقد حل لنا دمك بعد هذه الجرأة ، كيف تقتل هذا الرجل بين أيدينا ؟»

فلم يبال حسن ضوضاءهم وقال لهم : «أتعدون هذا رجلا ؟ . ان من يعده رجلا لجدير بأن يناله ما ناله . ثم اني رأيتكم سكتم عن قحته فلم يسعني الا قتله ، وقد قلت لكم اني لا أبالي الموت فلا تخوفوني به» . قال ذلك والشرر يكاد يتطاير من عينيه ، وظل واقفا وسيفه يقطر من دم قنبر وقد اشتفى قلبه بقتله ويئس من الحياة . لانه لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الا الفتك به فعزم على الدفاع الى اخر نسمة من حياته ، فاذا مات مات كريما .

على انه ما لبث ان رأى الفرسان يتسارون ، ثم تقدم احدهم وترجل عن فرسه وقدمه له قائلا : «هذا جوادي فاركبه حتى تأتي المعسكر وشأنك والامير ، وسأركب انا جملك» .

فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبد الله ، فاستأنس به ، وأدرك انه هو الذي حماهم على الابقاء عليه . فركب الجواد ، وساروا

جميعا نحو المعسكر .

وكان السبب في معرفة مكان حسن ، ان عرفجة لما خرجت ليلى من عنده ولم تطلعه على مقره بعث عبده للبحث عنه في المعسكر ، فقضى هذا طول الليل في البحث ، وفي الصباح رأى هجانا قادما الى المعسكر من ناحية تلك الخربة ، فلم يعرف الهجان ولكنه شك في امره ، فذهب يبحث في المكان الذي رآه قادما منه ، وهناك وقع بصره على حسن وجملـه فأسرع الى سيده فأنبأه بما رأى ، فأوعز هذا الى الحجاج فأرسل كوكبة من الفرسان للقبض على الجاسوس الهارب .

وكان عبد الله قد عاد الى موقفه مع الحراس ، فلما علم بالامر احتال حتى ألحق بأولئك الفرسان ، لعله يستطيع مساعدة سيده ، وبذل جهده حتى ابقوا عليه بعد ان قام بقتل قنبر ، رغم ما له من منزلة رفيعة عند الحجاج مراعاة لسيده ، ولانه ينفع في مثل هذه المهام .

وقد ساعد عبد الله في بلوغ غايته ان الجند لم يكونوا يحبون قنبر لفرط استبداده وقحته ــ واستبداد العبيد ثقيل على الطباع ــ فلما قتله حسن فرحوا فيما بينهم وبين انفسهم ، وان أظهروا الغضب .

وبعد ان أرسل عرفجة الفرسان دخل على الحجاج في خيمته ، وجلسا ينتظران ما يكون ، وأخذ عرفجة يمهد للفتك بحسن ، فأقنع الحجاج بأنه جاسوس وبأنه اذا بقي حيا فلا يؤمن شره . وما كان الحجاج في حاجة الى من يوصيه بالقتل ، وهو بطبعه شديد الرغبة في سفك الدماء .

وآن وقت الغداء ، فلم يشأ الحجاج مغادرة الفسطاط قبل مجيء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس الذي بالغ عرفجة في وصف خطره ، فلما أحس الجوع أمر بأن يؤتى بالطعام الى الفسطاط ، وكان الحجاج من الاكلة المشهورين في الاسلام أمثال : سليمان بن عبد الملك ، وميسرة البراش ، وغيرهما ، حتى قالوا انه أكل ٨٤ رغيفا مع كل رغيف سمكة في

اكلة واحدة !. فلما جاءوه بالطعام دعا من في مجلسه الى مشاركته فيه ، فاعتذروا جميعا تهيبا منه الا عرفجة فانه آكل معه ، وان ظل طول الاكل قلقا يفكر فيما دبره لحسن من المكايد . فلما فرغ الحجاج من الطعام رفعت المائدة ، وجلس الحجاج صامتا . وكان عظيم الهيبة حسن الفراسة فاذا سكت لبث الذين في حضرته سكوتا كأن على رؤوسهم الطير .

***

وفيما هم على تلك الحال ، دخل الحاجب وقال : «لقد عاد الفرسان وعما قليل يصلون» .

فقال الحجاج : «وهل الاسير معهم ؟»

قال : «لم أر بينهم احدا ماشيا» .

قال : «لعله جاء على جواد» . قال : «ان بينهم رجلا بلباس غريب ، فلعله هو الاسير» .

فنهض عرفجة ووقف بباب الفسطاط يتفرس في القادمين ، ولما وقع نظره على حسن عرفه ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يراه فيها بعد مقابلتهما في المدينة .

ولما رأى حسن عرفجة ارتعدت فرائصه من الغيظ ، وود لو ان سيفه اصاب عنقه بدلا من قنبر . ولاحظ عرفجة ان قنبر ليس بين القادمين فظنه تأخر في الطريق ، وعاد الى الفسطاط وجلس بجانب الحجاج ثم دخل الآذن وأنبأ الحجاج بوصولهم فقال : «ادخلوا الرجل لنراه» .

فأدخلوه عليه وقد نزع سيفه ووقف بين حارسين احدهما عبد الله وفي يد كل منهما حربة . ولا تسل عن هواجس عبد الله في تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج في سفك الدماء . وأما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كأنه بين بعض الاصدقاء ، والتفت الى من حوله في الفسطاط فرأى

في صدره الحجاج وعرفجة ، والى الجانبين رؤساء الاجناد وكلهم سكوت تهيبا من الحجاج . لانه قلما رؤي ضاحكا ، واذا ضحك فانه لا يزيد على ان يكشر عن أنيابه . وقد تسمع قهقهته فاذا نظرت الى وجهه لم تجد فيه اي أثر لغير التجهم والعبوس !

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطأته ورغبته في سفك الدماء، ولكنه اعتزم الصبر والثبات حتى الموت ، وبقي واقفا برهة لا يخاطبه احد في شيء والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ثم قال له : «ممن انت ؟»

قال : «ما انا من ثقيف ولا من أمية» .

قال : «وماذا تعني ؟»

قال : «أعني اني لست من قبيلة الامير ولا من قبيلة امير المؤمنين ، ومهما يكن من امري بعد ذلك فليس مما يغير رأي الامير فيّ ..»

فقطع عرفجة كلامه وقال : «أبمثل هذا الجواب يخاطب ولي امير المؤمنين ؟! انها قحة !»

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة والتفت اليه وقال : «بل القحة ان يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الامير ويقطع الكلام عليه» .

فأراد عرفجة ان يتكلم فرأى الغضب في وجه الحجاج وهو يهم بالكلام فسكت ، وقال الحجاج : «لسنا في مقام جدال ، فأخبرني ما الذي جاء بك الى هذا المعسكر متنكرا ؟»

فتحير حسن ، ولم يدر بم يجيب ، وخاف ان يصرح بحقيقة غرضه فيهيج غيرة الحجاج عليه ، ولا سبيل بعد ذلك للنجاة ، فلبث ساكتا . فاستبطأ الحجاج جوابه فأعاد السؤال فقال حسن : «جئت لامر يهمني ولا يهم سواي ولا علاقة له بأمر الخلافة او الامارة» .

فقال الحجاج : «نرى اجوبتك مبهمة فأفصح» .

فلبث حسن ساكتا ، فاغتنم عرفجة فرصة سكوته وقال للحجاج : «ان

اجوبته مبهمة لانه يخاف ان يعترف بفعلته ، وهو جاسوس من عبد الله بن الزبير على مولانا الامير • بل هو عدو امير المؤمنين يتمنى سقوط دولته ويسعى في ذلك جهده • واذا شئت ان تتحقق ذلك فاطلب اليه ان يلعن الكاذبين » •

فالتفت الحجاج الى حسن كأنه يستطلع رأيه فيما قاله عرفجة ، فقال حسن : «حاش الله ان اكون كما يقول» •

فقال الحجاج : «اذا كان الامر كذلك ، فالعن الكاذبين : عليا بن ابي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار بن ابي عبيد» •

فارتبك حسن لانه لا يعتقد كذب هؤلاء ، ولا يريد ان يلعنهم • وكان يعلم انه اذا لم يلعنهم فان هذا يكون حجة عليه فقال : «لا ارى علاقة بين صدق نيتي في خدمة امير المؤمنين عبد الملك وبين لعن هؤلاء» •

فقال عرفجة : «أرأيت يا مولاي كيف هو خائن غادر يكذب على الامير كذبا صريحا ؟• أما قلت لك انه جاسوس والجاسوس يستوجب القتل • اقتله يا مولاي وأرح نفسك منه» • قال ذلك وأطرافه ترتعش ولحيته تنتفض في وجهه على صغرها ، وعيناه ترتعشان كأنهما قد فت فيهما حصرم •

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا فراسة ونظر ، فأدرك ان تمنـــع حسن عن اللعن لا يدل على جاسوسيته ، ولكنه اعاد السؤال عليه وقال : «لقد صبرنا عليك حتى الان • سألناك عن نسبك فلم تجبنا وهذا ذنب وحده يكفي لاتهامك • ثم سألناك عن غرضك في طرق هذا المعسكر متنكرا فأجبت جوابا مبهما ، وكلفناك لعن الكاذبين فأبيت • فهل تتوقع ان نصبر عليك اكثر مما صبرنا ؟»

فلما سمع كلام الحجاج أيقن بدنو أجله ، ولكنه لم يجزع ، وعز عليه ان يشمت به عرفجة ، فلبث ساكتا يفكر فيما يفعل ، واغتنم عرفجة

الفرصة فخاطبه قائلا : «اجب الامير . ألست جاسوسا خائنا جئت لتكيد لامير المؤمنين ؟»

ثم التفت الى الحجاج وقال : «اني أعجب لصبر مولاي على هـذا الخائن وكيف لم يأمر بقطع رأسه ؟»

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايته وخاف ان تنفذ حيلة عرفجة فيه فيأمر الحجاج بقتله ، اعتزم الايقاع بعرفجة ، فالتفت اليه وخاطبه بقلب جسور وقال : «أتدعوني خائنا وما الخائن الا انت ؟»

فوثب عرفجة من مجلسه مغضبا وقال : «كيف تجرؤ على هذا الكذب في حضرة الامير وهو أعلم الناس بصدق طاعتي واخلاصي . والله لو أذن لي الامير لقطعت رأسك بيدي ، فاني لأعلم الناس بخيانتك ، ويعلمها ايضا غلامي قنبر» . قال هذا ثم تلفت حوله متفقدا عبده قنبر ، فلما لم يجده صاح : «اين قنبر ؟» . فأجابه حسن ساخرا وقال : «لن يجيبك قنبر لانه نال جزاءه !» . فالتفت عرفجة الى الحراس مستفهما . وقبل ان يسألهم اشار احدهم بيده اشارة فهم منها ان قنبر قتل بيد حسن فأجفل عرفجة وحملق عينيه وصاح فيه : «وهل قتلت غلامي ايضا ؟» ثم تقف غير خائف من القصاص ؟!» . ثم التفت الى الحجاج وقال : «أتراه لم يستوجب القتل بعد ؟ »

فابتدره حسن قائلا : «قتلته لخيانته ، وسوف تنال جزاءك بأمر مولانا الامير متى ثبتت خيانتك» .

فقال عرفجة : «أتتهمني بالخيانة وخيانتك ظاهرة للعيان وقد اضفت اليها جريمة القتل ؟»

فلما رآهما الحجاج يتجادلان ويحاول كل منهما اثبات الخيانة على الاخر ، رأى من الحزم والدهاء ان يصبر حتى يستمع لجدالهما ، وان كان هذا على غير ما تعوده جلاسه منه .

اما حسن فلما رأى الحجاج مصغيا ، التفت الى من حوله من الامراء وقال : «أشهدكم على ان دم الخائن مهدور أيا كان !»

فقال عرفجة : «ما الخائن الا انت» .

فتجلد حسن حتى ملك نفسه ونظر الى عرفجة وقال له بصوت هادىء: «من الخائن منا يا عرفجة ؟. أأنا الخائن وأنت الامين الصادق في خدمة امير المؤمنين ؟»

قال : «وهل في ذلك شك ؟»

قال : «وماذا تقول في الكرسي ؟»

فلما سمع عرفجة لفظ الكرسي ارتعدت فرائصه وبدت البغتة في وجهه ، ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة قال وهو يضحك ويظهر الاستخفاف : «أي كرسي ؟. لا شك في انك تهذي» .

فقال حسن : «أنسيت الكرسي ولهيب ناره لا يزال يلفح وجهك !. أفلم تدرك اي كرسي أعني يا عرفجة ؟»

فتحقق عرفجة اطلاع حسن على حرق الكرسي ، ولكنه استغرب ذلك وأنكره وعاد الى محاولته المغالطة فقال : «ما بالك تهذي يا رجل ؟. وأي كرسي تعني ؟»

وكان الحجاج ينظر في عيني عرفجة ، فلم يخف عليه انه في ورطة ، وبقي صامتا يصغي . فقال حسن : «ألم تفهم أي كرسي يا عرفجة ؟. هو كرسي المختار بن ابي عبيد الذي كلفتموني لعنه الآن !»

فازداد تغير وجه عرفجة وقال : «وما شأنه ؟ وما علاقة المختار بما تقول ؟ »

فقال حسن وقد رفع صوته : «ألا تعرف علاقته بك ؟ اذا كنت لا تعرف تلك العلاقة ، فاسأل محمدا بن الحنفية ، وهو قريب من هنا . ١
اسأله او اسأل من شئت . واذا انكرت استنطقنا رماد الكرسي» .

فلما سمع عرفجة هذا التعريض أوجس في نفسه خيفة ، ولم يجد سبيلا الى التخلص الا ان يمضي في تجاهله ومغالطته فقال وهو يضحك: «أتظن مثل هذه المفتريات تنطلي على مولانا الامير ؟ وهل تظنه يصغي لكلام مختلق لا معنى له ولا اصل ؟» ان الامير ان يكن قد مد لك في حبل الحلم ، فما ذلك الا لكي يأخذك بجريرتك ويجعلك عبرة لامثالك من الخائنين» .

فقال حسن : «للامير ان يفعل بي ما يشاء ، ولكن ذلك لا ينفي كونك خائنا منافقا . واذا كنت قد انكرت امر الكرسي ، فان امره معروف وأهل المدينة يعرفون عنك محافظتك بضعة أعوام على محفة لا يعرف احد ما فيها . ولم يكن فيها الا كرسي المختار الذي زعم انه لعلي بن ابي طالب ، واستغله في الدعوة الى قتال بني أمية من ورائه ، فلما مات اخذت انت الكرسي لنفسك ، لتخلف المختار في استغلاله لمناصبة بني أمية العداء ومحاولة اخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذي كان المختار يدعو له» .

فقطع عرفجة كلامه وقال : «ما هذا الا اختلاق» .

فقال حسن : «ان ابن الحنفية شاهد على ذلك ، ومهما يكن من امره فيما يختص بالخلافة فلا يشك احد في صدقه ، واذا كان شعب علي بعيدا من هنا ، ففي المسجد بمكة من شهدوا حريق الكرسي معي ، وشهدوا الاهانة التي لحقت بعرفجة النزيه الصادق من محمد بن الحنفية حين جاءه مستأذنا في الدعوة الى بيعته وخلع طاعة امير المؤمنين عبد الملك بن مروان !»

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج من في الفسطاط ، ومال الحجاج الى تصديق حسن ، وكان الحجاج مع تقريبه عرفجة لا يجهل خبثه ونفاقه ، ولكنه انما قربه لانه يحتاج الى أمثاله في بعض اغراضه . فلما رجح ثبوت

هذه التهمة عليه صمم على قتله ، ولكنه أجل ذلك ليرى ما يكون .

اما عرفجة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة فقال وهو يظهر التعقل والهدوء : «يلوح لي ان مولاي الامير سكت عما سمعه من هذا الرجل كأنه مال الى تصديقه» .

فقال الحجاج : «وهل تحسبه اختاق ذلك كله اختلاقا ؟»

قال : «نعم يا مولاي» .

فقال الحجاج : «لا يعقل انه يفعل ذلك ، ولاسيما انه يستشهد اناسا معروفين . ثم ما الذي يدعوه الى هذا الاختلاق ؟»

فقال : «يدعوه الى ذلك امر افظع من خيانته ، ولو اني ذكرته لك ما ترددت في صلبه !»

فقال : «وما ذلك ؟»

قال : «اني لأضن بعرض الامير ان يذكر في مثل هذا المقام ، فاذا أذن مولاي في خلوة ذكرت له السبب ، وأنا ضامن انه يقتنع ببراءتي» .

فقطب الحجاج حاجبيه وأشار بيده فخرج كل من في الفسطاط من الامراء والحراس وبينهم حسن ، وقد سر لما رآه في وجوه الامراء من دلائل نقمتهم على عرفجة لفظاظته وسوء سريرته . وان اظهروا له غير ذلك خوفا من الحجاج . وفاتهم ان الحجاج نفسه لم يكن يثق به .

فلما خلا عرفجة الى الحجاج اخذ يقص عليه حديث حسن مع سمية ثم قال : «وقد كنت أعدها لخدمة مولاي بعد ان طلبها منذ أعوام . فجاء هذا الشاب وخدعها بحبه ، وهي فتاة لا تدرك أمور الدنيا ، فانخدعت بظاهره ، وكادت توافقه على ان تفر معه او لم أطلع على فعلته ، فسعيت في قتله بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة . وهذا طارق بين يدي مولاي ينبئك بصدق قولي . ولكن الرجل الذي انفذناه لقتله لم يظفر به ، فنجا ثم جاء متنكرا الى معسكر الامير بعد ان علم بزفافها اليه ليحاول

ان يخدعها مرة ثانية ، ولكني رأيته ساعة مجيئه مع ليلى بالامس ، وبعثت من يأتون به ، فعلمت انه سار الى جهة اخبية النساء ، وقد شق علي ان أصرح بذلك لمولاي الامير لئلا أكدره ، فاكتفيت بأن ذكرت انه جاسوس، لعلمي بأنه صاحب الكتاب الذي جاءنا به الفتى الثقفي منذ حين وظنناه قتله • ثم علمت بأنه فر الى الخربة المجاورة فأرسلنا الفرسان للقبض عليه• ويؤيد صدق قولي ، انك لما سألته عن سبب مجيئه الى هنا لم يستطع جوابـا » •

فرأى الحجاج كلام عرفجة معقولا ، ولكنه رأى التهمة الموجهة اليه معقولة ايضا فلم ير خيرا من التريث حتى ينجلي له وجه الصواب • فأمر بسجن حسن ، وتظاهر بأنه اقتنع ببراءة عرفجة •

سيق حسن الى خيمة أفردوها له في طرف المعسكر ، ووقف ببابهـا حارسان مسلحان • فلما تركوه فيها بعد ان شدوا وثاقه أيقن باستحالة النجاة ، وجعل يفكر فيما مر به وما كان من امر عرفجة معه ، فرأى ان الحجاج لم يقتنع كل الاقتناع بخيانة عرفجة ، وأدرك ان هذا يستعديه عليه من طريق اثارة غيرته ، والغيرة تعمي وتصم •

وقضى حسن في ذلك بقية يومه ، وجاءوه بالطعام فلم يتناول منه شيئا ، ثم قضى ليلته ساهرا وخيال سمية امام عينيه ، وفكره يبحث عبثا عن وسيلة الى النجاة بنفسه وسمية •

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخل وقد اثقلته الاغلال، سمع وقع أقدام خفيفة في الخيمة ، ثم صوتا يهمس في أذنه قائلا : «لا تخف يا مولاي اني خادمك عبد الله» •

وحاول ان ينهض فأعانه على ذلك عبد الله ثم قال له : «لقد احتلت حتى جعلوني احد الحارسين المنوط بهما تناوب مراقبتك ، وأنا الان في نوبة السهر على حراستك • وقد نام رفيقي فدخلت لاسألك عما تريد» •

فقال حسن : «لا أريد شيئا ولا رغبة لي في النجاة ، الا اذا نجت سمية معي» •

فقال عبد الله : «وما حيلة الحر الاعزل يا مولاي اذا وقع بين أيدي من لا يتورعون عن قتله ظلما وعدوانا ؛ مستعينين بكثرة عددهم وعدتهم؟ أيسلم نفسه لهم طوعا ، ام يحاول الخلاص من أيديهم بأي وسيلة ؟»

قال : «أتريد ان أفر من المعسكر وحدي وأترك سمية في بيت الحجاج ؟ وهل تحسب ان حياتي بعيدا من سمية مما أحرص عليه ؟»

فقال عبد الله : «لا يا مولاي ، لست أعني ان تخرج وحدك ، وانما أعني البحث عن وسيلة تخرج بها انت وسمية معا • ولا عار في الفرار من وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يراعي العدل» •

فسكت حسن ، واستأنف عبد الله الكلام فقال : «سأذهب غدا الى خباء النساء لاستطلاع الامر ، ثم اعود اليك بما يستقر عليه الرأي • فدع القنوط وكل واشرب حتى يأتي الله بالفرج» • ثم ودعه وخرج •

وشعر حسن بالارتياح وأعجب بغيرة عبد الله وصدق مودته ، ثم مكث في اليوم التالي ينتظر رجوعه •

وكانت سمية قد واعدت عبد الله على الخروج معه في مساء الامس، ثم سمعت خبر القبض على حسن والرجوع به الى المعسكر ، وسجنه ، وما لبثت ان رأت الجند قد أحدقوا بخبائها ومعهم السلاح ؛ فأيقنت ان الحجاج اطلع على سر قدوم حسن الى معسكره فتحققت وقوعها في الخطر ، ودعت اليها امة الله جاريتها ، وكانت هي التي اخبرتها بسجن حسن ، فجاءت وهي تظهر عدم المبالاة ، فقالت لها سمية : «هل رأيت الجند المحدقين بنا احداقهم بالقتلة المجرمين ؟»

قالت : «رأيتهم • ولكن ما لنا ولهم ؟»

فقالت سمية : «أتتجاهلين يا امة الله ؟ ألا ترين انهم سجنوني كما

سجنوه ؟ وهل تشكين في ان ذلك العاتي قد اطلع على ما بيني وبين حسن فلم يبق الا ان يفتك بنا ؟!»

قالت : «لا أظنه يفتك بك» .

فقطعت كلامها وقالت : «تظنينه يستبقيني لمأربه الدنيء !. ولكن ما انا مبقية على نفسي . اين السم الذي حفظته لي ؟. لقد آن وقته !». وكانت امة الله قد اخذته لتحفظه عندها .

قالت : «لا اظن وقته ازف يا مولاتي ، وحسن لا يزال على قيد الحياة ، ومن يدري ما يأتي به الغد ؟»

قالت : «أتتوقعين لحسن البقاء وقد وقع في قبضة هذا الظالم الذي لا يرى فيه الا مناظره على عروسه ؟. آه يا امة الله ! يا ليتني ظللت على يأسي الماضي ولم أعلم ببقاء حسن حيا ! ان هذا لن يعفيه من القتل . فكيف ابغي الحياة في بيت رجل قتل حبيبي ؟»

فقطعت امة الله كلامها وقالت : «انه لم يقتله بعد يا مولاتي . وعسى الله ان ينقذه من بين يديه فان الله قادر على كل شيء» .

قالت : «نعم ان الله قادر على كل شيء ، ولكن أليس حسن في حكم المقتول الان ؟» . قالت ذلك وخنقتها العبرات .

فاحتارت امة الله ، ولم تدر بم تعزيها عن توقع قتل حبيبها ، ولم تستطع لومها على تفكيرها في الانتحار حتى لا تبقي في بيت قاتل حبيبها، فظلت ساكتة ، واستأنفت سمية الكلام فقالت : «اين السم ؟ اعطيني اياه».

فتغير وجه امة الله وتناثرت الدموع من عينيها وقالت : «دعي السم الان فان وقته لم يأت بعد» .

قالت : «اعطيني اياه ، وأعاهدك على اني لا اتناوله الا بعد ان اقطع الامل من بقاء حسن » . ثم اطلقت لنفسها عنان البكاء ، فبكت امة الله معها ، ولكنها اشفقت عليها من الاسترسال في الحزن على هذه الصورة

فكظمت ما في نفسها وقالت : «أتعدينني انك لا تتناولين السم الا بعد وقوع الخطر حقيقة ؟» • فلما عاهدتها على ذلك خرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام • فتناولته منها وقبلته وهي تقول : «انت هو منقذي من احزاني ومتاعبي • انت وحدك معيني على قهر ذلك العاني ، وانقاذي منه» •

وكان الحجاج قد أمر باخراج النساء من الخباء الا سمية وخادمتها وأمر الحراس ان يحدقوا به وهم في غفلة عن سبب ذلك ، فكانت سمية تصيخ بسمعها من جدران الخباء لما يتحدث الحراس به • وسمعتهم يتحدثون بما اظهره حسن من الشهامة وعزة النفس وما ظهر في كلام عرفجة من التلاعب والغدر • وكانت كلما سمعت ذلك منهم رقص قلبها فرحا ولكنها لا تلبث ان تعود الى هواجسها •

اما عبد الله فلما جاء الى سمية ليخاطبها في امر الفرار رأى الحرس محدقا بخبائها فعاد ولم يرها ، وأخبر حسنا بما كان فازداد الامر تعقيدا عنده ففزع بآماله الى الصبر والتسليم للاقدار •

★ ★ ★

قضى حسن اياما على هذه الحال ، ثم حدث ان رأى نفسه فيما يرى النائم وكأنه يقول لبلال خادمه الذي تركه في مكة : «اذا استبطأتني فاطلبني في معسكر الحجاج» • فلاح لحسن ان يكون بلال جاء المعسكر ولم يعلم بمكانه • فلما دخل عبد الله عليه ذكر له هذا الامر ووصف له بلالا وقيافته فقال عبد الله : «رأيت في هذا المعسكر عبدا أظنه هو الذي تعنيه ويظهر انه يفتش عن ضائع ولم ينتبه له احد لان الحجاج وحاشيته وسائر الامراء يتأهبون للهجوم على ابن الزبير مرة واحدة ولولا ذلك لكشف عرفجة امره واتهمه بالجاسوسية» •

فقال حسن : «يهمني امر هذا العبد ، فاستقدمه الي على عجل» •
فخرج عبد الله فرأى بلالا فاغتنم اشتغال الناس بالتأهب وجاء به الى السجن متظاهرا بأنه يحمل له طعاما ، فقال بلال لحسن : «لقد بحثت عنك حتى يئست من لقائك وكدت أرجع خائبا • فالحمد لله على انـي رأيتك ولو في السجن •••»

فقال حسن : «وماذا وراءك ؟»

قال : «جئت اليك في مهمة مستعجلة وأخشى ان يكون قد فـات أوانها » •

قال : «وما هي ؟»

قال : «استدعاني ابن صفوان الى منزل عبد الله بن الزبير في مكة وسألني عنك ، فلما اجبته بأنك لم تعد بعد قال : (ان امـير المؤمنين عبد الله بن الزبير يحب ان يراك لامر ذي بال خاطبه في شأنه منذ بضعة وعشرين يوما ، وهو يريد الان ان يعهد اليه في امر مهم) • فجئت على عجل وقد قضيت ثلاثة ايام في البحث عنك حتى جاءني عبد اللـــه كما رأيت » •

فقال حسن : «ابن الزبير يطلب ان يراني في مكة ؟»

فقال : «نعم يا مولاي وقد ألح علي كثيرا ، وقال ان الوقت ضيق» •

فأطرق حسن وأعمل فكرته فتبين له ان ابن الزبير انما طلبه في شأن خطبة اخته رملة لخالد بن يزيد ، وتذكر انه انما جاء الحجاز لاجل هذا الامر ، ولكنه لم يدر كيف يجيب الدعوة وهو سجين ، فالتفت الـــى عبد الله وقال : «انك عرضت علي منذ ايام ان تخرجني من هذا المعسكر ، فهل تستطيع هذا اليوم ؟»

قال : «ذلك سهل علي في اي وقت تشاء ، واني أفديك بروحي» •

فقال : «لا أبغي الفرار وانما أبغي الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ثم

اعود في الصباح الى محبسي» •

فأعجب عبد الله بعزة نفسه وقال له : «افعل ما بدا لك فاني رهن اشارتك » •

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فقال عبد الله : «تمهل قليلا حتى يجيء الليل فأعطيك ثوبي فتلبسه وتخرج به وألبس انا ثوبك وأحل محلك هنا ريثما تعود ، وسوف لا يشك من يراك انك من حراس الحجاج . فتظاهر بأنك ذاهب في مهمة الى ابن‌الزبير ، واذا رأيت ان تبقى هناك على ان ألحق بك ، فافعل» •

فأعجب حسن بمروءة عبد الله وتضحيته في سبيل نجاته ، فقال : «بورك فيك من صديق صادق ، اخاف ان أصاب بسوء فلا اعود فتقع انت تحت طائلة العقاب» •

قال : «اذا اصابك سوء ، فلن يبقى لي مأرب في الحياة • على ان القوم يعتزمون الهجوم غدا على ابن الزبير ، فما أظنهم ينتبهون لخروجك، ولن اجد مشقة في اطلاق نفسي من السجن» •

فقطع حسن كلامه وقال : «أما رجوعي فلا بد منه لاني لا استطيع ان اترك سمية» • قال ذلك وصمت بغتة كأن فكرا جديدا طرق ذهنه ثم قال : «لا بد لي من الانتقام من ابيها الخائن» • ثم التفت الى بلال وقال له : «أتذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد في فسطاط محمد بن الحنفية ؟»

قال : «أتعني حكاية عرفجة والكرسي ؟»

قال : «اياها أعني ، فهل تستطيع الحصول على كتاب من محمد بن الحنفية الى الحجاج يشهد فيه بأن عرفجة جاء بذلك الكرسي وعرض عليه ان يدعو الى بيعته اهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك بن مروان؟»

قال بلال : «ذلك شيء يسير ، فاني صديق قديم لسعيد ، ولهذا

دالة عليه» •

فقال حسن : «اذن اذهب الان الى شعب علي ، واسلك اقرب الطرق اليه ؛ فاذا حصلت على الكتاب فعجل بالعودة به الى هنا ، حيث اكون قد عدت بعد مقابلة ابن الزبير» •

فخرج بلال وسار في مهمته • وخرج عبد الله الى المعسكر فوجد القوم يتأهبون للقتال في صباح الغد ، ورأى زميله واقفا بباب الخيمة ينظر اليهم متحسرا على حرمانه من الذهاب معهم ليصيب بعض الغنيمة • فقال له : «اذا شئت اللحاق بالجند فافعل وأنا ابقى هنا لحراسة السجين» • فسر الرجل وشكره وانصرف •

ولما غابت الشمس دخل عبد الله على حسن فألبسه ثيابه وسلمه الحربة ، ثم لبس هو ثياب حسن وجلس مكانه • فخرج حسن قاصدا الى مكة ، ولم يشك فيه احد لظنهم انه من الحراس ولانشغالهم بالتأهب للهجوم على مكة •

- ١٥ -

أم ابن الزبير

دخل حسن مكة دون ان يعترضه احد ، ولاحظ ان اسواقها خالية من الناس ، غير انه ما كاد يشرف على المسجد حتى وجد الناس قد ازدحموا فيه وفيما جاوره من المنازل ، فعلم انهم يتوقعون شرا ولم يفتهم ما نواه الحجاج • فسار توا الى منزل عبد الله بن الزبير فرأى الناس

يتدافعون عند بابه ، وسأل عن ابن صفوان فعلم انه في خلوة مع ابن الزبير ، فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل ، فمل الانتظار وشق طريقه بين الناس ملتمسا الحجرة التي فيها عبد الله ، فلما بلغها سأله الخدم عما يريد ، فذكر انه يريد مقابلة امير المؤمنين لامر ذي بال ، فأبلغوا امره الى ابن صفوان ، فخرج اليه وما كاد يراه حتى رحب به ، فسأله حسن : «اين امير المؤمنين ؟»

قال : «تركته يصلي الفجر» •

قال : «لقد جئت لمقابلته اجابة لطلبه» •

فقال : «نعم لقد طلب ان يراك لامر يريد ان يسره اليك • وسوف أدخلك عليه» • قال ذلك وعاد الى الحجرة ومكث حسن في انتظار عودته في فناء البيت وهو يتوقع ان يطول غيابه لعلمه بطول صلاة ابن الزبير مذ رآه يصلي في المسجد من عهد قريب •

على ان انتظاره لم يطل ، وسرعان ما عاد ابن صفوان وأشار اليه ان يتبعه ، فمضى وراءه حتى دخل الحجرة فوجد عبد الله واقفا وسطها وقد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبة خز ، وتحتها سراويل ومنطقة ، وقد فاحت منه رائحة المسك • فهم حسن بتقبيل يده ، فلم يمكنه من ذلك ورحب به ، ثم اشار الى ابن صفوان فخرج ، وأقفل عبد الله الباب نفسه ، فاستغرب حسن ذلك ولبث واقفا ينتظر ما يبدو منه ، فرآه يتجه الى وسادة على طنفسة هناك فجلس وقد وضع سيفه مستعرضا على ركبتيه وأسند ذراعيه عليهما فوقه ، وأشار اليه ان يجلس بجانبه ، فجلس صامتا •

وظل عبد الله مطرقا وهو يلاعب لحيته بين انامله ، ثم التفت الى حسن وقال له : «ما أظنك حصلت على كتاب من خالد» •

قال : «ان الرسول لم يعد بعد» •

قال : «وما أظنني اراه ولو عاد من الغد» .

فقال حسن دون ان يدرك قصده : «كيف لا وهو رهن اشارة امير المؤمنين ؟ »

قال : «على اي حال ، لقد ايقنت بصدق رغبة خالد في الزواج من اختي ، وانه فيما علمت لافضل القوم ، فاذا لقيته فأوصه عني بها خيرا ، واذكر له ان مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة ، ولو انه عجل بها بضعة أعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بالامر ، بما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قال هذا وقد ظهر التأثر في عينيه وخشن صوته ، ثم واصل كلامه قائلا : «ليت شعري كيف يسود العتاة الظلمة ؟ وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة على رجال يعبدون الله ويعملون بكتابه ؟»

فأدرك حسن انه يئس من الفوز ، وأراد ان يستطلع ما اعتزمه فقال: «لا يخفى على مولاي ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء . ولا عجب في ان تكون الغلبة في الدنيا لمن همهم الدنيا ، فقد كانت الغلبة لمعاوية على الامام علي صهر الرسول وابن عمه ، وقد فتك ابن زياد بالحسين وآل بيته . ذلك لان الدنيا شيء والآخرة شيء اخر ، وقد انقضى العصر الذي ساد فيه الحق والدين والتقوى ، وأصبح الحكم الان لا يتولاه غير اهل الدهاء والسياسة و ..» . ولما بلغ الى هنا بلع ريقه وبدا في وجهه انه اراد التصريح بشيء ثم توقف خوفا او حياء . فنظر عبد الله اليه نظرة من يتوقع اتمام الكلام ، فأتم حسن كلامه قائلا : «ولا اخفي على مولاي ان آل مروان ، وآل ابي سفيان قبلهم ، لم يخلص لهم الملك دون بني هاشم وغيرهم الا بالدهاء والسياسة وبذلهم المال لدعاتهم وأنصارهم» . فلما ذكر المال ، بدا الانقباض في وجه عبد الله وقال : «لا تذكرني بالمال وأمره فقد كنت شحيحا به لانه مال بيت الله ، ولعلي

لو بذلته للاحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالامر دوني ، ولكني لا ألتمس الدنيا بالباطل ولا ابتياع الانصار بالمال» •

فقال حسن : «لو ان مولاي اصغى لمشورة الحصين بن نمير يوم وفاة يزيد لما صار الامر الى بني مروان ••»

فقطع عبد الله كلامه وقال : «سمعتك تذكر هذا الامر قبل اليوم ، ولقد سمعته كذلك من كثيرين ، على اني لو اطعت الحصين ورافقته الى دمشق لما بايعني بنو أمية • فهؤلاء شق عليهم ان يبايعونا في ديارنا وبين اهلنا • فكيف لا يكون ذلك أشق عليهم في ديارهم وبين احزابهم • ومع ذلك فقد قضي الامر • وما بعثت اليك الا لاوصيك بأختي خيرا ، فأوص بها خالدا ، وأبلغه عني اني أوصيه كذلك بأن يدع امر الخلافة فانهـــا شاقة على اهل الدين في هذا الزمان ، وليشتغل بما هو مشتغل به من العلم والكيمياء فذلك خير له وأجدى عليه • ولا اخفي عليك اني قطعت الامل في الفوز بعد ان نبذني الاهل والاصدقاء خوفا من الموت ، ولو اني طلبت الدنيا لما امتنع علي الحصول عليها • ولكنني اطلب الآخرة ، وقد دعوت الناس الى الحق فلم يصغوا ، فلم يبق الا ان اتركهم وشأنهم• وقد انبأني الجواسيس بأن الحجاج وقومه عزموا على مهاجمتنا فـــي الغد ، ويفعل الله ما يشاء» • قال ذلك وغص بريقه فتشاغل باصلاح غمد حسامه ، ثم وقف وقال : «تعال معي الى امي لأخبرها بما استقر عليـــه الرأي في شأن رملة» •

فوقف حسن ومشى في اثره وقد لاح ضوء الفجر ، فدخلا حجرة رأى حسن في صدرها امرأة عجوزا عرف انها أسماء ذات النطاقين أم عبد الله ، وهي بنت ابي بكر الصديق ، وأخت عائشـــة زوج النبي • وكانت قد كف بصرها وبدا الهرم في وجهها ، فحياها عبد الله وقبل يدها، فقبلته وتنهدت ثم قالت : «ما وراءك يا بني ؟ مالي أشم منك رائحـــة

الحنـوط ؟ »

قال : «اني أتحنط كل يوم استعدادا للموت . وأما الان فقد جئتك بحسن الذي ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد لخطبة اختي رملة وقد اخبرته بقبول الخطبة فان خالدا لاهل لذلك» .

فرفعت رأسها وهي تجيل عينيها المطبقتين كأنها تحاول ان تنظر الى ابنها ، ونظر حسن الى وجهها وقد تغطى جانباه بالنقاب فرأى دمعتين تقطرتا من جانبي انفها بغير ان يبدو للبكاء آثر في وجهها . فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعه من ثبات جأشها وقوة قلبها . ثم قالت : «لقد صنعت خيرا يابني» . وسكتت وكأن في نفسها شيئا تكتمه ثم قالت : «في اي ساعة نحن من الليل الان ؟»

قال عبد الله : «نحن في الصباح» . وما أتم كلامه حتى سمع في الخارج دوي شديد أعقبته صيحات الاستنكار من الواقفين بالبـــــاب الخارجي للمسجد ، فأدرك حسن ان الهجوم قد بدأ ، وان ما سمعوه هو صوت وقوع حجارة المنجنيقات على الكعبة . ونظر الى عبد الله فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان القنوط في وجهه ثم التفت الى أمه وقال : «لقد بدأ اعداؤنا هجومهم الاخير يا أماه ، وقد آليت ألا أفعل امرا الا استشرتك ، فبماذا تشيرين ؟»

فنظر حسن الى اسماء وتفرس في وجهها فاذا هي تزيح النقاب عن وجهها ، ثم قالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لا من الخوف : «انت أعلم بنفسك يابني ، فان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه اصحابك . ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية . وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك. وان قلت : (كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت) . فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين !»

فقال عبد الله : «انما اخاف ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي» •

فقالت : «يابني ان الشاة لا تتألم بالسلخ ، فامض واستعن بالله» •

فقبل عبد الله رأسها وقال : «هذا رأيي الذي أصر عليه حتى اليوم ، ووالله يا أماه ما ركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها • وما دعاني الى ذلك الامر الا غضبتي للحق ولقد زدتني برأيك هدى وبصيرة» • ثم سكت قليلا ، وقال : «اسمعي يا أماه ، اني اشعر بأني مقتول في يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي الامر لله ، فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ، ولا عمل بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم او معاهد • ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل انكرته • ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي» •

فقالت وقد بان الجد في جبينها : «ارجو ان يكون عزائي فيك جميلا• ان تقدمتني احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك • فامض لشأنك ، والله معك ، ولئن قتلت ففي سبيل الله» •

ثم اتجه عبد الله الى حجرة اخرى ليودع اخته ، وظل حسن واقفا في انتظار عودته ، فسمع اسماء تتأوه وقد رفعت وجهها وقالت :

«اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلــــك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبي • اللهم قد سلمته لامرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبني فيه ثواب الصابريـــن الشاكرين» •

فاستغرب حسن صبرها وقوة ايمانها • ثم عاد عبد الله اليها وهم بتقبيل يدها ، فأمسكت بيده وضمته الى صدرها قائلة : «هذا وداع فلا تبعد»•

فقال : «انما جئت مودعا فكأني بهذا اليوم اخر ايامي من الدنيا» •

فخفق قلب حسن تأثرا ، وترقرق الدمع في عينيه ، ونظر الى اسماء فاذا هي لم يبد في وجهها ما يدل على التأثر ، فعلم ان ثباتها فوق ما كان يسمعه عنها ، ثم ما لبث ان سمعها تقول لعبد الله : «امض على بصيرتك

وادن مني حتى اودعك» • فدنا منها وعانقها فعانقته وأحاطت يديهـــا بخصره وقبلته فوقعت يدها على الدرع فنفرت وقالت : «ما هذا صنيع من يريد ما تريد !» • فقال عبد الله وقد بدا الخجل في وجهه : «ما لبسته الا لأشد به متني» • فقالت : «انه لا يشد متننا • البس ثيابك مشمرة» • فمد عبد الله يده الى الدرع ونزعها ، ودرج كميه ، وشد اسفل قميصه وجبته تحت ثنيات سراويله وأدخل اسفلها تحت المنطقة ، ثم خرج •

- ١٦ -

مقتل ابن الزبير

خرج حسن في أثر عبد الله بن الزبير وقد عزم على البقاء معه حتى النهاية • وشعر عبد الله بذلك ، فالتفت اليه وقال : «ناشدتك الله ألا تعرض نفسك للقتل» •

وكان حسن على يقين من فوز جند بني أمية ، لكثرتهم واتحادهم ، ولكنه ظل سائرا في أثره حتى خرجا من المنزل ، فلما وقع نظر عبد الله على المنتظرين هناك وقد تهيأوا للقتال وغطت الدروع أبدانهم ، قال لهم: «اكشفوا وجوهكم حتى انظر اليكم» • ولما كشفوها علم انهم بقية اهله فقال : «يا آل الزبير لو طبتم بي نفسا عن انفسكم كنا اهل بيت من العرب اصطلحنا في الله • فلا يفزعكم وقع السيوف فان ألم الدواء للجراح أشد من الم وقعها • صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، غضوا أبصاركم عن البارقة ، وليشغل كل امريء قرنه ، ولا تسألوا عني فمن كان

سائلا عني فاني في الرعيل الاول . احملوا على بركة الله» .

وبقي حسن حائرا لا يستطيع الاشتراك في القتال ، نزولا على رغبة ابن الزبير . وحتى لا يراه الحجاج او بعض رجاله فيثبت لديهم ما اتهمه به عرفجة . فآثر الالتجاء الى المسجد حتى تنتهي المعركة . فلما مضى عبد الله ومن معه الى القتال التفت فرأى اعلام بني أمية قد مـــلأت الطرقات ، فسارع الى المسجد الحرام ، ولكنه لم يستطع الدخول ، لان الحجاج كان قد اوقف ببابه اناسا ليمنعوا الناس من دخوله ، فدخل منزلا الى جوار المسجد وأطل من كوة فيه فرأى ابن الزبير يناضل مناضلـــة الاسود ، ويتنقل في المعمعة من جهة الى اخرى ، وبجانبه ابن صفوان يدافع عنه . ثم سمع عبد الله يقول : «ويلمه فتحا لو كان له رجال» . فقال له ابن صفوان : «اي والله وألف» . فحدثت حسن نفسه بأن يمضي اليهما ويقاتل معهما ، ثم لاحت منه التفاتة فرأى الحجاج قد ترجـــل وأقبل يسوق الناس الى مقاتلة ابن الزبير بعد ان رآهم لا يقوون على الوقوف بين يديه ، وكان حامل علم ابن الزبير يقف بباب شيبة من ابواب المسجد ، فهجم الحجاج عليه بمن معه ، فرآهم ابن الزبير فسارع الـــى صدهم عنه ، واستمر القتال على أشده بباب المسجد ، ثم دخله الفريقان. ولم يمض قليل حتى استطاع الحجاج ورجاله قتل صاحب العلم وأخذوه منه . فتفرق رجال ابن الزبير من حوله ، ولكنه ظل يقاتل حتى قتل هو وابن صفوان ، ثم رأى حسن رجلا أسرع الى جثة عبد الله وحز رأسه وحمله الى الحجاج ، فلما رأى الحجاج الرأس سجد وأكـــرم صاحب البشارة . ثم أمر بأن يحمل رأسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة. وبأن تصلب جثة ابن الزبير في الحجون ــ وقد صلبوها اياما ــ وهكذا ايقن حسن بانتصار الحجاج ، وتذكر ان سمية عنده في المعسكر ، فرأى ان يسارع اليها فيه ، فاما نجا بها ، واما عاد الى محبسه ، وسرعان ما

تسلل الى المعسكر ، وهو يحاذر ان يراه احد ممن يعرفونه فيحبط مسعاه؛ وقال في نفسه : «لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان وأصبحت الخلافة لا ينازعه فيها منازع» • وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج تمثلت له النجاة بسمية هينة فمشى وهو لا يزال بلباس الحرس والحربة بيمينه فلا يشك الذي يراه عن بعد انه من حرس الحجاج فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفرا قليلا من الحامية • فالتمس خباء النساء وقلبه يخفق لما يتنازعه من عوامل الرجاء والخوف والحياء والشوق • فبينما هو يرجو السعادة بالفرار بسمية كان يعد الفرار عارا ، ولكنه هونه على نفسه لانه لا يرى غير الفرار سبيلا الى نجاته والا فانه سيكون سببا لتعاسة سمية او قتلها • فمشى في طريقه الى المعسكر ، وهو في ملابس الحراس التي اخذها من خادمه ، فلما بلغه رأى ان يذهب اولا الى خيمة السجن ليرى ما تم في امر خادمه الامين وليستعين به على انقاذ سمية ، فلما بلغ الخيمة رآها خالية ، فوقف برهة يفكر في الامر ، ثم رأى ان يعجل بالذهاب الى سمية في الخباء لئلا تفوت الفرصة • وفيما هو سائر وقد أوشك ان يبلغ الخباء سمع صوت ابواق ، فالتفت فرأى جماعة من الفرسان عائدين من مكة ، فأسرع في مشيته ليبتعد عنهم • وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فلما أطل على الخباء لم ير حوله احدا ، وخشي ان تحول بغتة سمية دون ما يبغيه من سرعة الخروج بها ، لانها لم تره منذ خروجه من المدينة ، فتمهل في سيره ، وأخذ يبحث لمعرفة مدخل الخباء ومخرجه ، وهل سمية وحدها ، ام عندها احد من النساء او الخدم او غيرهم •

وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيه ، فأصاخ بسمعه فرأى شبحا خارجا ، وما تفرس فيه حتى أدرك انه امة الله جارية سمية، ولم يكن قد رآها من قبل ولكنه سمع بأوصافها اما هي فكانت قد رأته في دار عرفجة بالمدينة ، فلما رأته والحربة في يمينه وعليه ثياب حراس

الحجاج ، استعاذت بالله ، ثم ما لبثت ان تفرست فيه فعرفته وقالت : « حسن ؟ »

قال : «نعم • اين مولاتك ؟»

قالت : «هنا» • وأشارت الى الخباء الذي خرجت منه •

قال : «وكيف حالها ؟» • قالت : «انها في حال تدعو الى الرثاء حزنا عليك ، وخوفا من ذلك الظالم ولاسيما بعد ان فرغ من الحرب ، وقتل ابن الزبير ، فتحلل بذلك من قسمه» •

فاضطرب حسن وهم بالدخول الى الخباء ولكنه خشي ان تسيء البغتة الى سمية فقال لأمة الله : «ادخلي وانبئيها بقدومي لنخرج معا من هنا الان» •

فدخلت امة الله . ولم يصبر حسن الا قليلا ثم دخل في اثرها فوجد سمية جالسة وهي تفرك عينيها بأناملها وتنظر الى امة الله وتقول : «أصحيح ما تقولين ؟ حسن هنا ؟! حسن جاء ؟!• لا •• لا •• انك تمزحين ، او انا في حلم !»

ولاحظ انها قد تغيرت وامتقع لونها لفرط ما قاسته ، فازداد خفقان قلبه ، وأجابها بدلا من امة الله فقال : «بل انت في يقظة يا حبيبتي • وها أنذا جئت لانقاذك • هلم بنا نخرج الان من هذا المعسكر • هيا يا سمية فان الوقت ضيق والخطر قريب» •

فوقفت وركبتاها تصطكان ، ولبست نعالها والتفت بعباءتها ، وقالت وهي ما زالت مذهولة : «ما احسن هذا اللقاء ، هلم بنا» •

وكانت امة الله مشتغلة بأخذ بعض الطعام للتزود به خلال الرحيل . ولكنها كانت اكثر منهما انتباها لما حولها • فسمعت وقع حوافر خيل قادمة من بعيد فأسرعت اليهما وهي تقول : «لقد جاء الفرسان . وأظنهم الحراس الذين كانوا حول الخباء بالامس» •

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن وقالت وصوتها يرتجف : «حسن • حسن • لا تخرج فانهم اذا رأوك خارجا اشتدت شبهتهم فيك •• لا تخرج • واذا كانوا قد جاءوا للقبض عليك فلنمت معا» •

فثارت الحمية في رأس حسن ، وهان عليه لقاء الالوف تفانيا في الدفاع عنها فقال : «لا عاش من يمسك بسوء وأنا حي» •

وشعروا بافتراب الخيل من الخباء : وكان الليل قد سدل نقابه وبدأ الظلام يتكاثف فأمسكت سمية بيد حسن ، وقالت وهي ترتعد : «اما ان نعيش معا ، واما ان نموت معا» • ولا تسل عن خفقان قلبيهما تأثرا للقاء الفجائي وما صحبه من بواعث الاضطراب لقدوم اولئك الفرسان ، فبقيا واقفين صامتين ، وقد امتقع لونهما وتصبب العرق من وجهيهما وارتعدت فرائصهما ، ومع ذلك كان حسن يشعر بأنه أشد بطشا من الاسد ، وبأنه قدير على انقاذ سمية من جيش بأكمله • وكذلك كانت سمية قد انساها اللقاء كل خوف على نفسها ، وأصبح كل همها ألا يصاب حسن بسوء ، فامسكت به وهي لا تدري أتحرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء ، ام تفر هي معه وفي فرارها خطر عليه ، ام تستبقيه في الخباء معها وفي بقائه تهمة كبرى ؟

مرت كل هذه الهواجس بهما في لحظة انتظارهما وصول الفرسان القادمين ، ومعرفة ما وراءهم ، فلما وصل الفرسان الى الخباء ، احدقوا به من جميع الجهات ولكنهم ظلوا مرابطين خارجه ، كما كانوا بالامس ، فاطمأن قلب حسن ورجح ان قدومهم ليس لشبهة او تهمة جديدة • فأخذ يهدىء روع سمية حتى سكن جأشها ، وقضيا ساعة يتبادلان الاحاديث ، وقد نسيا الحجاج وفرسانه ، وحسبا انهما في مكان غير ذلك المكان ، بل خيل لهما ان اولئك الفرسان انما هم ملائكة من السماء جاءوا لحراستهما، في تلك الساعة التي تزيد قيمتها عندهما على قيمة الحياة كلها •

* * *

وبينما حسن وسية سابحان في ملكوت المناجاة ، يتشاكيان ما مر بكل منهما من أحداث الفراق سمعا طنين سهم مرسل في الفضاء ، ثم سمعا صوت ارتطامه بعمود الخباء من الخارج • وكانت امة الله مشغولة ببعض الشؤون في طرف الخباء بالقرب من موقع السهم فلما سمعت صوت وقوعه أطلت من الخباء فلم تر غير الفرسان • ثم رأت السهم يستقر في العمود ، فخفت الى مكانه وانتزعته فاذا في موضع الريش منه رق مقوي، فعادت به مسرعة الى حسن ففتحه فاذا هو كتاب من عبد الله خادمه يقول فيه : «اطلع عرفجة على مقركما فوشى بكما وأرسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا والله مع الصابرين» •

فاضطرب حسن وأيقن بوقوعهما في الخطر ، ولم ير بدا من تهيئة كل اسباب الاطمئنان لسية . وكانت قد قرأت الكتاب معه فامتقع لونه لما تملكها الجزع فابتدرها قائلا : «لا بد لي من الذهاب الى الحجاج بنفسي . فاني لا أظنه أرسل في طلبي الا معتقدا اني فررت من محبسي بالامس » •

فقطعت كلامه قائلة : «أتذهب الى الحجاج وأنت تدري ما يكون منه ؟• أعوذ بالله من شر هذا الرجل • انه لا يعرف غير القتل وسفك الدماء • ولا شك في ان نقمته عليك قد اشتدت بعد ان علم بأنك عندي هنا • يا ليتني مت قبل هذا • دعني أذهب بدلا عنك فأذهب فداء لك . فاني مقتولة على اي حال» •

فوضع يده على كتفها وقال : «لا ارى الامر يقتضي كل ذلك ، ولئن قتلت فما كنت انت سبب قتلي ، وعسى ألا أقتل ، وقد كنت استطيع الفرار بنفسي من بين أيدي هؤلاء الفرسان ، ولكني لا أريد النجاة وحدي ، وأخاف اذا خرجت معي ان تقعي بين أيدي احدهم فتلحقك

اهانة ، وهي عندي شر من القتل • اما ذهابي الى الحجاج بنفسي فانه أحفظ لشرفي وشرفك ، وما يأتي به القدر لا مناص منه • هذا ابن الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونه امير المؤمنين فقتلوه وصلبوه وحملوا رأسه الى المدينة ، وقد استقبل الموت باسما وأمه تشجعه على استقباله: فلا توهني عزيمتي ، ولا تخوفيني لقاء الحجاج • ولكن اذا قدر لي الموت فاذكري انني ذهبت شهيدا في سبيل هواك» • قال ذلك واختنق صوته ، فتساقطت دموعها على خديها تأثرا ، وكانت مطرقة فرفعت وجهها ومدت يدها الى جيبها وأخرجت لفافة السم وقالت : «ليطمئن قلبك فقد اعددت ما يلحقني بك اذا اصابك سوء • وهب انك نجوت وأراد هذا الظالم ان يتخذني زوجة له بالفعل ، فان هذا السم كفيل بانقاذي من ذلك» •

فأعجب حسن باخلاصها له وأنفتها وقال : «الحق ان مثل عواطفك النبيلة هذه لا تكافأ بأقل من الروح ، ولكن عسى الله ان يأتي بالفرج» •

ثم رفع يده عن كتفها وقال : «أستودعك الله يا سمية وموعدنا غدا ان شاء الله» • قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لئلا تحاول ان تثنيه عن عزمه بدموعها • فلما صار خارج الخباء صاح بأعلى صوته : «اين عريف هذه الكوكبة ؟»

فتقدم اليه فارس منهم وقال : «وماذا تريد منه ؟»

قال : «أريد ان يهديني الى فسطاط الامير لاذهب اليه» •

فقال : «لم يأذن لنا الامير في الرجوع اليه ، وانما أمرنا ان نحرس هذا الخباء حتى يأتي هو ، ولعله آت الساعة» •

فأدرك حسن ان ذلك تدبير عرفجة ، وانه اراد ان يرى الحجاج حسنا وسمية معا ليثير غيرته ، فاعتزم ان يحبط محاولته فقال : «ولكنني في حاجة الى رؤية الامير الساعة» •

قال الفارس : «لا يمكنك الخروج من هذا المكان» •

قال : «لا بد من خروجي» • ثم هم بالعدو ليذهب توا الى خيمة الحجاج ويحاول احباط مكيدة عرفجة ، ولكن الفارس حذره قائلا : «خير لك ان تمكث هنا» •

فقال : «واذا لم أمكث ؟»

قال : «اننا مأمورون بابقائك هنا حيا ريثما يجيء الأمير» •

فأدرك حسن ان الحجاج انما اراد الابقاء عليه ليبحث التهمة التي وجهها الى عرفجة في شأن الكرسي ، فتجلد وقال : «اقول لكم لا بد من ذهابي الساعة الى الامير ، والا خذوني الى السجن أمكث فيه الى الصباح» • قال ذلك ومشى فتجمهروا حوله ليمنعوه ، واذا بفارس أقبل من بعيد ووراءه بضعة فرسان ، فلما رآه حراس الخباء تهامسوا فيما بينهم ثم ترجلوا • ففهم حسن ان الحجاج وحاشيته هم القادمين • فوقف ينتظر ما يكون •

وكان الحجاج ما زال بثيابه التي حارب فيها ابن الزبير وقد غطته الدروع هو جواده وعليها بقع الدماء • فلما أقبل قال للفرسان : «ماذا تفعلون هنا ؟»

فقال عريفهم : «نحرس هذا الخباء لنمنع من فيه من الخروج» •

قال : «ومن أمركم بذلك ؟»

قال : «أمرنا به عرفجة باسم مولانا الامير» •

فأطرق الحجاج وقد ادرك ان عرفجة لا هم له الا الايقاع بحسن ولم يكن الحجاج يعلم بمجيء هذا الى خباء سمية ولا بما أمر به عرفجة ، وانما جاء الى خباء نسائه لانه تحلل من قسمه بعد مقتل ابن الزبير ، فلما علم بما أمر به عرفجة ، سأل العريف : «وهل حاول احد الخروج ؟» فقال العريف وهو يشير الى حسن : «وجدنا هذا الرجل خارجا ، وطلب

الذهاب الى الامير» •

ونظر الحجاج الى حسن ، فلما عرفه تحقق صحة ما اتهمه عرفجة به. وعظم عليه ان يراه خارجا من خباء نسائه • فهم بأن يقتله ولكنه تذكر التهمة التي وجهها الى عرفجة فرأى ان يصبر عليه الى الغد حتى يثبت التهمة على عرفجة ، ثم يقتلهما معا شر قتلة •

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا دهاء وحكمة ، فكظم غيظه ريثما يتحقق الامر فقال : «خذوه الى السجن وموعدنا الغد» •

فسر حسن لذلك التأجيل ، ومضى مع الحراس وهو يلتفت الى الوراء ليتحقق ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية غيرة عليها منه وان كان زوجها •

- ١٧ -

محاكمة حسن وعرفجة

قضى حسن ليلته في السجن وعليه الحراس • وفي الصباح ساقوه الى فسطاط الامير باكرا وقد امر الحجاج ألا يحضر المجلس احد غير عرفجة وحسن • فدخل حسن ووقف وسط الفسطاط : وظل عرفجة جالسا بجانب الحجاج كأنه من خاصته وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظا ولكنه صبر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة فقال له : «لقد كنت في السجن من قبل ، فكيف خرجت منه ؟»

قال حسن : «خرجت منه لامر اقتضى هذا الخروج ، ثم عدت اليه

طائعا ولو انني اردت الفرار ما رجعت» .

فقطع عرفجة كلامه وقال ساخرا : «ذهبت لامر ضروري ؟. أما ذهبت الى عدونا وكنت في منزله طول ليل امس ، واذا كنت قد رجعت فذلك لكي تذهب الى الخباء . لا الى الحبس» .

فالتفت الحجاج الى عرفجة لفتة ظهر الغضب فيها وأدرك عرفجة منها تغير الحجاج عليه فأراد تخفيف غضبه فقال : «لا أجهل اني جاوزت الحد بتكلسي في حضرة الامير ، ولكنني لم استطع الصبر على نفاق هـــذا الغلام وخداعه ، فهو يوهمنا انه ليس من الاعداء ولا من الجواسيس ، ثم يفر من السجن ليلا ويحمل اخبارنا الى عدونا ، ويرجع بعد ذلك لكي يوهمنا انه رجع الى السجن بينما الامير قد رأى بنفسه لاي شيء رجع» .

فأدرك الحجاج ان عرفجة يعرض بوجود حسن في الخباء ليثير غضبه عليه فيأمر بقتله توا قبل استكمال التحقيق ، فصبر والتفت الى حسن وقال : «لا يهمنا السبب الذي خرجت لاجله الى ابن الزبير ، فانك متهم عندنا في اي حال . وسنبحث امر دخولك خباء نسائنا فيما بعد . اما الان فانك اتهمت صديقنا عرفجة بالامس ، ونريد ان نعلم ما حملك على هذا الاتهام ، وأي دليل على صحته لديك ؟»

فاضطرب عرفجة لعودة الحجاج الى التحقيق في تهمته . وخاف عاقبة تملق الحجاج له بذكر الصداقة ولكنه تظاهر بالاستخفاف وجلس يصغي لما سيقوله حسن ، فقال هذا : «أما كونه خائنا لدولة بني أمية فأمر لا شك فيه . وقد رأيته بعيني واقفا بين يدي محمد بن الحنفية في الشعب، ومعه الكرسي الذي كان المختار بن ابي عبيد يسميـــــه كرسي علي ، ويستغله في الدعوة الى بيعة ابن الحنفية . وقد سمعته يطلب من محمد امداده بالمال للخروج على بني أمية في العراق ، والدعوة الى بيعته لانه في زعمه اولى من بني أمية بهذا الامر» .

وكان الحجاج مصغيا لما يسمعه وهو يتفرس في حسن ويراقب حركاته وسكناته فرجح انه صادق في دعواه • فقال له : «ثم ماذا ؟»

قال : «اما ابن الحنفية فاستخف بطلب عرفجة وردعه عن القيام بهذا الامر ، ثم أمر باحراق الكرسي ، فأحرق بين يديه ، وأخرج عرفجة من عنده مهانا» •

ورأى عرفجة ان الحجاج أوشك ان يصدق دعوى حسن ضده ، فلم ير سبيلا الى دفع تلك التهمة الا بالخداع والمغالطة . فوقف ووجه خطابه الى الحجاج وقال : «اذا كان لكلام هذا الغلام أقل تأثير في نفس مولاي فليأمر بقتلي حالا ، ولكن هذا الغلام كاذب في كل ما ادعاه ، وقد اختلق هذه التهمة ليخفف بها ذنبه الذي لم يرتكبه احد قبله» •

فقال حسن : «اما ذنبي فلا انكره ، وسأبسطه لمولاي . وله ان يحكم بعد ذلك بما يشاء ، وأما انت ••»

فقاطعه عرفجة قاصدا ان يشغل الحجاج عن ذنبه هو . وقال له «ان ذنبك لا يحتمل الانكار لانه ظاهر للعيان • وأما اتهامك اياي بالمروق من دعوة بني مروان فاختلاق محض لم نسمع بمثله • وأغرب ما فيه انك لم تستطع اقامة دليل عليه ، ويستحيل ذلك عليك» • قال ذلك وجلس وكأنه فاز على خصمه بالحجة والبرهان •

ولكن الحجاج لم يعبأ بذلك فالتفت الى حسن وقال : «لا تصح دعوى بلا بينة ، فما هي بينتك على ما تقول ؟»

قال : «لقد كان الحديث بينه وبين ابن الحنفية سرا ولم يكن معهما ثالث » •

فصاح عرفجة : «أسمعت يا مولاي ؟ أرأيت تناقض اقوال المنافق الكذاب ؟• اذا كان ذلك الامر حدث سرا بين اثنين كما قال الان فما الذي أطلعه على هذا السر ؟!• ان جهله ابى الا ان يوقعه في شر أعماله

لانه لم يحسن سبك أكذوبته» .

وشك الحجاج في صدق حسن فقال له : «لقد صدق عرفجة ، فانك زعمت انك عرفت ما دار بينهما وسردته على انك رأيت وسمعت ، فكيف تقول بعد هذا ان الحديث كان سرا بينهما ولم يكن معهما ثالث ؟»

فلما رأى حسن انخداع الحجاج بكلام عرفجة ، تجلد وقال : «نعم يا مولاي كان الكلام بينهما في فسطاط مقفل ، ولكنني سمعت ورأيت خلسة ! »

فقال عرفجة : «لقد بدا من تناقض أقوالك انك لم تسمع ولم تر ، ولعلك تريد ان تستشهد بشريك لك في خداعك وكذبك ، ولكني لا أقبل الا شهادة محمد بن الحنفية نفسه ، فانك اعترفت بأنه وحده الذي سمع حديثي» .

فقال الحجاج : «هذا طلب عادل ، ما في ذلك شك» .

وهنا تذكر حسن انه ارسل بلالا الى ابن الحنفية ولا يدري ماذا كان من امره معه فقال : «ان الامير أدرى مني بما يحول دون الوصول الى مثل هذه الشهادة . لاننا اما ان نستقدم ابن الحنفية الى هنا ، واما ان نذهب اليه او نستكتبه ..»

فقطع عرفجة كلامه وقال : «لا أقبل الا شهادة ابن الحنفية نفسه» .

فقال الحجاج : «ذلك شيء يسير ، وان ابن الحنفية مصدق عندنا وان لم يكن على دعوتنا» .

قال ذلك وتحرك عن وسادته كأنه يريد استئناف البحث ، ثم التفت الى حسن وقال : «بقي علينا النظر في تهمتك ولكنها ليست تهمة نطلب اثباتها وانما نحن نسألك عما دعاك الى هذه القحة ؟»

* * *

وكان حسن قد هم باخبار الحجاج انه ارسل من يأتي بشهادة ابن الحنفية ، فلما فاجأه بهذا السؤال ، اضطرب ولكنه تجلد وهم بأن يجيب فاعترضه عرفجة قائلا : «انا أروي لك الخبر كله يا مولاي ، فانه يخجل ان يرويه » •

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة فرفع صوته وقال : «لمـــاذا أخجل ؟• أأخجل لاني انقذتك من الموت انت وأهل بيتك ؟• ام أخجل لانك خدعتني بوعدك ثم نكثت غير مرة ؟• اني لم أعمل عملا اخجل من ذكره» • ثم وجه كلامه الى الحجاج وروى له باختصار قصته مع عرفجة منذ أنقذه في العراق • وكان الحجاج مصغيا الى الحديث باهتمام ؛ فلما بلغ حسن الى سعي عرفجة في قتله قاطعه هذا قائلا : «لقد سعيت في قتله يا مولاي لاني رأيت معه كتابا الى عبد الله بن الزبير الذي فر اليـــه بالامس . وقد ابلغت امره الى طارق بن عمرو عامل المدينة فعده جاسوسا، وأرسل من يقتله • اما اني وعدته بابنتي فان مولانا الامير خطبها بعد ذلك فكيف أرفض شرفا أولانيه الامير ؟• والعجب كل العجب انه بعد ان علم بأنها زفت الى الامير ما برح يرجو الحصول عليها • وبلغ من قحته انه جاء الى هذا المعسكر محاولا اغراءها بالفرار معه • ولكن الله أوقعه في أيدينا وسجناه : ففر الى عدونا ليوقع بنا ، ثم اغتنم اشتغال الامير وجنده بالقتال وعاد الى حيث رآه الامير بنفسه خارجا من خباء سمية ، فاذا كان الامير يرى الصبر عليه حلما ، فاني لا صبر لي على مثل هذه الخيانة» •

فوقع كلام عرفجة على قلب الحجاج وقوع النار على يابس العشب ؛ وثارت غيرته فالتفت الى حسن وقال : «هل تنكر انك تحب سمية ؟»

قال : «كلا» •

قال : «تقول ذلك بين يدي وأنت تعلم انها من نسائي ؟»

فظل حسن ساكتا ، فقال له الحجاج : «وهل هي تحبك ؟»

فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليها الموت كما جره على نفسه فأراد الرفق بها فقال : «لا أدري ..»

فقال عرفجة : «انها لا تحبه ، ولكنها فتاة ساذجة استغل طيبة قلبها ليخدعها . ولا شك في انها تفاخر كل نساء المدينة بما نالته من الحظوة لدى امير جند عبد الملك وفاتح الحجاز وحامي ذمار بني أمية» .

فاستاء حسن من ذلك التدليس القبيح ولم يسعه الا توبيخ عرفجة فقال له بصوت ملؤه الرزانة والتعقل : «لا أنكر ان سمية نالت احسن ما تتمناه فتاة بزواجها من مولانا الامير ، ولكنك يا عرفجة لم تزف ابنتك الى الامير الا رغبة في المال ، ولو مهرك هذا المال زنجي لزففتها اليه !»

فصاح عرفجة : «يا للقحة . أتقول ذلك في حضرة الامير وتذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة ؟!» . ثم التفت الى الحجاج وقال : «لقد كفاك يا مولاي صبرا وحلما على من لا يستحق غير القتل والعذاب الاليم » .

فالتفت حسن اليه وقال : «أتحرض الامير على قتلي يا عرفجة وانك لاكثر استحقاقا للقصاص ؟. انك ملاق حتفك عاجلا جزاء خياناتك للدولة التي تدعي انك تدافع عنها . وأما انا فاذا قتلت فاني أذهب شهيد الامانة والحب الصحيح !»

فالتفت عرفجة الى الحجاج وقال : «أسمعت يا مولاي ؟ انه ما زال يذكر الحب» .

فقال حسن : «وهل الحب عار ؟. نعم اني احب سمية حبا شديدا ، كما اني أكره أباها كرها شديدا . ولا أبالي ان أصرح بذلك ولا ان أقتل في سبيله . اما انت فانك ستقتل لان شهادة ابن الحنفية آتية عما قليل ، وهي قاطعة بخياناتك للدولة ولامير المؤمنين» .

وحانت منه التفاتة الى باب الفسطاط ، فرأى بلالا قادما من بعيد وقد

علاه الغبار • فخفق قلبه ، والتفت الى الحجاج وقال : «ارجو ان يأذن مولاي في ادخال هذا القادم ، فهو رسولي الى ابن الحنفية ، وعسى ان يكون قد عاد من عنده بكتاب يثبت صحة دعواي» •

فقال الحجاج : «وأي رسول ؟»

قال : «رسول كنت أنفذته الى ابن الحنفية في شعب علي ليستكتبه شهادة بما دار بينه وبين عرفجة من حديث الكرسي • وهذا الرسول كان معي يوم حريق الكرسي ، فليأمر مولاي بادخاله لنرى ما جاء به» •

فنادى الحجاج : «يا غلام» • فدخل احد غلمانه فقال له : «نرى رجلا قادما برسالة فأدخله علينا» •

فعاد الغلام ومعه بلال • وأخرج هذا عقدة من القصب الغليظ سلمها الى الحجاج مختومة ، فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية ، ثم أخرج من العقدة لفافة من الرق فتحها وقرأها وعرفجة جالس وقد بانت البغتة في وجهه ورقصت لحيته على صدره ، ولكنه عمد الى الاستخفاف والمغالطة فصار ينظر الى الحجاج ويبتسم كأنه واثق بأن الكتاب يتضمن براءته • فلما فرغ الحجاج من قراءة الكتاب التفت الى نجة وقال له : «لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة • وهذا خط محمد بن الحنفية وختمه يثبتان صحة ما اتهمك بههذا الشاب» •

فهم عرفجة بأن يتكلم ، ولكن الحجاج انتهره وقال : «لا تتكلم ولا تدافع فقد كفانا ما سمعناه من خلطك» • ثم صفق فجاءه الغلام فقال له: «الي بالجلاد» • فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد وعلى رأسه عمامة مستطيلة وبيده سيف حاد • فأشار الحجاج بسبابته الى عرفجة وحسن وقال للجلاد : «ائتني برأسيهما» • فصاح عرفجة : «كيف تأمر بقتلي ولم تتحقق تهمتي ؟• ان هذه الرسالة مزورة» • وأخذ في الصياح حتى سمع صوته كل من في المعسكر فغضب الحجاج وصاح في الجلاد :

«هات رأس هذا اولا» . وأشار الى عرفجة .

فجره الجلاد حتى أركعه في الفناء ونزع عمامته عن رأسه ، فأخذ يلتفت الى الحجاج وهذا معرض عنه ، ولم يكن الا كلمح البصر حتى طار رأسه من بين كتفيه والناس ينظرون .

ووقف الجلاد بين يدي الحجاج وسيفه يقطر من دماء عرفجة ، فأشار الحجاج الى حسن وقال للجلاد : «وهذا ايضا» .

فأمسك الجلاد بطوق حسن وأراد جره الى الخارج . فقال حسن للحجاج : «أتقتلني بعد ان رأيت صدقي واخلاصي ؟»

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب وقد احمرت عيناه وتجلى الغدر فيهما وقال : «أتسألني لم أقتلك وأنت مستحق الصلب منذ ايام !. انما صبرت عليك حتى تحققت خيانة ذلك الغادر» .

فقال حسن : «اذا لم يكن بد من قتلي فاقتلوني داخل هذه الخيمة وليس على مشهد من الناس» .

فقال الحجاج : «أتشترط علينا ؟» . ثم التفت الى الجلاد وصرخ فيه قائلا : «اقتله يا جلاد والا قتلتك !»

فعاد الجلاد الى حسن وهم بجذبه ، فقال حسن : «لا تجذبني هكذا فما انا بخائف من الموت ، رغم اني واثق ببراءتي» . قال ذلك ومشى نحو الباب .

وفيما هما يهمان بالخروج ، علا صوت قعقعة وسمع الحاضرون معها قائلا يقول : «البريد .. البريد .. بريد امير المؤمنين» .

وكانت عادة الولاة اذا جاء البريد ألا يمنعوه او يؤخروه لحظة واحدة فلما سمع الحجاج بوصوله صاح قائلا : «ادخلوه» .

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد أنهكه التعب وتعفرت ثيابه ، فترامى عند قدميه وسلم اليه كتابا مختوما . وكان حسن مشغولا

بنفسه عن كل تلك المشاهد ولكن عينه ما كادت تقع على ذلك الكهل حتى بغت اذ عرف انه صديقه ابو سليمان ، وتذكر انه كان قد ارسله الى خالد بن يزيد في الشام ليأتي منه بكتاب في شأن رملة الى ابن الزبير ، فهم باستئذان الحجاج في كلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله ، ليكلفه ابلاغ خالد رضاء ابن الزبير وان رملة في انتظاره لتزف اليه فيكون قد أتم مهمته قبل موته .

ورفع حسن وجهه الى الحجاج فرآه تناول الكتاب ونظر الى خاتم الخلافة على ظاهره ، ثم قبله ووقف تعظيما للخلافة . ثم نظر الى الرجل الذي حمله وقال له بعد ان تفرس فيه : «من اين لك هذا الكتاب ؟. أأنت من عمال البريد ؟»

فقال ابو سليمان : «لست منهم يا مولاي . ولكنهم حملوني على دواب البريد تعجيلا بابلاغ هذه الرسالة» . قال ذلك وهو يلهث وصوته يتقطع ويتلجلج من التعب والخوف .

ففض الحجاج خاتم الكتاب وفتحه ، وجعل يعيد قراءته ويتثاءب ويحك شفتيه باصبعه ويعبث بشعر لحيته وقد ظهر التأثر في عينيه . ثم اخذ ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل في ختمه ويقلبه بين يديه ، كل هذا وأبو سليمان ما زال مستلقيا عند قدميه وهو يلهث من التعب وينظر الى وجه حسن كأنه لم يعرفه وحسن ينظر في وجهه ، وكلهم سكوت ينظرون ما يبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك الكتاب .

وأخيرا ، اشار الحجاج الى الجلاد بالانصراف فانصرف ، ثم صرف بقية الحاضرين ولم يبق في الخيمة الا هو وحسن وأبو سليمان . فالتفت الى حسن وقال : «هذا كتاب من امير المؤمنين جاءني بما كنت تبغيه انت. والله لولا حرمة الخليفة لم يكن في الارض من ينجيك من القتل» .

فلما سمع حسن ذلك ابرقت أسرته ولكنه لم يطمئن تماما لانه لم يفهم فحوى هذا الكتاب ، فأطرق وظل ساكتا .

فنادى الحجاج : «يا غلام» . ولما أقبل غلامه قال له : «ادع الكاتب». فخرج ثم عاد بالكاتب ، فدفع الحجاج اليه الكتاب وقال : «اتل هـــذا علينا» . فتلاه وهذا نصه :

«من امير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، الى الحجاج بن يوسف امير جندنا في الحجاز . أما بعد فقد بلغني انك خطبت ابنة عرفجة المنافق ، وهي مخطوبة لحسن ، فأخذتها وحرمته منها . والرجل ينتمي الينا وتهمنا رعايته . فاذا اتاك كتابي فاحمل الفتاة الى خطيبها ، وأمهره بما يقوم بالنفقة . ووالله لرجوعك عن الحجاز ولم تفتحه أهون علي من ارتكابك هذا الامر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا . وثقتي انك فاعل ما اقـــول والسلام » .

فما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب حتى رقص قلب حسن طربا ، وخيل اليه انه في حلم ، فجعل ينظر الى ما حوله ليتحقق انه في يقظة ، ثم سمع الحجاج يقول له : «لم تتل الكتاب عليك الا لتعلم اننا مــــا تجاوزنا عنك الا عملا بأمر امير المؤمنين» . والتفت الى غلامه وقال : «أعطه الف دينار . وسمية طالق منذ الان .. فامض الى خباء النســـاء وأنبئها بذلك ، لتخرج معه من هذا المعسكر قبل غروب اليوم» . قال ذلك ووقف ، فخرج حسن والغلام ، وكان ابو سليمان قد استراح ووقف مع الواقفين ، فلما خرجوا خرج معهم وهو يهم بأن يخاطب حسنا وحسن يهم بأن يخاطبه .

وقبل ان يتكامل خروجهم ، رأوا فارسا يسوق جواده نحو فسطاط الحجاج والبغتة ظاهرة في وجهه فلما وصل ترجل ودخل دون ان يستأذن وقال : «ان مصيبة حلت في خباء النساء» .

فاما سمع حسن الصوت علم انه صوت عريف الحرس ، وخفق قلبه خشية ان تكون المصيبة حلت بسمية • ثم ما لبث ان سمع العريف يقول: «ان مولانتا سمية سقطت لا حراك بها كأنها تجرعت سما او اصابها الموت بغتة ! »

فأحس حسن كأن جبلا سقط على رأسه ، وكاد يفقد رشده وشغل عما كان فيه من سؤال ابي سليمان عن الطريقة التي حصل بها على ذلك الكتاب ، ثم لم يسعه الا ان يعدو نحو خباء سمية • ولم يكن ابو سليمان أقل بغتة منه . اذ جاء ذلك الخبر صدمة قوية اطارت صوابه ، فسار في أثر حسن الى الخباء ، وسار في أثرهما بلال وعلام الحجاج •

وكانت سمية قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه امام خبائها ، كما سمعته وهو يأمرهم بأخذ حسن الى السجن الى الصباح ، وأيقنت ان الحجاج قاتله لا محالة • ولكنها تعللت بالآمال البعيدة وصبرت حتى ترى ما يكون في الغد ، ففضت ليلتها تفكر في مصير حسن ، وأصبحت وقد آعدت السم وجلست وراء الخباء ، تستطلع أنباء المحاكمة من الحراس • فلما جاءها احدهم بمقتل ابيها وأخذ حسن لقتله أظلمت الدنيا في عينيها . وكانت امة الله قد يئست من تخفيف المصيبة عليها ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركتها وشأنها ، وبعد قليل جاءها احد الحراس بنبأ قتل حسن داخل خيمة الحجاج ، فسارعت الى السم وابتلعته مرة واحدة ثم وقعت مغشيا عليها • فصاحت امة الله وواولت ، وأخبرت الحراس ان مولاتها تجرعت السم فأسرع احدهم على جواده بالنبأ الى الحجاج •

وظل حسن يعدو نحو الخباء ، وهو لا يكاد يرى طريقه ، ولا يبالي ما يعترضه من الاحجار او الاوتاد حتى أشرف على الخباء فصاح وهو لا يعي ما يقول : «سمية •• سمية •• انا حي يا سمية» •

ولما وصل الى الخباء اراد الفرسان منعه ، ثم تركوه بعد ان اخبرهم

الغلام بأمر الحجاج فأطل من الباب فرأى سمية مستلقبة وحولها نسوة يبكين . وكأنها جثة بلا روح وقد اطبقت عيناها وامتقع لونها وانحل شعرها وابيضت شفتاها فلم يتمالك ان اندفع نحوها وفي يده خنجره فتفرقت النساء عنها ، ثم اخذ يجس يدها ويقول : «حبيبتي •• روحي•• منيتي •• ماذا اصابك ؟•! نجرعت السم يأسا من حياتي ؟• اني حي يا سمية •• سمية انا ان تحيي مثلي او اموت مثلك !»

ولما ايقن بموتها ، هم بأن يطعن نفسه بالخنجر ، ولكنه شعر بيد امسكت به وسمع صوتا يناديه : «تمهل يا حسن : ان سمية حية لا بأس عليها» • فالتفت فرأى ليلى الاخيلية وبيدها كوب ماء جاءت لترش سمية به • فقال لها : «ماذا تقولين ؟• كيف تحيا سمية وقد تجرعت السم ؟!• انه كاف لقتل أشد الرجال !»

فقالت ليلى : «ان الذي تجرعته ليس سما فلا تخف !»

فوقف ذاهلا ثم قال لليلى : «لا تعلليني بالاوهام ، ان سمية قد ماتت ولا بد لي من ان اموت لانها ماتت لاجلي» •

قال ذلك ورفع يده بالخنجر فصاحت فيه ليلى : «تمهل يا حسن . ان سمية حية ولم تتجرع السم ولكنها في غيبوبة» •

قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به فحركت رأسها ثم حركت شفتيها وقالت : «حسن •• حسن •• قتلوك قتلهم الله !• اني ذاهبة اليك» •

فلما سمع صوتها جثا عند رأسها باكيا وقال لها : «سمية •• انت حية يا حبيبتي ؟•• انظري الي •• انا حسن •• انا حي يا حبيبتي وقد انقذني الله •• افتحي عينيك يا سمية» •

ففتحت عينيها فلما رأته قالت : «ما هذه الاحلام ؟• حسن ؟• اين نحن يا حسن ؟ »

فأجابها : «نعم انا حسن يا سمية» .

فجلست وألقت نفسها عليه وأخذت في البكاء ، فقال لها : «لا نبكي يا سمية انني في خير» .

فقالت له ليلى : «دعها تبكي لتنفس كربتها وتصحو من سكرتها» . فسكت وترك سمية تبكي وتشهق ، ثم رآها ترفع رأسها وتنظر الى وجهه وتصيح : «حسن حبيبي .. هل انا في يقظة ام في منام ؟»

فأجلسها بجانبه وهو يقول لها : «انظري يا سمية ، ها أنذا حي ، وهذه صديقتنا ليلى . ان اسباب تعاستنا قد زالت والحمد لله» .

فقطعت كلامه قائلة : «والحجاج ؟. الحجاج ؟» . وعادت الى البكاء.

فقال لها : «لقد جاء أمر الخليفة بأن يطلقك ، ويردك الى خطيبك ، وسنخرج اليوم من هذا المعسكر» . فحدقت بنظرها فيه كأنها تتحقق ما يقول ، فأقسم لها بحبها انه ما قال الا الحق .

سكن روع سمية بعد ان اطمأنت الى نجاتها ونجاة حسن ، ثم التفتت الى من حولها فرأت امة الله جاريتها ، وليلى الاخيلية ، وهند زوجـــه الحجاج . فقالت : «ان السم تأخر فعله ، أليس كذلك ؟»

فقالت ليلى : «انك لم تتجرعي الا دقيق الذرة . وأما السم الذي ظننت انك تجرعته فهو معي» . قالت ذلك وأخرجت من جيبها ورقـــة فتحتها وفيها السم وقالت : «ألا تذكرين الليلة التي بت فيها عندك ؟. انني غافلتك وأبدلت بالسم دقيق الذرة ، لاني خفت ان تعجلي بتجرعه دون ما يدعو الى ذلك ، فالحمد لله على نجاتك» .

فهمت سمية بليلى وقبلتها وقالت : «جزاك الله خيرا» . وكذلــك شكرها حسن ثم قص عليهم ما دار بينه وبين الحجاج حتى اتى على ذكر ابي سليمان وكيف جاء في ابان الضيق فكان السبب في نجاته من الموت،

كما كانت ليلى سببا في نجاة سمية منه • وكان ابو سليمان واقفا خارج الخباء فناداه حسن فدخل وهو يقول : «هل يدخل عبد الله ؟»

قال حسن : «اي عبد الله ؟»

قال : «خادمك» •

قال : «فليدخل • اني أعده صديقي» •

ثم دخل عبد الله وهو يقول : «لا تظن اني تخلفت عن خدمة مولاي، ولكنني اصبحت بعد اخراجك من السجن موضع غضب عرفجة ، فلم اعد استطيع الظهور وبقيت متخفيا أتنسم الاخبار • فلما تحققت نجاتك جئت لاكون في خدمتك» •

وكانت سمية قد صحت ونحققت انها فازت بحبيبها وانها نجت من ابيها فثبتت بصرها في حسن ، وثبت هو بصره فيها ، واكتفيا بتفاهم اللواحظ ، ثم قال لها : «الى اين تودين الذهاب ؛ وأين نقيم ؟»

فأجابه ابو سليمان على الفور : «تقيمان عندنا بالمدينة» •

فقال حسن : «لقد أذكرتني امر رملة ، هل اتيت بالكتاب من خالد الى ابن الزبير • وكيف حصلت على هذا الامر من عبد الملك ؟»

فقص ابو سليمان قصة سعيه في ذلك الامر على يد خالد ثم قال : «وأما ابن الزبير فقد جئته بالكتاب ولكنه واأسفاه عليه قتل ولا ندري ما تم بأهله» •

فقال : «اهله في مأمن بمكة ، وقد صرح لهم قبل موته بقبوله مصاهرة خالد • وبعد عودتنا الى المدينة سأبعث عبد الله الى خالد بالخبر ليبعث من يحمل رملة اليه» •

ثم التفت الى ليلى وقال لها : «لن انسى لك جميلك ما حييت ، ويكفي انك كنت سببا لبقاء سمية كما كان العم سليمان سببا لبقائي» •

فقالت ليلى : «لا فضل لي في ذلك وقد فعلته لاني جربت هذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم ، ولا اظن احدا من هؤلاء ادرك مـــن حالكما ما ادركته » . قالت ذلك وشرقت بريقها .

فأدرك حسن انها تشير الى قصتها مع توبة ، فشكر الله وسكت حتى لا يثير عواطفها .

ثم وقف ابو سليمان وقال : «كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم ؛ وكل شيء يجري بقضاء من الله سبحانه وتعالى . هلم بنا الان نستعـــــد للرحيـــل » .

فلما تحققت سمية قرب سفرها التفتت الى هند بنت النعمان زوجة الحجاج وقالت : «ارجو ان يوفقك الله الى سبيل تنجين به كــــما نجوت انا » .

فتلألأت الدموع في عيني هند ولم تجب .

* * *

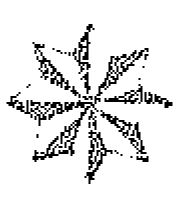
وفي أصيل ذلك اليوم شدوا الرحال وساروا جميعا قاصدين المدينه، ما عدا ليلى فانها التمست وجهة اخرى . ولما وصلوا ساروا توا الى بيت عرفجة وقد اصبح بما فيه ارثا شرعيا لسمية . وكذلك كل ما كان يملكه.

وفي يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم وقد سر بنجاح مهمتهم . واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالا شهدته سكينة بنت الحسين وكثير من سكان المدينة ، وأكثرهم كانوا يكرهون عرفجة ، وغنى ليلتها طويس ، كما غنت عزة الميلاء ، وأجاد أشعب الطماع في المجون حتى

كادت تتمزق خواصر الناس من الضحك . وبعد انتهاء العرس ســـار عبد الله الى خالد في دمشق ومعه كتاب من حسن بتفصيل ما حدث في شأن رملة وقبول عبد الله بن الزبير خطبته لها فجاء خالد وتزوج رملة كما هو مدون في التاريخ .

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان



١ - فتاة غسان
٢ - أرمانوسة المصرية
٣ - عذراء قريش
٤ - ١٧ رمضان
٥ - غادة كربلاء
٦ - الحجاج بن يوسف
٧ - فتح الأندلس
٨ - شارل وعبد الرحمن
٩ - أبو مسلم الخرساني
١٠ - العباسة أخت الرشيد
١١ - الأمين والمأمون
١٢ - عروس فرغانة
١٣ - أحمد بن طولون
١٤ - عبد الرحمن الناصر
١٥ - فتاة القيروان
١٦ - صلاح الدين الأيوبي
١٧ - شجرة الدر
١٨ - الانقلاب العثماني
١٩ - أسير المتمهدي
٢٠ - المملوك الشارد
٢١ - إستبداد المماليك
٢٢ - جهاد المحبين